
كتابى
٢٩
الجزء الثانى
غرام سوان
Looloo
www.dvd4arab.com
الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع
حلمى مراد

البحث عن الزمن المفقود

غرام سوان

ترجمها عن الفرنسية : دكتور نظمى لوقا

الجزء الثانى

وكان من عادتنا أن نعود دائماً من نزهاتنا على الأقدام فى وقت ملائم للصعود لزيارة عمتى ليونى قبل العشاء : وفى الأسابيع الأولى من عطلتنا التى نقضيها فى كمبراى ، وهى الأسابيع التى كان النهار فيها قصيراً ، كان يتسنى لنا أن نرى ، ونحن فى طريق عودتنا إلى شارع الروح القدس ، انعكاس الأفق الغربى من نوافذ البيت ، وبقعة قرمزية منعكسة على مياه البركة ، فى توهج نارى مصحوب أحياناً بلذعة برد ، ويقترن هذا الوهج فى ذهنى بتصور النار المشتعلة التى فوقها – فى تلك اللحظة نفسها – يجرى شواء الدجاجة التى ستمدنى – بدلا من اللذة الشاعرية التى وجدتها فى السير بالخلاء – بلذات حسية هى لذات الغذاء الجيد ، والدفء والراحة :

ولكن فى الصيف ، عندما كنا نعود إلى البيت ، لم يكن وقت غروب الشمس قد حان . وبينما نكون فى الطابق العلوى نؤدى زيارتنا المعتادة لعمتى ليونى ، تأخذ الأشعة فى الغوص إلى أن تستقر على حافة نافذتها ، وتتشابك مع الستائر الداخلية الكبيرة وأربطتها التى تثبتها فى الجدار ، وتنثر دوائر ذهبية على خشب الليمون المصنوع منه أثاث حجرتها ، وتضىء الحجرة كلها بتلك الأشعة المائلة التى تجعل ظلال الأشياء مستطيلة كأنها جذوع الأشجار فى الغابة . ولكن فى بعض الأيام – وإن كان هذا نادر الحدوث – يكون الوقت قد انقضى ، فلا نرى وهجاً نارياً منعكساً على البحيرة ، ولا نثاراً ذهبياً على أثاث حجرة عمتى ، بل يكون كل شىء شاحباً ، إلا أن

ضوء القمر يفترش المساحة كلها وينعكس على تموجات ماء البحيرة . وفى هذه الحالة ، عندما نقترب من البيت ، نتبين شخصاً واقفاً على عتبة الباب ، وتقول لى ماما :

– رباه ! هذه فرنسواز واقفة تبحث عنا . ولابد أن عمتك قد انتابها القلق : ومعنى هذا أنا تأخرنا !

ومن غير أن نتوقف لنخلع عنا ملابس الخروج نصعد على الفور إلى حجرة عمتى ليونى لكى نطمئنها ، ونثبت لها بمثولنا الجسدى أمامها أن كل تخيلاتها المذعورة لم يكن لها أساس من الصحة ، وأنه لم يحدث لنا مكروه . وكل ما هناك أننا مشينا اليوم فى « طريق جيرمنت » . وعمتى تعرف جيداً أن المرء حين يسير فى هذا الاتجاه لا يدرى بالضبط متى ينتهى سيره ومتى يعود : وعندئذ تقول عمتى :

– هاك يا فرنسواز ! أو لم أقل لك إنهم لابد قد ساروا اليوم فى طريق جيرمنت ؟ يا إله السموات ! لابد أنهم يتضوّرون الآن جوعاً ! ولا بد أن فخذ الضأن الذى أعددته لهم قد جف الآن جداً بعد كل هذه الساعات من الانتظار . إذن أنتم مشيتم اليوم فى طريق جيرمنت ؟

وتجيبها أمى :

– ولكنى كنت أظنك تعرفين هذا يا ليونى : وأحسب فرنسواز رأتنا نخرج من البوابة الصغيرة ، من حديقة المطبخ ...

ذلك أنه كان هناك فى ضواحى كمبراى طريقان ، كان من عادتنا أن نسير فيهما فى نزهاتنا على الأقدام ، وهما طريقان متضادان بكل معنى الكلمة . بحيث إننا كنا نخرج من باب مختلف للبيت كى نسير فى أحد الطريقين ، حسب اختيارنا : وهذان الطريقان يمر أحدهما فى اتجاه ميزجليز لا فينيز Meséglise la Vineuse ، وكنا نسميه « طريق سوان » ، لأنه كان لا بد لنا كى نصل إليه أن نمر على امتداد حدود ضيعه المسيو سوان : وللطريق الآخر هو « طريق جيرمنت » . ولم تكن لى — والحق يقال — معرفة بميزجليز لافينيز أكثر من الطريق المفضى إليها ، ومن بعض أهلها الذين قد يأتون فى أيام الأحد لاستنشاق الهواء فى كمبراى : وهم أناس لم تكن عمتى ولا أى أحد منا يعرفهم على الإطلاق ، ولذا كنا نستنتج أنهم حتماً « أناس لابد أنهم جاءوا من ميزجليز » : أما عن جيرمنت فقد أتيح لى أن أعرفها يوماً ما معرفة جيدة : ولكن هذا اليوم لم يحن إلا فيما بعد . وطوال فترة يفاعتى ، كانت ميزجليز شيئاً بعيداً عن متناول يدى مثل خط الأفق ، لأنها كانت مكاناً يظل متوارياً بين طوايا الريف مهما سار الإنسان نحوه قدماً ، وهو ريف ليس بينه وبين الريف المحيط بكمبراى وجه شبه . أما جيرمنت فلم تكن تعنى عندى أكثر من هدف نهائى أقصى ، هدف مثالى أكثر منه واقعياً : فطريق جيرمنت كان حينئذ ضرباً من الاصطلاح الجغرافى المجرد ، كالقطب الشمالى أو كخط الاستواء! ومن ثم كان السير فى طريق

جيرمنت للوصول إلى ميزجليز ، أو العكس ، يبدو لى تناقضاً أشبه بالدوران إلى الشرق لكى تصل إلى الغرب :

ولما كان من عادة أبى دائماً أن يقول عن « طريق ميزجليز » إنه يضم أبدع منظر عرفه على الإطلاق للسهل الممتد ، وإن « طريق جيرمنت » مكان نموذجى لمنظر النهر ، لذا تصورت كلا منهما كائناً مستقلا متميزاً ، فيه تماسك لا يوجد إلا فيما يختلقه الذهن من تصورات ، وصرت أرى أقل تفصيلاتهما شيئاً بالغ النفاسة ، ينطوى على امتياز باهر ، وإلى أن نصل إلى ثُرى أحد الطريقين ، لا تستوقفنى المناظر التى أمر بها . وحالى هذا أشبه بحال مشغوف بالذهاب إلى المسارح ، بحيث لا يعير الشوارع والحارات الكثيرة المفضية إلى المسرح نفسه أدنى التفات ، مهما كانت مواطن الجمال فيها . وكنت أقيس البعد بين الطريقين لا بالكيلومترات والأمتار ، بل بتباعد مكانيهما فى عقلى ، ذلك التباعد الذى زاده مرور الزمن ، لأننى كنت أحتفظ لكل منهما فى ذهنى بمستوى منفصل . وقد زاد هذا الاعتقاد رسوخاً فى ذهنى أنه لم يحدث قط أن سرنا فى الطريقين معاً فى يوم واحد ، أو فى سياق نزهة واحدة ، بل كنا نخصص لكل منهما يوماً مستقلا ، فلا عجب أن ينفصلا تمام الانفصال ، كأن كلا منهما لا علم له بوجود الآخر ...

فإذا قررنا المضى فى يوم إلى طريق ميزجليز انطلقنا (بدون إسراع لا موجب له حتى لو كانت السماء ملبدة بالغيوم ، لأن هذا

الطريق لم يكن طويلا جداً ولا يبعدنا عن البيت كثيراً) . وكأننا لا ننوى الذهاب إلى مكان معين ، فنخرج من الباب الأمامى لبيت عمتى ، وهو الباب المفتوح على شارع الروح القدس : ويحيينا فى الطريق الرجل الذى يصلح البنادق : ونلقى بخطاباتنا فى صندوق البريد ، ونبلغ تيودور رسالة من فرنسواز أثناء مرورنا به أن ما عندها من الزيت أو البن قد نضب ، ثم نغادر البلدة من الطريق الذى يمر على امتداد السور الأبيض لبستان المسيو سوان المترامى : وقبل أن نصل إلى هناك يلقانا على الطريق عبير أشجار الليلك فى هذا البستان ، وكأنه خرج خصيصاً ليرحب بالغرباء . وكانت أشجار الليلك ذات الأوراق الخضراء الغزيرة تبرز لنا من السور أزهارها القرمزية التى تتألق حتى فى الظل بضوء الشمس الذى اختزنته من استحمامها فيه . وبعض هذه الأشجار تتوارى عنا وراء كوخ أنيق يقيم فيه ناظر ضيعة سوان ، له سقف من القرميد على شكل جملون قوطى الطراز ، وأحسب جنيات الربيع خليقة أن تبدو فظة مبتذلة بالقياس إلى تلك الحوريات الشابة التى تضفى على هذه الحديقة الفرنسية سحر بلاد العجم ::

ومع أنى كنت شديد الشوق إلى تطويق هذه الأشجار المرنة القوام بذراعى ، وجذب هاماتها الرشيقة العطرة لأشم شذاها ملء خياشيمى ، إلا أننا كنا نمر بها من غير أن نقف عندها . لأن والدىّ انقطعا عن زيارة تانسنفيل Tansonville منذ زواج سوان ، ولكى

لايبدو كأننا نطل على بستانه ، كنا بدلا من السير فى الطريق الذى يتاخم ضيعته ثم نمضى مباشرة إلى الحقول ، نختار طريقاً آخر يدور حول الضيعة من الجهة الأخرى ، ويجعلنا نبتعد كثيراً عن البيت :

وذات يوم قال جدى لأبى :

– ألا تتذكر أن سوان أخبرنا أمس أن زوجته وابنته سافرتا إلى ريمس وأنه سينتهز هذه الفرصة لقضاء يوم أو يومين فى باريس ؟ ففى وسعنا إذن أن نمر بجوار البستان ، ما دامت الاثنتان ليستا هناك : فذلك يجعل طريقنا أقصر .

وفى ذلك اليوم وقفنا قليلا بجوار السور . وكان موسم الليلك قد انتهى أو كاد : ولكن بعض أشجاره كانت ما تزال مزهرة سامقة كأنها شمعدانات عالية . ولكن معظم الأشجار ذبلت فوقها الأزهار التى كانت منذ أسبوع واحد كأنها بحر زاخر بالزبد الأبيض والأحمر وله عبير فواح . أما الآن فها هى ذاوية جافة لا عطر لها . وبين جدى لأبى كيف أن معظم معالم المكان لم تزل كما هى : وكيف أن بعضها تغير منذ ذلك اليوم الذى تمشى فيه فى الحديقة مع سوان الأب ، يوم وفاة زوجته : وانتهز هذه الفرصة كى يروى لنا مرة أخرى تلك القصة القديمة .

وكان أمامنا درب يحف به نبات الكبوسين ، تحت وهج الشمس مباشرة ، يفضى إلى البيت : أما عن يميننا فكان البستان يمتد مترامياً إلى مسافة كبيرة ، فوق أرض مستوية : وكانت هناك بحيرة

زخرفية تحيط بها الأشجار العالية ، أنشأها والدا سوان . وعند أقدام الدرب الذى يفضى إلى هذه البحيرة الصناعية أنواع شتى من زهور الزينة الصفراء والزرقاء والحمراء ، فى غزارة عظيمة زادت هذه البحيرة وتماثيل حوريات الماء جمالا على جمال .

ولما كانت الآنسة سوان غير موجودة ، فقد وقانى هذا من المجازفة برؤيتها عندما تظهر عند أحد هذه الممرات ، وأن أكون موضع ازدراء هذه الفتاة الصغيرة الممتازة التى تتمتع بصداقة برجوت ، ومن عادتها أن تذهب معه لزيارة الكاتيدرائيات . ولكن هذا الأمان جعل توقفنا واكتشافى لأول مرة لتانسنفيل أمراً لا قيمة له عندى ، مع أن الضيعة كانت فيما يبدو مصدر متعة كبيرة متجددة لدى جدى وأبى . وقد كنت أتمنى أن يخيب ظنهما وأن أرى – على غير توقع – الآنسة سوان تبرز فى البستان مع والدها ، وفى مكان قريب منا جداً ، بحيث لا يتسع لنا مجال للهرب أو الروغان ، وبذلك يتحتم علينا أن نحييهما ونتعرف إليها .

ولذا عندما لاحظت فجأة سلة من القش ملقاة منسية على العشب بجوار شص (سنارة) كانت فلينته عائمة فوق سطح البحيرة ، بذلت كل جهدى كما أشغل انتباه جدى وأبى فى اتجاه آخر ، بعيداً عن هذه العلامة التى تدل على احتمال وجودها فى الضيعة . ولكن بما أن سوان قال لنا فى الليلة السابقة إنه لن يرحل على الفور لوجود ضيوف فى البيت لديه ، فمن الجائز أن يكون هذا الشص خاصاً بأحد

هؤلاء الضيوف . ولم يترام إلى سمعى وقع أى قدم على درب من الدروب . وفى مكان ما وسط الأشجار العالية كان هناك طائر متوار مثابراً على محاولة تقصير ذلك النهار بإطلاق نغمات صوتية يسبر بها عمق الصمت السائد من حوله فى كل اتجاه . ولكنه لم يتلق على صيحاته هذه جواباً سوى الصمت الأبدى الذى جمد اللحظة الراهنة فى مكانها ، بدلا من التعجيل بانقضائها : وكانت الشمس تنصب بلا رحمة من سماء ثابتة صافية لا سحاب فيها . وسطح الماء ساكن فى هذه القيلولة كأنه يحلم ولا شك بدردور هائل ، مركزه هذه الفلينة الطافية . وفجأة بدأت الفلينة تغوص قليلا . وخيل إلى أنه من واجبى أن أصيح لأنبه الآنسة سوان إلى أن السمكة بدأت تعض الطعم ، مجازفاً بذلك رغم رعبى من أن تعرفنى ....

وفيما كانت هذه الفكرة تراودنى اضطررت فجأة للجرى وراء جدى وأبى ، اللذين كانا ينادياننى ، متعجبين لأنى لم أتبعهما منذ البداية وقد انحرفا فى الدرب الصاعد إلى الحقول الفسيحة :

وكان هذا الدرب الذى يصعد التل غاصاً على الجانبين بنبات الزعرور البرى الطيب الرائحة الذى كنت قد رأيته يوم الأحد يزين مذبح الكنيسة ، فكأن جانبى الدرب كنائس صغيرة متوارية تحت أكوام هذه الزهور المكومة فوق مذابحها ، وكان عبيرها من الثراء والغزارة كأننى ماثل تماماً أمام مذبح العذراء ، والشمس تنصب أشعتها من فوق كأنما هى هابطة من نافذة مفتوحة : فانبهرت

أنفاسى بهذه الأحاسيس ، التى أغرقتنى دفعة واحدة ، حتى لقد حاولت أن أبعد عينى عنها ، لكى يتسنى لى أن أعود إليها بلذة متجردة وتشوق جديد : ولكن عبثاً حاولت ، فأينما حولت بصرى مصعداً فى التل وجدت تلك الأزهار البيضاء ذات الأريج الفواح كأنما هى بحر بلا انتهاء . وامتلأت نفسى بإحساس غامض بشهوة هذا الجمال الفطرى الذى لايدرك له سر ولا يسبر له غور ! وتمنيت لو كانت هناك أنواع أخرى من الزهور ، كى يتيح هذا التنوع لعينى راحة تزيد من متعتها :

ولاحظ جدى استغراقى فى هذا الجمال ، فقال لى مشيراً إلى سور تانسنفيل :

ـ أنت مغرم بالزعرور البرى . انظر إلى هذا الزعرور الوردى هناك ، أليس جميلا حقاً ؟

وكان ما أشار إليه نبات زعرور برى حقاً ، ولكنه وردى الأزهار ، وكانت أجمل فعلا من الأزهار البيضاء التى حولى : وقد تكاثرت هذه الأزهار الوردية بعضها فوق بعض ، فلم يظهر من الأوراق الخضراء شىء . كانت فى أبهى زينة كأنها تبرجت احتفالا بعيد دينى . وأنا شديد الولع باللون الوردى . أحب البسكويت إلىّ ما كان محلى بالسكر الوردى . وأحب الجبن إلىّ نوع وردى : والجبن العادى أجعله وردياً بأن أهرس فيه ثمار الشليك الحمراء : وقفز قلبى فرحاً بهذه الأزهار الوردية التى كأنها حسناء يافعة برزت

فى أبهى زينتها وسط عجائز مهلهلات الثياب ، فأزرت بسائر الأزهار التى من حولى فى كل مكان !

وقد أتاح لنا ارتفاعنا على منحدر التل أن نرى جانباً مما فى داخل بستان سوان الكبير ، فلمحنا ممشى تحف به أزهار البانسيه والياسمين وأزهار مختلفة الألوان ، وعلى الأرض المفروشة بالحصباء خرطوم للرى مطلى باللون الأخضر ، متعرج وفيه ثقوب ينساب منها الماء وينبثق على تلك الأزهار ، وينعكس الضوء على تلك القطرات المنسابة فيلونها بألوان قوس قزح . وفجأة توقفت جامداً فى مكانى ، عاجزاً عن الحركة ، مثلما يحدث عندما يبدو شىء لا يحتاج إلى أعيننا فحسب كى ندركه ، بل يحتاج إلى إدراك أعمق يستوعب كياننا كله . فقد كانت هناك فتاة صغيرة ذات شعر أشقر محمر ، يبدو أنها عائدة من نزهة على الأقدام ، وفى يدها شقرف ، واقفة تنظر نحونا ، رافعة إلينا وجهاً ينتشر فوقه النمش الوردى : وكانت عيناها السوداوان تلمعان ، وإن كنت فى ذلك الحين لا أعرف ، وما زلت لا أعرف كيف أحلل انطباعاتى القوية إلى عناصرها الموضوعية ، لأننى لا أمتلك ـ كما يقولون ـ ما يكفى من قوة الملاحظة لتحديد وعزل لون هاتين العينين ، لذا ظللت فترة طويلة بعد ذلك كلما فكرت فيها ، تذكرت عينيها اللامعتين هاتين وكأن لونهما لازوردى ناصع ، لا لشىء إلا لأن بشرتها شقراء .

وحدقت فيها أول الأمر بنظرة لم تكن مجرد رسالة من العينين ،

بل وكأن من هاتين النافذتين قد تجمعت كل حواسى لتطل منهما متحجرة لهفانة ، نظرة تكاد تصل إلى الجسم الذى تتجه نحوه وتلمسه وتحتضنه وتنطلق به ، بل وتلمس وتحتضن الروح أيضاً مع الجسد ، وخامرنى الفزع من أن يستعجلنى جدى وأبى فى أى لحظة إذا لاحظا وجود الفتاة ، فينتزعانى منها ويجعلانى أجرى أمامهما وأسبقهما بدلا من التلكؤ خلفهما . فرشقتها بنظرة أخرى متوسلة ، كل أمنيتها أن تتنبه لوجودى ، وترانى ، وتعرفنى ، وكانت هى تنظر إلى الأمام ، وإلى الجانبين ، كأنما لتتبين جدى وأبى ، ولاشك أن الانطباع الذى تكون لديها أننا جميعاً قوم مضحكون سخفاء ، لأنها لم تلبث أن أشاحت بوجهها فى عدم مبالاة وازدراء ، وتوارت كأنما لتجنب وجهها مهانة البقاء فى مجالهما البصرى : بينما واصلا هما سيرهما من غير أن يلاحظا وجودها . وعندئذ نظرت نحوى من غير أن يبدو على وجهها تعبير معين ، وكأنها لم ترنى ، اللهم إلا ابتسامة يسيرة لم أستطع تأويلها بمقتضى ما تلقيته من آداب السلوك إلا على أنها علامة على التقزز البالغ . وأشارت بيدها إشارة فجة ، كنت قد تعلمت فيما تعلمته من قواعد السلوك أنها إذا وجهت إلى شخص لا نعرفه بصورة علنية فليس لها إلا معنى واحد ، هو الإهانة المقصودة :

وصاحت سيدة ترتدى ثوباً أبيض بصوت ثاقب ينم عن سلطان ، لم أكن رأيتها حتى تلك اللحظة :

— جيلبرت . هيا ! ماذا تصنعين ؟

وكان على مسافة قصيرة منها سيد فى بدلة من الكتان ، ذات بنطلون قصير ، لم أكن قد رأيته أيضاً ، راح يحدق إلىّ بعينين تكادان تطفران من رأسه . وفى الحال اختفت ابتسامة الفتاة . ومضت ممسكة بشقرفها من غير أن تلتفت لتنظر مرة أخرى ناحيتى ، فى طاعة غامضة ماكرة .

وهكذا نما إلى سمعى اسم جيلبرت Gilberta ، وكأنه طلسم سحرى ربما أتاح لى فى يوم من الأيام أن أعيد اكتشاف من أضفى هذان المقطعان اللذان يتكون منهما اسمها شخصية محددة عليها ، مع أنها قبل ذلك بلحظة واحدة كانت مجرد شىء رأيته بغموض ، وها هو هذا الاسم قد ترامى إلى عبر الأزاهير والخمائل والياسمين ، حاداً ورطباً مثل الماء المنبثق من الخرطوم الأخضر ، فتضمخت به طبقات الجو وموجات الهواء التى مر بها ، حتى أن هذا الهواء تميز من كل هواء آخر بتلك الحياة التى تنبعث من صاحبة هذا الاسم وبه يناديها أولئك السعداء الذين يعيشون فى صحبتها . واقترن هذا الاسم بذلك الزهر الوردى الفريد من الزعرور البرى الذى يتوج هامة سور حديقتها . وبذلك العالم الخاص الذى تعيش فيه ، والذى أجهله أنا ولا ينبغى أن أنفذ إليه .

وبينما نحن نبتعد صاعدين التل سمعت جدى يهمهم لأبى :

— يا لسوان المسكين ! ويا لها من حياة تلك التى يسومونه إياها ! تصور أنهم أرسلوه بعيداً كى يتسنى لها أن تبقى وحدها مع

صاحبها شارلى ! فهذا هو شارلى ، وقد عرفته على الفور ! وتصور أن الطفلة فى سنها هذه تختلط بمثل هذه البيئة !

ولحظة اشتد علىّ وقع انطباع تلك اللهجة الآمرة المستبدة التى كلمتها بها أمها ، وكيف أن جيلبرت لم ترد عليها ، فأشعرتنى أنها مضطرة لإطاعة شخص آخر ، وأنها بذلك ليست أسمى منزلة من العالم أجمع كما كنت أتخيل ، فهدأ هذا وسكن من عذابى بعض الشىء ، وأحيا عندى بعض الأمل ، ولطف حرارة حبى . ولكن سرعان ما اتقد هذا الحب فى أعماق من جديد ، كرد فعل حاول به قلبى أن يرتفع إلى مستوى جيلبرت ، أو أن يهبط بها إلى مستواه .

أحببتها ، وكنت آسفاً لأن الوقت لم يتسع لى ـ ولم تسعفنى سرعة خاطرى ـ كى أهينها ، أو أسىء إليها بأى صورة ترغمها على تذكرى على نحو ما . كنت أعرف أنها رائعة الجمال ، لدرجة أننى تمنيت لو أتيح لى أن أعود أدراجى لكى ألوح لها بقبضة يدى وأصيح بها :

ـ أعتقد أنك قبيحة ، بشعة ، مقززة للغاية !

ولكنى مع هذا مضيت مبتعداً عنها ، حاملا فى حنايا صدرى إلى الأبد منذ تلك اللحظة أول نموذج لسعادة فوق متناول غلام صغير مثلى بموجب قوانين الطبيعة التى لا يمكن خرقها ، وهذا النموذج هو صورة فتاة صغيرة ذات شعر ضارب للحمرة ، وبشرة مرقشة بنمش وردى ، ممسكة فى يدها بشقرف ، وهى تبتسم وتحدق فى

تحديقاً غامضاً لا ينم على شىء معين . وها هو السحر الذى ملأ مثل سحابة من البخور تلك الفجوة بين أزهار الزعرور البرى الوردية ، التى من خلالها سمعت أنا وهى نبرات اسمها ، قد بدأ يقهر ويغطى ويعطر ويجمل كل ما له ارتباط به ، حتى جديها اللذين كان جداى سعيدى الحظ بمعرفتهما ، ومهنة سمسرة الأوراق المالية المجيدة ، بل وجيرة الشانزليزيه التى تقطن بها فى باريس .

وعند عودتنا قال جدى :

ـ يا ليونى ! كم كنت أتمنى لو كنت معنا بعد ظهر اليوم ؛ فما أحسبك كنت سوف تعرفين تانسنفيل . ولو واتتنى الجرأة لكنت قطعت لك فرعاً من ذلك الزعرور البرى الوردى الذى تحبينه كثيراً .

ثم روى لها جدى حكاية نزهتنا ، إما لكى يسليها ، أو ربما لأنه كان لم يزل لديه بعض الأمل فى أنها قد تتأثر بهذه الأوصاف الجميلة المثيرة فتنهض من فراشها وتخرج إلى الخلاء . ذلك أنها فيما مضى من الزمان كانت شديدة الشغف بتانسنفيل ، ثم إن زيارات سوان كانت هى الزيارات الوحيدة التى تسمح بها فى الوقت الذى أوصدت فيه بابها فى وجوه الناس جميعاً . ومثلما كانت فى تلك الأيام المتأخرة ترسل إليه ـ عندما يأتى ويطلب زيارتها لأنها كانت لم تزل الشخص الوحيد فى البيت الذى يطلب زيارته ـ وتقول إنها متعبة فى هذه اللحظة ومخلدة للراحة ، ولكن يسرها أن تراه فى فرصة أخرى ، قالت هذا المساء لجدى :

— أجل : يوماً ما عندما يكون الجو جميلا سأستقل العربة إلى بوابة ذلك البستان .

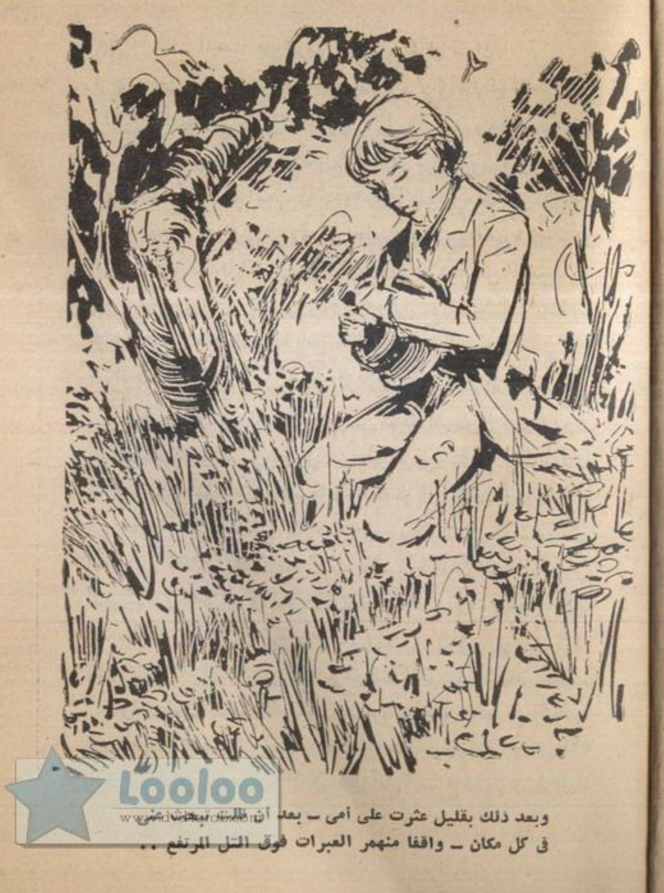
وكانت فى ذلك صادقة مخلصة، لأنها كانت تود أن ترى سوان وتانسنفيل مرة أخرى ، ولكن كانت الرغبة وحدها هى ما تقدر عليه الآن بما تبقى لها من قوة ، أما تحقيق هذه الرغبة فكان فوق طاقتها .

وفى بعض الأحيان كانت فترة من الجو المعتدل تمدها بمزيد من الحيوية ، فتنهض وترتدى ثيابها ، ولكن قبل أن تصل إلى الحجرة الخارجية ينتابها التعب مرة أخرى ، وتلح فى العودة إلى فراشها .

وكانت هذه العملية التى بدأت لديها — وإن كانت بالنسبة لها قد بدأت فى وقت مبكر مما ينبغى بالنسبة لجميعنا — عبارة عن التخلى التام والعام عن الحياة والنشاط ، ذلك التخلى الذى يحدثه التقدم فى السن استعداداً للموت . إنه مرحلة « الخادرة » التى تلاحظ كلما امتد العمر بإنسان أكثر مما يجب ، حتى لدى العاشقين القدامى الذين عاشوا بعضهم لبعض بكل ولع ، ولدى الأصدقاء القدامى الذين تربط بينهم أوثق الصلات العقلية والتعاطف ، وإذا بهم بعد سنة معينة لا يكلفون أنفسهم عبور الشارع ليرى كل منهم صاحبه ، ويكفون عن التراسل ، ويعلمون عندئذ أنهم لن يتواصلوا بعد الآن فى هذه الدنيا : ولا بد أن عمتى كانت مدركة تماماً أنها لن ترى سوان بعد

ذلك ، وأنها لن تغادر بيتها أبداً : ولكن هذه العزلة التامة بدت مقبولة لديها بكل التأهب لها ، ولنفس السبب الذى يجعلها بالنسبة لنا لا تطاق ، أى لأن هذه العزلة مفروضة عليها بسبب تناقص قوتها التدريجى المتواصل ، الذى كان فى وسعها أن تعيشه فى كل يوم ، بما يسببه كل فعل من أفعالها من الإجهاد ، هذا إن لم يكن مؤلماً بالفعل ، فيضفى ذلك على همودها وعزلتها وسكونها سحر الراحة المنعش .

ولم تذهب عمتى لتشاهد الزعرور البرى الوردى فى سياج البستان ، ولكنى فى كل ساعات النهار كنت أسأل بقية الأسرة أليست مزمعة أن تذهب ، وهل لم يكن من عادتها فى الزمن الغابر أن تذهب كثيراً إلى تانسنفيل ؟ وكنت بهذه الأسئلة أحاول أن أستدرجهم للحديث عن الآنسة سوان أو عن والديها وجديها ، الذين بدوا لى فى عظمة الآلهة ومجدهم الأثيل، وكان اسم سوان قد غدا لى شبه أسطورى ، فكنت حين أتحدث مع أفراد أسرتى أشتاق شوقاً مرضياً إلى سماعهم يتفوهون به . أما أنا فلم أكن أجسر على النطق به، إلا أنى كنت أستدرجهم إلى مناقشة أمور تؤدى بطبيعتها إلى ذكر جيلبرت وأسرتها . وبذلك أحس أنى لست منبوذاً من صحبتها على نحو ما : وقد اضطر أبى إلى تصحيح عبارة لى أخطئ فيها عمداً ، بأن أزعم أن مهنة جدى كانت قبل أيامه ، أو أن الزعرور البرى الوردى كان فى عرض الطريق ، فيقول أبى :



وبعد ذلك بقليل عثرت على أمى – بعد أن ظلت تبحث عنى فى كل مكان – واقفا منهمر العبرات فوق التل المرتفع ..

– كلا . هذه المهنة بدأت بوالد سوان ، والزعرور البرى الوردى فى بستان سوان ، فى سياج البستان :

وعندئذ أسكت قليلا كى ألتقط أنفاسى ، لأن الجهد الذى بذلته كان خانقاً . ولأن مجرد سماع الاسم كان يرهقنى ، لأنه يحرك المكامن المقترنة به فى فؤادى . ويثير لدى لذة لا تعدلها لذة ، وأعجب لأن التفوه بهذا الاسم لا يسبب لهم أى نوع من اللذة . وأحول الحديث إلى سياق آخر حرصاً منى على عدم افتضاح سرى . ولأننى أخشى أيضاً أن أفسد براءة قلوبهم لو سرى إليها شىء من اللواعج التى يثيرها فى سريرتى هذا الاسم .

* * *

وفى تلك السنة حدد والداى موعد العودة إلى باريس قبل التاريخ المعتاد فى كل سنة . وفى صباح يوم السفر عقصت شعرى ، تأهباً لمواجهة المصور ، ووضعت على رأسى قبعة جديدة . ولبست سترة من القطيفة ، وبعد ذلك بقليل عثرت على أمى – بعد أن ظلت تبحث عنى فى كل مكان – واقفاً منهمر العبرات فوق التل المرتفع الملاصق لتانسنفيل ، أودع الوداع الأخير نبات الزعرور البرى ، وأضم فروعه الحادة إلى صدرى ، وبلا مراعاة للجهود المضنية التى بذلت فى عقص شعرى وتجميعه على جبهتى ، كنت أطأ بقدمى أوراق العقص التى انتزعتها من شعرى ، والقبعة الجديدة أيضاً ! ولم تتأثر أمى على الإطلاق بدموعى الغزيرة ، ولكنها لم تستطع أن تكتم صرخة

فزع عندما رأت حطام قبعتي الجديدة ، وتمزق سترتي المخملية ! ولكني لم أسمع صرختها واحتجاجها ، بل واصلت مناجاتي الباكية :

ـ يا زعروري البري الغالي ! أنت لا تريد شقائي ، ولا تحملني على فراقك ! أنت لم تسبب لي أدنى أذى ! لذا سأحبك على الدوام !

وجففت دموعي ، ورحت أقطع على نفسي العهود للزعرور البري ، إنني عندما أكبر ، لن أحذو حذو سائر الناس الحمقى ، بل إنني ـ حتى وأنا في باريس ـ في أيام الربيع الجميلة ، بدلا من الزيارات والإصغاء للثرثرة العقيمة ، سوف أقوم برحلات خلوية إلى الريف لأرى بواكير أشجار الزعرور البري المزهرة !

ومتى وصلنا إلى الحقول ، لم نكن نغادر أشجار الزعرور البري على امتداد مسيرتنا في طريق ميزجليز ، بل كنا نمر بها دائماً ، أو يحمل إلينا الهواء دائماً عبيرها . وهذه الرياح كانت في وجداني سر عبقرية كمبراي : ففي كل سنة ، يوم وصولنا إلى هناك ، لكي أشعر أنني فعلا في كمبراي ، كنت أذهب حتماً لأتسلق التل ، كي أشعر بهذه الرياح تخترق ثيابي ، وتدفع بي للجري في اتجاهها : فالمرء يجد دائماً في صحبته تلك الرياح عندما يمشي في طريق ميزجليز ، في ذلك السهل المترامي الذي يمتد كيلومترات لأعود لها ، بغير عائق :

وقد علمت أن الآنسة سوان كان من عادتها أن تكثر من الذهاب لقضاء بضعة أيام في لاون Laon ، على بعد كيلومترات كثيرة جداً ، ولكن كان يعزيني عن هذا أن لا عائق أمام انفساح المنظر والطريق :

وفي ساعات ما بعد الظهر الحارة عندما أشعر بنفحة هواء تهب من أقصى الأفق ، فتتمايل أمامها رءوس سنابل القمح في الحقول البعيدة ، وتنساب كالفيضان فوق هذه المساحة الشاسعة ، لتستقر في النهاية دافئة موسوسة بين الأعشاب تحت قدمي ، كنت أحس أن هذا السهل المترامي المشترك بيننا ، يجمعنا مثلما يفرق بيننا ، وكأنه يربط كلا منا بالآخر : وأتخيل أن هذه النسمة نفسها قد مرت بها أيضاً ، وأن همس هذه الرياح يحمل لي رسالة منها ، وإن عجزت عن فهمها ، فأحاول أن أقبض على النسيم الذي يهب من ناحيتها ، وألثمه وهو يمر بي :

وكانت عن يساري قرية تسمى شمبييه Champieu ، وعن يميني كنت أستطيع أن أتبين عبر حقول القمح منارتي كنيسة سانت أندريه ديه شان St. André des Champs ، وهما مستدقتان ، صفراوان ، خشنتان ، كأنهما سنبلتا قمح :

وعلى مسافات منتظمة ، من بين زينة أوراقها التي لا شبيه لها ، والتي لا يمكن الخلط بينها وبين أي أشجار أخرى للفاكهة ، كانت أشجار التفاح تعرض على الأنظار بتلاتها البيضاء الناعمة كالساتان ، أو تهز في عناقيد ومجموعات حيية براعمها المتوردة التي لم تتفتح بعد :

وفي غضون سيري في طريق ميزجليز لاحظت لأول مرة الظل الدائري الذي تلقيه أشجار التفاح على الأرض المشمسة ، ولاحظت أيضاً تلك الخيوط من الحرير الذهبي التي تنسجها أشعة الشمس

الغاربة تحت أوراقها ، وقد أرى أبى يضرب بعصاه فيما بينها من غير أن تحيد عن مسارها المستقيم .

وأحياناً يتسلل قمر أبيض متسلقاً سماء ما بعد الظهر كأنه سحابة صغيرة ، متخفية ، أو كأنه ممثلة لم يحن دورها بعد للظهور على المسرح ، ولذا تذهب فى ثيابها العادية إلى الصالة لتشاهد مع الجمهور تمثيل بقية أعضاء الفرقة ، برهة ، ولكنها تجلس فى مؤخرة الصفوف لأنها لا تريد أن تلفت إليها الأنظار !

وكنت فيما مضى أسعد برؤية صورة القمر فى الكتب والرسوم ، وإن كانت هذه الأعمال الفنية مختلفة جداً ـ على الأقل فى أعوامى الباكرة قبل أن يرهف « بلوخ » عينى وذهنى للهارمونيات الدقيقة ـ عما يبدو لى القمر اليوم ، ولعل تلك الكتب كانت رواية بقلم سانتين Saintine ، أو منظراً بريشة جلير Glegre ، يبدو فيه القمر وكأنه منجل فضى فوق صفحة السماء . وهى أعمال غير ممنكة فى تلك الأيام تضاهى فى فجاجتها انطباعاتى ، وكانت شقيقتا جدتى تغضبان جداً لإعجابى بها . فقد كان من رأيهما أنه ينبغى ألا يوضع أمام أنظار الأطفال ليستحوذ على إعجابهم وذوقهم الفطرى إلا تلك الكتب والصور التى يجدر بهم أن يعجبوا بها عندما تنمو عقولهم وتنضج أذواقهم . ولا شك فى أنهما كانتا تعدان القيم الجمالية أشبه بالموضوعات والأشياء المادية التى لا يفوت الرؤية الصافية الخالية

من الغيوم والأكدار أن تميزها ، بدون حاجة إلى أن تبدأ القلوب باختزان بذورها ثم تستنبتها وتنضجها مع مرور الزمن ببطء :

* * *

وعلى امتداد طريق ميزجليز ، فى مونجوفان Montjouvain ، بيت مشيد على حافة بركة كبيرة ، ويشرف عليها تل وعر المرتقى تكسوه الشجيرات ، يعيش فيه فانتى Vintueil ولذا كنا كثيراً ما نصادف ابنته تقود دوكارها بأقصى سرعة على ذلك الطريق . وبعد سنة معينة لم نعد نراها أبداً وحدها ، بل فى صحبتها دائماً صديقة ، هى فتاة أكبر منها سناً ، لها سمعة سيئة فى المنطقة . وأخيراً استقرت نهائياً ذات يوم بصفة دائمة فى مونجوفان . وقال الناس :

ـ لابد أن المسيو فانتى المسكين قد أعماه الحب فلم يعد يرى ما يتحدث عنه كل الناس ، وترك ابنته ـ وهو الرجل الذى يرتاع إذا استخدمت أى لفظ بمعنى سيئ ـ تأتى بفتاة مثل هذه لتعيش تحت سقفه . وهو يقول : إنها امرأة ممتازة جداً ، ولها قلب من ذهب ، وإنها كانت خليقة لو وجدت المران والتدريب أن تكون لها موهبة موسيقية نادرة . ولكن من المؤكد أن ما تعلمه هذه الفتاة لابنته ليس الموسيقى !

ولكن المسيو فانتى أكد لهم أنها تعلمها الموسيقى ، ومن الغريب حقاً أن الناس يثيرون دائماً الإعجاب بصفاتهم العادية جداً لدى أقارب كل من لهم اتصال جسدى به . فالهوى الجسدى ـ الذى شهر

به بين النـاس – برغم ضحـاياه على إبراز كل ما يمكنهم إظهاره من الأثرة والكرم والنجدة ، وبذلك يتألقون فى عيون الناظرين إليهم .

وكان الدكتور برسبييه ، مؤهلا بصوته العالى وحاجبيه الكثين للقيام كما يهوى بدور المشهر المرائى ، من غير أن يهدر سمعته وشهرته بطيبة القلب وسرعة الغضب ، ولذا كان يجعل الخورى وسائر الناس يضحكون إلى أن تدمع عيونهم ، بأن يقول بصوته الأجش :

– ما قولكم الآن فى هذا ؟ يبدو فعلا أنها تعزف الموسيقى مع صديقتها الآنسة فانتى . أيدهشكم هذا ؟ أنا شخصياً لا أعرف شيئاً على الإطلاق ، سوى ما قاله لى بابا فانتى بالأمس . ثم إنه من حق هـذه الفتـاة تمـاماً أن تشغف بالموسيقى . وأنا شخصياً لن أفكر فى إحباط الموهبة الفنية لأى فتاة . ويبدو أيضاً أن هذا رأى فانتى . ولذا يعزف هو الموسيقى كذلك مع صديقة ابنته . بحق السماء ! لا بد أن ذلك البيت صار جوقة موسيقية حقيقية ! ما الذى يضحككم بحق السماء ؟ لم أقل شيئاً سوى إنهم يعزفون الموسيقى أكثر مما يجب ، هؤلاء الثلاثة ! وقد قابلت بابا فانتى منذ أيام قرب الجبانة : وكان لا تكاد تحمله قدماه !

وكل من شاهد كما شاهدنا نحن المسيو فانتى ، فى ذلك الحين ، وهو يتحاشى من يعرفهم من الناس ، ويشيح بوجهه كلما لمحهم من بعيد ، يجده قد تغير فى أشهر قلائل وصار شيخاً ، غارقاً فى هوة من الأحزان ، عاجزاً عن بذل أى مجهود ليس من شأنه أن يفضى

مباشرة إلى سعادة ابنته . وصار يقضى أياماً بأسرها إلى جانب قبر زوجته : حتى أن كل من رآه أدرك أن الرجل يموت موتاً بطيئاً وهو كسير القلب ، ولا يكاد أحد يصدق أنه لا يلقى بالا إلى كل الإشاعات التى تلاك من حوله . ولعله كان يعرف ، بل وكان يصدق ما يقوله جيرانه . وربمـا لا يوجد أحد من الناس – مهما كان صارم الفضائل متزمتاً فيها – ليس معرضاً لأن يجد نفسه – بحكم الظروف المعقدة – يعيش عن كثب من نفس الرذيلة التى كان أعلى الناس صوتاً بالتنديد بها ، من غير أن يعرفها فى البداية تحت ذلك القناع الذى تتخذه عندما تمثل بين يديه ، لكى تكون أشد تمكناً من إيلامه : وقد يكون مصدر هذا العذاب أحب الناس إليه وآثرهم لديه : ولكن رجلا له مثل حساسية المسيو فانتى لابد أن يكون ألمه أضعاف ألم رجل عادى عجمت الحياة عوده وعلمته الصلابة ، وهو يرى نفسه مضطراً للإذعـان لتلك المواقف النابية التى يزعم النـاس – وعن خطأ ما يزعمون ! – أنها لا تحدث إلا فى الأوساط البوهيمية دون سواها : فالواقع أن هذه الرذائل التى توصف بالشذوذ تزدهر وتؤتى ثمارها من بذور غرستها الطبيعة نفسها فى نفس الطفل ، حين مزجت بين صفات أمه وأبيه ، على نحو ما مزجت بين لونى عينيهما .

وبالغة ما بلغت معرفة المسيو فانتى بسلوك ابنته ، إلا أنه لم يترتب على هذا أى نقصان فى توله بها إلى حد العبـادة . فحقائق الحياة لا تتوغل إلى المجال الذى تستقر فيه معتقداتنا . ولأن حقائق الحياة

ليست هى التى أنجبت هذه المعتقدات ، لذا فهى عاجزة عن تدميرها والقضاء عليها . أجل إنها تستطيع أن توجه إليها الضربات ، وتكيل لها التفنيد والتسخيف ، ولكنها هيهات أن تنال منها أو توهنها . وطوفان الشقاء والأمراض الذى ينصب على أسرة ما بلا انقطاع ، لا يمكن أن يحملها على فقدان إيمانها برحمة الله أو مقدرة الطبيب .

ولكن عندما نظر مسيو فانتى إلى ابنته وإلى نفسه من وجهة نظر الناس ، ومن وجهة نظر سمعتهما ، وعندما حاول أن يقف إلى جانبها فى نفس المستوى الذى يشغلانه معاً فى تقدير جيرانهما ، عندئذ تحتم عليه أن يصدر حكمه بالإدانة ، فيدين نفسه ويدينها اجتماعياً بأحط النعوت والألفاظ التى استخدمها ألد أعدائه فى كمبراى . وإذا به يرى نفسه ويراها فى الدرك الأسفل . ولذا اصطبغت سحنته بتلك المهانة . وهاله الفارق بينه وبين من يراهم جديرين بالاحترام من حوله (مع أنهم من قبل كانوا أقل منه بكل المقاييس) وتقطعت نفسه حسرات وهو يبحث عبثاً عن وسيلة ترفعه إلى مستواهم .

وذات يوم ، فيما نحن سائرون مع سوان فى أحد شوارع كمبراى ، وجد المسيو فانتى نفسه فجأة – وهو خارج من شارع آخر – وجهاً لوجه أمامنا جميعاً ، بحيث لم يجد فرصة للروغان . وعندئذ وجد المسيو سوان من واجبه بمقتضى تلك الرحمة المتعالية التى يتمتع بها رجل المجتمع الذى حنكته الدنيا – وأيضاً بحكم انحلال أهوائه الخلقية – أن ما استولى على فانتى من الخزى والعار مبرر

كاف لمعاملته بمودة من شأنها أن ترفع من شأن سوان فى عين نفسه ، لما فيها من قيمة كبيرة نادرة يفتقر إليها الرجل ، فتحدث طويلا مع المسيو فانتى ، مع أن علاقته السابقة به كانت سطحية ، ودعاه – قبل أن ينصرف عنا – أن يبعث بابنته ذات يوم لتلعب فى حدائق تانسنفيل . وهى دعوة لو أنها وجهت من عامين لكانت خليقة أن تغضب المسيو فانتى أشد الغضب – بسبب تمسكه بالفضيلة وإدانته لزواج سوان – إلا أنها ملأته الآن حبوراً ففاض محياه بالعرفان . وشعر بأن هذه الدعوة تدعيم عظيم لموقف ابنته . إلا أنه لحيائه الشديد لم يجد من اللائق استغلال هذا الكرم وقبول الدعوة ، وآثر أن يحتفظ بها رصيداً أفلاطونياً يكفيه منه الشعور بالرضا .

وبعد أن انصرف سوان ، قال لنا بنفس الحماسة والإجلال اللذين يجعلان حسناوات الطبقة الوسطى يقعن فريسة السحر الثقافى والجسدى لإحدى الدوقات ، مهما كانت قبيحة حمقاء :

– يا له من رجل ساحر ! ما ألطفه ! ومن المؤسف حقاً أن يكون قد تردى فى هذا الزواج المنكود !

وعندئذ بدا مبلغ ما فى نفوس الناس – حتى أشدهم إخلاصاً – من رياء ، فإذا بهم حين يتحدثون مع أى شخص يحبسون عنه رأيهم الحقيقى فيه ، ثم يصرحون به متى ابتعد عنهم . ولذا رأيت أسرتى تنضم إلى المسيو فانتى فى التنديد بزواج المسيو سوان ، مستندين إلى مبادئ وأعراف وتقاليد ، وكأن هذه المبادئ والأعراف – وهم

يتحدثون إلى المسيو فانتى – ليست منتهكة فى مونجوفان ، لأن الكلام معه كان بصيغة حديث بين مجموعة متجانسة النوع من الناس .

ولم يرسل المسيو فانتى ابنته لزيارة المسيو سوان ، فكان المسيو سوان أول من أسف لذلك ، لأنه تذكر بعد لقاء المسيو فانتى أنه كان ينوى منذ مدة طويلة أن يسأله عن شخص يحمل نفس الاسم ، يظنه سوان من أقربائه . وكان ينوى أن يسأل المسيو فانتى عن هذا الموضوع عندما يحضر مع ابنته إلى تانسفيل .

ولما كان طريق ميزجليز أقصر الطريقين اللذين كنا نستخدمهما فى مسيراتنا حول كمبراى ، ولذا كنا نخصصه للأيام ذات الطقس غير المستقر . وكثر فى هذا الموسم سقوط الأمطار ، لذا لم تغب عن أنظارنا حافة غابة تانسفيل ، كى يتسنى لنا فى أى لحظة أن نجرى لنحتمى تحت سقف أوراقها الكثيفة .

وفى كثير من الأحيان كانت الشمس تختفى خلف سحابة ، تخفى قرصها ، ولكن أشعة الشمس تصبغ حوافيها بألوان ذهبية ، ويختفى الضوء الساطع من المنظر المحيط بنا ، وكأن كل مظاهر الحياة فيه قد توقفت ، فى حين ترتسم قرية روسنفيل على صفحة السماء بكل تفصيلاتها الدقيقة بصورة مذهلة . وجرفت الرياح غراباً من فوق مجثمه ، فطار مبتعداً واستقر على مبعدة ، فى حين تكتسب الغابة على حافة الأفق لوناً أزرق أعمق من سائر صفحة السماء الشاحبة ،

كأنما نقشت صورتها نقشاً بارزاً مثل تلك النقوش التى ما زلنا نراها فى البيوت القديمة :

ولكن فى أيام أخرى يبدأ المطر فى الهطول ، بعد أن نكون توقعنا ذلك وتلقينا تحذيراً عنه من جانب البارومتر الذى يعلقه صانع النظارات فى مدخل محله : وتتساقط قطرات المطر فى مجموعات كأنها الطيور المهاجرة فى لحظة معينة ، وتهطل من السماء فى انتظام كانتظام الطوابير الزاحفة . ولا تلمح بين صفوفها المتراصة أى اختلال ، بل تتواكب القطرات وتسود صفحة السماء مثلما يسود لونها بأسراب طيور السنونو المهاجرة إلى الجنوب . ونحتمى تحت الأشجار ؛ وعندما يخيل إلينا أن الانهمار قد انقطع ، نجد قطرات متباعدة تهطل ، بمعدل أبطأ ، وفى تباعد ، إلا أننا لا نبالى بها ونبرز من تحت ملاذنا الأخضر ، ونلعب مع بقايا المطر لعبة الاستخفاء : نرفع وجوهنا ، وإذا بالقطرات التى تجمعت فى تجويف ورقة كبيرة تفاجئنا لتهبط فوق وجوهنا من ارتفاع الشجرة الشاهق .

وفى كثير من الأحيان أيضاً نجرى لنحتمى بمدخل كنيسة « سانت أندريه ديه شان » ونحن نتعثر ونتخبط بين تماثيل قديسيها : ويا لها من كنيسة فرنسية الطابع حقاً ! ففوق بابها صور القديسين ، وملوك الفروسية وفى أيديهم الذنابق ، وصور حفلات الزواج والجنائز منحوتة هناك على نفس الهيئة التى تتجلى فى ذهن فرنسواز العامى . وقد سجل النحات هناك أيضاً بضعة أحداث مقتبسة من أرسطو

ومن فرجيل ، تماماً على نحو ما تنطلق فرنسواز فى مطبخها لتتحدث عن القديس لوى Louis وكأنها كانت تعرفه شخصياً ، لا لشىء سوى استخدام هذا الحديث لبيان الفرق بينه وبين جدى وجدتى اللذين كانت تعدهما أقل قداسة وبراً وصلاحاً .

وفى وسع المرء أن يتبين هنا أن الأفكار التى كانت لدى فنان العصر الوسيط ولدى فلاح القرون الوسطى (وفلاحة من هذا النوع ها هى حية ترزق تطهو لنا الطعام فى القرن التاسع عشر) عن التاريخ الكلاسيكى وتاريخ المسيحية الباكر ، أفكار تستحق الصفح والتسامح لما تتسم به من بساطه أمينة إلى حد السذاجة ، وهى فى الحقيقة ليست أفكاراً مستقاة من الكتب ، بل من تقاليد قديمة ومباشرة وشفوية ونابضة بالحياة .

وهناك شخصية أخرى من شخصيات كبراى كنت أميزها أيضاً بقوتها ونمطيتها فى المنحوتات القوطية لكنيسة « سانت أندريه ديه شان » ، وهى شخصية الفتى تيودور Théodore ، مساعد البقال كامى Camus . والواقع أن فرنسواز كانت تحس فى أعماقها أن تيودور هذا معاصر من مواطنيها ، لأن عمتى عندما كانت العلة تشتد عليها ، بحيث يستعصى على فرنسواز أن تحملها وحدها لتنقلها من فراشها إلى كرسيها ، لا تسمح لخادمة المطبخ بالصعود لمساعدتها ، بل ترسل فى طلب تيودور . والعجيب أن هذا الفتى الذى كان معروفاً فى القرية ـ وبحق ـ بأنه « ابن سوء » .

كان يفيض بذلك الروح الذى سجله النحات على مدخل كنيسة سانت أندريه ديه شان ، ولا سيما فى أمارات الاحترام الواجب ـ فى نظر فرنسواز ـ بإزاء « المرضى المساكين » ، وعلى الخصوص نحو « سيدتها المسكينة » ، ولذا كان يبدى وهو ينحنى لرفع رأس عمتى من فوق وسادتها نفس البساطة والحماسة التى يبديها الملائكة الصغار فى تلك اللوحة الكنسية ، وما أكثرهم فيها حاملين فى أيديهم الشموع الرفيعة وهم يحفون بجثمان سيدتنا العذراء . وكأنهم بأجسامهم العارية الهامدة كأشجار الشتاء ماتوا أيضاً ، فى انتظار يوم تدب فيهم الحياة ويورقون ، على هيئة وجوه سوقية كلها بساطة ممزوجة بالخبث ، مثل وجه تيودور ، ولها نضرة التفاح الناضج !

وهناك أيضاً ، تمثال ليس مثبتاً فى الجدار مثل أولئك الملائكة الصغار ، بل هو منفصل عن المدخل ، وبحجم أكبر من الحجم البشرى الطبيعى ، لامرأة منتصبة القامة فوق قاعدة، مثلما تقف نساء البشر فوق مواطئ الأقدام، لتحتمى من الاتصال بالأرض الرطبة : ولهذه القديسة وجنتان مليئتان وثديان ناهدان قويان بارزان من تحت ثيابها كعنقودين من العنب الناضج داخل كيسين ، وجبهتها ضيقة ، وأنفها قصير يدل على العناد ، وعيناها غائرتان ، ومنظرها يدل على القوة وصلابة البشرة والبسالة والإقدام مثل الريفيات فى هذا الإقليم . وكان هذا التشابه الذى أضفى على التمثال نفسه رقة وحيوية لم أكن أتوقعهما فيه ، كان يتأكد كثيراً بوصول إحدى الفتيات من

الحقول المجاورة ، وقد جاءت كما جئنا لتحتمى تحت مدخل الكنيسة لتحتمى من المطر ، فيتيح لنا وقوفها بجوار تمثال القديسة أن ندرك مدى صدق ذلك العمل الفنى ، على نحو ما يتسلق النبات الطبيعى واجهة منحوتة فوقها أوراق نبات ، فإذا بك تحس من هذا التجاور مدى صدق الفنان وإخلاصه للطبيعة الحية :

وأما أعيننا — ونحن هناك — نرى عن بعد الأرض الموعودة أو الملعونة ، ترى روسنفيل التى لم يتح لى أن أنفذ وراء أسوارها : وعندما يكف المطر عن الهطول فوقنا تظل روسانفيل فريسة العاصفة كأنها بلدة ملعونة من تلك البلدان التى ذكرتها التوراة وقالت إن الرب صب عليها سهام غضبه . وأحياناً نرى هذا العقاب يرتفع عنها بعد حين ، ويشملها عفو الرحمن ، وتشرق شمسه مرة أخرى على مساكنها بأشعة غير متساوقة :

وفى بعض الأحيان قد يسود الطقس بحيث نضطر للاحتماء داخل بيتنا ، وعندئذ يبدو مشهد البيوت تحت المطر والغيم أشبه بالمناظر البحرية ، ومن فوق البيوت تدنو السحب المطيرة ، وترعد السماء وتبرق : وتلوح الأنوار من النوافذ ، وكأنها أنوار قوارب ألقت مراسيها طول الليل فى عرض البحر :

ولكن ما أهمية المطر أو العاصفة ؟ إن الطقس السيء فى الصيف ليس إلا نوبة عارضة من غضب سطحى عابر بالقياس إلى اعتدال الجو السائد فى معظم الأيام : وهذا نقيض جو الشتاء على طول الخط :

وفى مثل تلك الأيام أجلس فى الرواق الصغير أطالع كتاباً ، انتظاراً لوقت العشاء ، وأرنو من خلال النافذة ، وأصغى لتساقط الماء من أشجار كستنائنا ، مدركاً أن هذا المطر من شأنه أن يجلو خضرة أوراق حديقتنا ؛ وأشعر بالاطمئنان إلى أن المطر مهما انهمر طول الليل ، ففى الغد سيكون الجو صحواً ، وسأجد سياج تانسنفيل وقد ازدادت أوراق نباتاته اخضراراً ونضارة ، تلك الأوراق التى يحاكى شكلها شكل القلب . وبدون قلق أرقب أشجار الحور فى شارع بيرشان Perchamps وهى تتضرع إلى الله متوسلة وطالبة منه الرحمة ، وتنحنى فى خوف أمام العاصفة . وبدون قلق أيضاً أسمع من الطرف الأقصى للحديقة آخر دمدمات الرعد وهى تتردد بين أشجار الليلك :

وإذا ظل الطقس سيئاً طول فترة الصباح ، تتخلى أسرتى عن النزهة ، وأبقى فى البيت . ولكنى بعد فترة تعودت أن أخرج بمفردى فى مثل تلك الأيام وأسير صوب ميزجليز لافينيز ، أثناء ذلك الخريف الذى تحتم علينا فيه أن نحضر إلى كمبراى لنسوى قسمة ضيعة عمتى ليونى ، لأنها ماتت أخيراً تاركة فريقى جيرانها شاعرين بالانتصار لوفاتها : فريق من كانوا يصرون على أن أسلوب حياتها من شأنه أن يضعفها ولا بد أن ينتهى بقتلها ، وفريق من كانوا يقولون إنها تعانى من مرض غير وهمى ، بل عضوى ، وقد أيدت وفاتها فراستهم : وهكذا لم يسبب موتها حزناً حقيقياً لأحد من عاشوا

بعدها ، اللهم إلا لشخص واحد ، ولكن حزن هذا الشخص الواحد كان ضارياً فى عنفه . ففى الأسبوعين الأخيرين من مرض عمتى الأخير لم تبارح فرنسواز حجرة عمتى لحظة واحدة . ولم تخلع ثيابها قط ، ولم تسمح لأى أحد سواها أن يصنع لعمتى شيئاً ، ولم تفارق جثمانها إلا بعد أن أودع القبر فعلا .

وعندئذ فهمنا أخيراً أن ذلك الرعب الذى عاشت فيه فرنسواز خوفاً من كلمات عمتى الغليظة القاسية ، ومن شكوكها وغضبها ، قد أوجد لديها شعوراً عميقاً أخطأنا حين حسبناه الكراهية ، فى حين أنه كان الإجلال والحب . وها هى سيدتها الحقيقية التى كان من المستحيل عليها أن تتجاهل أوامرها ، ومن المستحيل عليها أيضاً أن تتكهن بها سلفاً ، ومن العسير عليها أن تتخلص من مناوراتها ، وإن كان من السهل عليها أيضاً استغلال طيبة قلبها . ها هى طاغيتها المستبدة ، وملكتها المطلقة قد قضت نحبها . أما نحن فلم يكن لنا وزن يذكر بالقياس إلى مثل هذه السيدة الفذة . فقد مضى زمن طويل على ذلك العهد الذى كنا نحن فيه ـ عند قدومنا لأول مرة إلى كمبراى لقضاء العطلة ـ نعد فى نظر فرنسواز على قدم المساواة من حيث المكانة والأهمية مع عمتى ليونى .

* * *

وفى ذلك الخريف ، كان والداى مشغولين فى جميع الأيام طول الوقت بالإجراءات القانونية التى كان لا بد من الانتهاء منها ،

وبالمناقشات مع المحامين والفلاحين ، فلم يكن لديهما متسع من الوقت للنزهات سيراً على الأقدام التى جعلها تقلب الجو القاسى محفوفة بالمتاعب ، فشرعا يسمحان لى بالخروج بدونهما ، إلى طريق ميزجليز ، ملفوفاً فى دثار صوفى سميك كان يحمينى من المطر . وكان يشجعنى على لفه حول كتفى ما كان يبدو على فرنسواز من غيظ بسبب ألوانه الأسكتلندية الزاهية ، ولرفضها التصديق بأن لون ملابس الإنسان لا علاقة له مطلقاً بالحزن والحداد . ولا سيما أنها كانت تجد حزننا لوفاة عمتى ليونى غير كاف فى نظرها ، لا لشىء إلا لأننا لم ندع الجيران بعد تشييع جنازتها إلى مأدبة حافلة تليق بمقام الفقيدة الرفيع . كما أننا لم نكن نستخدم نبرة خاصة كلها خشوع وإجلال عند ذكر اسمها الكريم . أما أنا فما كان أعظم ذنبى فى نظر فرنسواز لأنى كنت أحياناً أجرؤ على الدندنة ببعض الألحان الموسيقية التى أعشقها ، كما هى عادتى . وكانت تعتقد أن مراسم الحداد ومظاهره كما تصفها الكتب القديمة ـ وأنا فى هذا متفق معها تماماً ـ على غرار ما ورد فى « أغنية رولان » Roland وما يبدو فى لوحات مدخل كنيسة « سانت أندريه ديه شان » ، أليق وأكثر جاذبية وسحراً . ولكن ـ لسبب ما لا أدريه ـ ما إن كنت أرى فرنسواز تدنو من مكانى ، حتى تتملكنى رغبة جارفة فى استثارة غضبها ، وأنتهز أول ذريعة للتحدث عن عمتى الراحلة ، قائلا لها : كم أنا آسف لوفاتها ، رغم ما كان فيها من سخافة وغرابة أطوار .

وأن سبب حزنى ليس أنها كانت عمتى ، فقد كان من الممكن جداً أن تكون عمتى ومع ذلك أبغضها كل البغض بحيث لا يسبب موتها لى أى حزن أو أسف . وهى عبارات لو وردت فى كتاب لأدهشتنى بسخافتها وعمقها !

فإذا ما هبط الوحى والإلهام على فرنسواز كأنها شاعرة ، واندفعت تتفوه بعبارات وخواطر محمومة غاضبة عن واجبات الإحساس بالحزن وبروابط الدم فى الأسرة الواحدة ، وما تحفل به حياة الأسرة من ذكريات رقيقة عزيزة ، ثم أرتج عليها فقالت فى النهاية يائسة :

– أنا لا أعرف كيف « أهبر » عن نفسى !

وهى تعنى بكلمة « أهبر » كلمة « أعبر » فهى تخطئ مثل كثير من الأميين فى نطق الألفاظ الفصيحة التى تسمعها وتصر مع ذلك على استخدامها . وعندئذ أهزأ منها بغلظة جديرة بالدكتور برسبييه ، فترد على قائلة :

– إن قرابتك لها على كل حال قرابة « جيولوجية » ! ومن واجبك أن تحترم « جيولوجيتك » !

فأهز عندئذ كتفى وأقول لها :

– إنها بلا شك طيبة بالغة منى أن أناقش الأمر مع عجوز أمية مثلك لا تستطيع أن تتكلم لغتها .

مقلداً حذلقة الرقعاء الذين يسخرون من بساطة الجهلاء ؟؟؟

وكانت نزهاتى فى ذلك الخريف أحفل بالمتعة ، لأنى كنت أمضى فيها بعد تمضية ساعات طويلة أطالع كتاباً ما : وعندما أشعر بالتعب أو الملل من القراءة ، طيلة الصباح فى البيت ، ألقى بذلك الدثار الأسكتلندى المخطط فوق كتفى وأغادر البيت ، وقد ادخر بدنى من ساعات الجلوس والسكون الطويلة رصيداً كبيراً من الطاقة الحيوية ، وتاق إلى إفراغها فى الحركة والوثب والنشاط فى جميع الاتجاهات . ويقضى على جدران البيوت وسياج تانسنفيل وأشجار غابة روسنفيل ، والشجيرات التى يوليها مونجوفان ظهره ، أن تتحمل ضربات عصاى أو مظلتى ، وتردد أصداء صيحاتى التى تعبر عن حبورى : وما كانت تلك الضربات والصيحات التلقائية إلا تعبيرات عن الأفكار والخواطر المضطربة التى تموج بالبهجة فى أعماق نفسى ، ولا تريد أن تستقر إلى أن تنضج وتجد التعبير المنظم عنها ، فتأبى إلا أن تنفجر على هذه الصورة ، وعلى هذا النحو يكون ما يخرج منا اعتباطاً إنما هو طريقة لتخليصنا من عبء هذه الإحساسات الزاخرة الطامية التى ننوء بحملها ، ولا نعرف كيف نترجمها إلى تعبيرات فنية .

وعندما حاولت أن أسترجع وأحصى كل ما أنا مدين به لطريق ميزجليز ، وكل اكتشافاتى المتواضعة التى عثرت عليها بالصدفة أو ألهمنى إياها هذا الطريق ، تذكرت أننى كنت ، فى غضون ذلك الخريف ، فى إحدى نزهاتى هذه بالقرب من الهوة الملتفة الأشجار التى تحمى مونجوفان من الخلف ، وإذا بى أدهش لأول مرة بعدم

التناسق بين انطباعاتنا والصور العادية للتعبير عنها . فبعد ساعة من المطر وعصف الرياح ، اللذين كافحتهما كفاحاً شديداً ، وصلت إلى حافة بركة مونجوفان ، وإذا بكوخ صغير له سقف من القرميد ، يحتفظ فيه بستانى المسيو فانتى بأدواته . وفجأة أشرقت الشمس مرة أخرى ، وسطعت أشعتها الذهبية التى غسلها المطر فى قبة السماء ، وعلى الأشجار ، وعلى جدار الكوخ ، وعلى قرميد السقف الذى لم يزل مبتلا ، وقد جثمت على حافته دجاجة . وكانت الريح تجذب الأعشاب البرية النابتة فى الجدار ، وتجذب ريش الدجاجة بعنف ، وحملت الريح نتفاً من العشب ومن ذلك الريش بخفة وبأقصى سرعة تندفع بها مثل هذه الأشياء الخفيفة التى لا حياة فيها . وانعكست صورة السقف القرميدى على سطح البركة الذى بدا صافياً فى ضوء الشمس ، فكأنما أرى مربعاً من الرخام الوردى اللامع لم أر له مثيلا من قبل . وافتر وجه الماء عن ابتسامة شاحبه تحاكى ابتسامة السماء فى تلك اللحظة ، فصحت بأعلى صوتى من فرط حماستى ، وأنا ألوح بالمظلة :

ـ مرحى ! مرحى ! مرحى !

وحاولت أن أتعمق بواعث حبورى . وفى هذه اللحظة مر بى فلاح ، اصطدمت مظلتى بوجهه ، فكشر عن أنيابه متجهماً وأنا أقول له :

ـ يا له من يوم جميل ! ما أبهى أن يخرج فيه المرء للنزهة .

وكان رده الجافى درساً لى تعلمت منه أن المشاعر البشرية لا تجيش على نحو واحد فى جميع قلوب البشر طبقاً لنظام مسبق . واكتشفت فيما بعد أننى كلما قرأت ساعات طويلة حتى الملل وصرت تواقاً للحديث ، وجدت الصديق الذى أتحرق شوقاً لحديثه معى قد فرغ لتوه فى هذه اللحظة من ساعة طويلة من الحديث ، ولم يعد يتمنى شيئاً سوى أن يتركه الناس يخلد للقراءة فى صمت وسكينة . وأما إذا كنت أفكر بكل إعزاز فى والدى ، وأدبر فى نفسى أنسب الخطط لإدخال السرور عليهما ، يكونان هما فى هـذا الوقت بالذات قد اكتشفا سوء تصرف بدر منى ونسيته تماماً ، فيشرعان فى تقريعى بكل عنف فى اللحظة التى ألقى بنفسى فيها عليهما لأقبلهما بحرارة وشوق !

وأحياناً ينضـاف إلى الحبور الذى أستمده من نزهتى وحـدى شعور آخر ، وتستبد بى الحيرة بين هذين الشعورين فلا أدرى أيهما أرجح ، وهـذا الشعور الآخر هو الرغبة فى أن أرى فتاة فلاحة تنتصب واقفـة أمامى ويتاح لى أن أضمها بين ذراعى . ولأن هـذا الخاطر داهمنى فجأة ، ولم يتح لى أن أتعقب مصدره بين أفكارى الأخرى المتنوعة ، لذا كانت اللذة التى تصاحب هذه الرغبة تبدو لى من نوع أرقى من التذاذى بأفكارى الأخرى .

لقد وجدت فى ضوء هذه الرغبة مزية إضافية لكل ما كان يجول بذهنى فى ذلك الوقت : فى الانعكاس الوردى لقرميد السقف ،

وفى العشب البرى النابت فى الجدار ، وفى قرية روسنفيل التى طالما تمنيت أن أدخلها ، وفى أشجار غابتها ومنارة كنيستها : وداخلنى اعتقاد بأن هذه الصور الجميلة هى التى ولدت فى نفسى تلك الرغبة فى معانقة الفتاة المرجوّة : ولكن تلك الرغبة فى ظهور تلك المرأة زودنى بما هو أكثر من المتعة بجمال الطبيعة والابتهاج به ، لأن هذا الجمال الطبيعى جعل ما يمكن أن أجده من اللذة فى أحضان تلك المرأة أكثر رحابة وأعمق أثراً . لقد خيل إلىّ أن جمال الأشجار التى أراها إنما هو جمال تلك المرأة أيضاً، فقبلتها وهى التى يمكن أن تجعلنى السيد المهيمن على جمال ما فى هذا الأفق من رحابة ، وما فى قرية روسنفيل من خيال ، بل وعلى الكتب التى قرأتها فى تلك السنة : واستمد خيالى مزيداً من القوة من اشتهائى لها ، فاتسع هذا الاشتهاء حتى شمل كل ممالك خيالى وعوالمه ، فلم يعد لهذه الشهوة حدود :

وفضلا عن هذا ، كما أن لحظات الاستغراق فى تأمل للطبيعة توقف نشاط العقل العادى ، ونعتقد أعمق الاعتقاد بأصالة وحقيقة وجود المكان الذى قد نجد فيه أنفسنا – كذلك لم تكن المرأة التى اشتهيتها فى تلك اللحظة أى نمط كيفما كان لجنس المرأة ، بل نتاجاً ضرورياً وطبيعياً لتربة الأرض التى أمشى فوقها : فى ذلك الحين كان كل ما عدا ذاتى ، أهم وأكثر واقعية مما يبدو للرجال الناضجين . ولم أكن أميز بين التربة ومخلوقاتها . لذلك اشتهيت فتاة فلاحة من

ميزجليز أو روسنفيل ، أو فتاة صائدة سمك من بلبيك ، تماماً كما كنت أشتهى بلبيك وميزجليز ؟

ولو أن اللذة التى تتيحها لى هاتيك الفتيات كانت زائفة ، لفقدت كل إيمانى بها ، إن كان فى وسعى أن أغير من أحوالها ، فإن قابلت فى باريس فتاة صائدة أسماك من بلبيك أو فلاحة من ميزجليز لكان ذلك أشبه بتلقى محارة لم أرها من قبل على الشاطئ ، أو نبات فطرى لم أره من قبل غابات ميزجليز : وذلك خليق أن يجرد الهدية من كل متعة حقيقية ، ويجرد الفتاة من كل المفاتن التى أغدقها عليها خيالى الخصب . أما أن أتجول فى غابة روسنفيل من دون فتاة فلاحة أعانقها فذلك يجعلنى أجهل سر هذه الغابة الخفى ، وجمالها المكنون : فالفتاة المشتهاة التى لم أرها قط إلا مرقشة بظلال أوراق شجر الغابة ، كانت فى حد ذاتها نباتاً محلياً ، وكل ما هناك أنها نبات أطول من سائر النباتات التى أراها حولى ، ولها بنية تتيح لى أن ألمس فيها للنكهة الحميمة للأرض التى انبثقت من ثراها .

وكنت أصدق هذا وأعتقده طواعية (وأعتقد كذلك أن المداعبات والملاطفات التى توصل بها هذه النكهة الخاصة إلى حواسى كانت فى حد ذاتها من نوع خاص ، وتفضى إلى لذات لا يمكن أن أحصل عليها إلا منها هى) لأنى كنت ما أزال – وسأظل لفترة طويلة – فى تلك الفترة من العمر التى لم يفصل فيها المرء بين حقيقة لذته الحسية وبين النساء المختلفات اللواتى فى صحبتهن تذوق هذه

اللذات ، ولم يحولها المرء بعد إلى فكرة عامة بحيث إنه بعد ذلك يعد
أولئك النسوة مجرد أدوات متباينة للذة واحدة فى جميع الأحوال .

والواقع أن اللذة لا توجد منعزلة ومتشكلة فى الشعور باعتبارها
الموضوع الأقصى الذى ينشد المرء من ورائه صحبة امرأة ، أو
باعتبارها سبب القلق الذى يشعر به وهو يتحرق شوقاً إلى هذه
الصحبة ، بل لا يكاد المرء يفكر عندئذ فى نفسه ، بل كل تفكيره
فى كيفية الهرب من نفسه ، بل إن هذه اللذة تظل غامضة وكامنة ،
وتشتد حتى تصل إلى قمة النشوة أو نوبة البرحاء فى اللحظة التى تقترن
بها وتوقظها لذات أخرى نجدها فى النظرة الرقيقة الحنون ، أو فى
قبلة تلك التى بجانبنا ، ولكن اللذة القصوى تبدو لنا عندئذ وكأنها
شعلة عرفان لرقة قلب رفيقتنا وولعها بنا ، ذلك الولع الذى نقيسه
بالسعادة التى تغمرنا بها ....

ولكن وا أسفاه ! عبثاً توسلت إلى حارس جب روسنفيل أن
تخرج لى من أغوار هذا الجب المظلم إحدى بنات تلك القرية ، التى
تمثلت فيها كل سحر هذه القرية التى لا أعرف عنها إلا ما لمحته من
الحجرة العلوية الصغيرة ، وهو برجها العالى ، وقد اندفعت مع
أوهام خيالى حتى ارتجفت أوصالى ، ثم شاعت فيها لذة غامضة ،
وكنت أهرب إلى هذه الحجرة العلوية المنعزلة كى أحظى بها خلسة ،
ثم يستولى علىّ همود كهمود الموت .

وألمح درباً منعزلا أحسبه يفضى بى إلى ما أشتهى ، وأمضى فيه

حتى مدخل كنيسة سانت أندريه ، ولكن عبثاً أصبو إلى أن أجد
هناك الفتاة الفلاحة التى كنت ــ ويا لسخرية الأقدار ــ أجد مثلها
دائماً هناك حينما أكون فى صحبة جدى . ولكن صحبته كانت تمنعنى
من التحدث إليها . وأثبت نظرى على جذع شجرة بعيدة ، على أمل
أن تبرز لى من خلفها وتطفر نحوى . ولكن تحديقى العقيم يظل
بلا جدوى ، ويظل الأفق خالياً تماماً . ويبدأ الليل فى إسدال أستاره:
فأثبت نظرى فى قنوط على أديم الأرض الجرداء ، ثم أنصرف وأنا
أصب على أشجار روسنفيل لا ضربات الحبور ، بل ضربات الغيظ ،
لأنه ما من مخلوق بشرى تراءى لى بينها . وأوطن النفس على العودة
إلى البيت من غير أن أضم بين ذراعى المرأة التى أشتهيها بكل عنف :
وأعود أدراجى إلى كبراى ، ومع كل خطوة أخطوها يتضاءل
أملى فى الالتقاء بها ..

ولكن ، أترانى ــ لو ظهرت ــ كنت أجسر على الحديث
معها ؟ أحسبنى لو حاولت ذلك لظنتنى مجنوناً ، لأنى لم أكن أعتقد
أن شهوتى التى تستبد بى فى نزهاتى هذه من الممكن أن يشعر بمثلها أحد
سواى . فهى لم تكن فى حسبانى إلا مخلوقة صنعها خيالى واختلقتها
حرارة دمائى ... ولم تعد ــ وأنا فى طريق العودة ــ تبدو لى مرتبطة
أدنى ارتباط بالطبيعة ، وعالم الأشياء الحقيقية ، التى فقدت منذ الآن
كل سحرها وكل معناها ، ولم تعد تعنى عندى إلا هيكلا تقليدياً ،

أشبه بأحداث رواية تجرى فى عربة قطار ، حيث يطالعها مسافر
ليزجى بها الوقت :

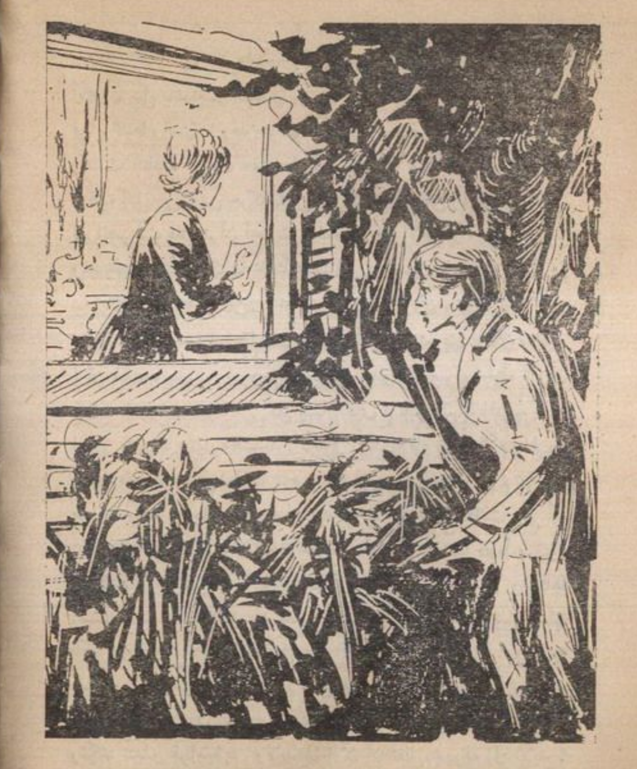
* * *

ولعل انطباعاً آخر تلقيته فى مونجوفان ، بعد ذلك ببضع سنوات
ـ وهو انطباع لم يكن له فى ذلك الحين معنى ـ هو الذى ولد عندى
فيما بعد فكرتى عن هذا الجانب القاسى من الانفعال البشرى الذى
يسمى « السادية » : وسوف نرى ، فى الأوان المناسب ، أن ذكرى
هذا الانطباع ستقوم لسبب آخر بدور هام فى حياتى .

فنى أثناء موجة من الحر الشديد ، قال لى والداى اللذان كانا
قد اضطرا للتغيب طيلة يوم كامل إن فى وسعى البقاء فى الخارج إلى
ساعة متأخرة كما أشاء : وذهبت حتى بركة مونجوفان ، حيث
استمتعت مرة أخرى بمنظر انعكاس قرميد سقف الكوخ ، ورقدت
بعد ذلك فى الظل ورحت فى النوم بين الشجيرات على المنحدر الوعر
الذى يرتفع خلف البيت : فى نفس المكان الذى كنت فى مرة سابقة
قد انتظرت والدى منذ سنوات عندما دخلا لزيارة المسيو فانتى :
وكان الظلام قد أوشك على الإطباق عندما استيقظت ، وأردت
أن أنهض وأنصرف ، ولكنى رأيت الآنسة فانتى (أو ظننت على
الأقل أننى عرفتها ، لأنى لم أكن رأيتها كثيراً فى كبراى ، وفى
المرات التى رأيتها فيها كانت ما تزال طفلة ، ولكنها الآن أوشكت
أن تكون شابة) ولعلها كانت قد عادت إلى البيت لتوها ، ووقفت

أمامى ، على بعد أمتار قليلة منى . فى نفس تلك الحجرة التى استقبل
فيها والدها والدىّ ، وقد حولتها الآن إلى حجرة جلوس صغيرة لها :
وكانت النافذة نصف مفتوحة ، والمصباح مضاء : فأمكننى أن
أرقب كل حركة من حركاتها من غير أن تتمكن من رؤيتى . ولكنى
إن انصرفت فلا بد أن أحدث خشخشة بين الأشجار ، فتسمعنى ،
وقد يخطر لها أننى كنت مختبئاً هناك لكى أتجسس عليها :

كانت مرتدية ملابس الحداد الكامل ، لأن والدها كان قد
توفى منذ مدة وجيزة . ولم نكن ذهبنا لزيارتها وتعزيتها ، لأن والدتى
لم تر ذلك ، بسبب خروج الفتاة على حدود وأصول الحياء . وإن
كانت قد رثت لحالها من كل قلبها . فأمى لم تنس النهاية المحزنة لحياة
المسيو فانتى ، وتفانيه الشديد . لأنه فى البداية قام بدور الأم والمربية
والخادمة لابنته ، ثم تعذب بما سببته له من سوء السمعة ، ولم تفارقها
صورة وجه الرجل المعذب فى سنواته الأخيرة ، وكانت تعلم أنه
تخلى نهائياً عن تبييض أعماله الأخيرة ، التى كنا نحسبها قطعاً صغيرة
هزيلة لمعلم موسيقى مسن وعازف أرغن القرية المتقاعد ، وظنناها
ليست ذات أهمية تذكر فى حد ذاتها ، وإن كنا لا نزدريها لقيمتها
الكبرى لديه ، لأنها كانت الدافع الأكبر له على الحياة ، وإذا به
يضحى بها فى سبيل ابنته ، ولم تكن هذه القطع مدوّنة ، بل مسجلة
فى ذهنه فحسب فى الغالب ، والقليل منها مدون على أوراق متناثرة
وتكاد تتعذر قراءتها ، ولابد لها الآن أن تظل مجهولة إلى الأبد :



وكانت النافذة نصف مفتوحة ، والمصباح مضاء . فامكنني ان ارقب كل حركة من حركاتها من غير ان تتمكن من رؤيتي ..

وفكرت والدتي أيضاً في تلك التضحية الأخرى التي اضطر إليها المسيو فانتي وهي أشد قسوة عليه ، ألا وهي تنازله عن أمله في أن يرى ابنته مستقرة سعيدة ذات مستقبل شريف محترم . ولما استرجعت أمي في ذهنها كل تلك المحن الماحقة التي انهالت على رأس معلم عمتي للموسيقى ، استولى عليها حزن شديد ، وارتجفت وهي تفكر فيما لا بد أن تحسه الآنسة فانتي الآن من حزن ممزوج ولا شك بالندم لأنها تسببت في موت أبيها : وتقول أمي :

– يا للمسيو فانتي المسكين ! لقد عاش لابنته ، وها هو الآن مات بسببها ، من غير أن يجد جزاءه . فعسى أن يجده الآن : ولكن في أي صورة ؟ إن هذا الجزاء لا يمكن أن يكون مصدره أحد سواها .

وفي الطرف الأقصى من حجرة جلوس الآنسة فانتي ، فوق رف المدفئة ، صورة شمسية صغيرة لوالدها ، ذهبت بسرعة كي تحضرها ، في نفس اللحظة التي سمع فيها من الطريق في الخارج صوت عجلات عربة ، ثم رأيت الآنسة فانتي تلقي بنفسها فوق أريكة وقربت إلى جوارها منضدة صغيرة وضعت فوقها الصورة الشمسية ، تماماً كما حدث منذ وقت طويل أن وضع المسيو فانتي بجواره القطعة الموسيقية التي كان يود لو عزفها لوالدي . وعندئذ دخلت صديقتها ، ورحبت بها الآنسة فانتي من غير أن تنهض ، وقد شبكت يديها وراء رأسها ، وانتحت بجسمها جانباً من الأريكة ،

كن توسع لها مكاناً . ولكنها ما كادت تصنع ذلك حتى بدا أنها شعرت أنها ربما تكون قد أوحت لصديقتها بوضع خاص ، ووجدت فى ذلك شبهة الإلحاف عليها . وفكرت أن صديقتها ربما فضلت أن تجلس على مسافة منها فوق كرسى . وأحست أنها كانت متطفلة ، ففزع قلبها الحساس من هذه الفكرة ، وعادت تمد جسدها فوق الأريكة بأسرها ، وأغلقت عينيها وبدأت تتثاءب ، دلالة على أنها تريد النوم ، وأن هذه الرغبة وحدها هى التى حدت بها إلى الرقاد على الأريكة .

وبرغم الألفة الفظة المتغطرسة التى كانت تعامل بها صديقتها ، أمكننى أن ألاحظ أنها تنطوى على تودد متحفظ ومتذلل ، وعلى احتجاز متوتر كان من سمات أبيها . وسرعان ما نهضت وذهبت إلى النافذة ، حيث تظاهرت بأنها تريد إغلاق المصراعين الخشبيين ولكنها لم تفلح . وعندئذ قالت لها صديقتها :

ــ أبقهما مفتوحين . فأنا أشعر بالحر .

فأجابتها الآنسة فانتى :

ــ ولكن هذا فظيع جداً . سيرانا الناس !

ثم حدست أن صديقتها ربما ظنت أنها قالت تلك الكلمات لكى تستحثها على الرد بكلمات أخرى ، تريد فى الواقع أن تسمعها منها ، ولكنها على سبيل الحذر كانت تريد من صديقتها أن تكون البادئة بالكلام . ولذا أردفت بسرعة :

ــ عندما أقول « يرانا الناس » أعنى بالطبع أنهم سيروننا ونحن نقرأ . ومن بواعث الضيق أن يعتقد الإنسان أن كل شىء تافه يقوم به يمكن أن يراه أحد الناس .

وبالكرم الغريزى فى طبيعتها ، وبتهذيب غير خاضع لسلطانها ، امتنعت عن التفوه بالكلمات المدروسة التى شعرت أنها لا غنى عنها لتحقيق رغبتها بالكامل .

وقالت صديقتها بسخرية مرة :

ــ أوه . طبعاً ! من المرجح جداً أن الناس ينظرون إلينا فى هذا الوقت من الليل ، فى مثل هذه البقعة الكثيفة السكان !

ثم استطردت لكى تؤكد هذه الغمزة ، بالطريقة التى تعلم أنها ترضى الآنسة فانتى :

ــ وماذا لو رأونا ؟ أفضل لنا ألف مرة أن يرونا !

فارتجفت الآنسة فانتى ، ونهضت واقفة على قدميها ، فقد كان قلبها الحساس يجهل الكلمات التى ينبغى أن تتدفق تلقائياً من شفتيها ، لكى تنتج ذلك المشهد الذى كانت حواسها المتلهفة تصرخ مطالبة به . وحاولت أن تذهب إلى أقصى ما تستطيع من حدود طبعها الحقيقى لكى تجد اللغة المناسبة لشابة تمارس الرذيلة ، ولكن الألفاظ التى كانت مثل هذه الشابة خليقة أن تتفوه بها بإخلاص وصدق بدت فى فمها غير واقعية . والقليل الذى سمحت لنفسها أن تقوله قيل بنبرة

متوترة ، بحيث شل تهيبها ميلها إلى حرية الكلام وجرأته . وظلت طول الوقت تقطع كلامها هذا لتقول :

ـ أواثقة أنت أنك لا تشعرين بالبرد ؟ هل الحر شديد جداً ؟ ألا تريدين الجلوس وحدك لكى تقرئى ؟

وختمت كلامها بعبارة لا شك أنها سمعت صديقتها تقولها لها فى مرة سابقة :

ـ إن أفكار سيادتك تبدو لى حارة جداً هذا المساء !

وعلى الفور أحست الآنسة فانتى بلذعة قبلة صاحبتها المفاجئة على أصل عنقها ، من فرجة صدر ثوبها ، وأطلقت صيحة صغيرة وجرت هاربة . وبعد ذلك بدأت كل منهما تطارد الأخرى فى أرجاء الحجرة ، متدافعتين على الأثاث ، وأكمامهما الطويلة ترفرف كالأجنحة ،وهما تقرقران وتنقان مثل طيرين فى حالة هياج جنسى :

وأخيراً سقطت الآنسة فانتى فى إعياء على الأريكة ، حيث حجب جسدها عن جسد صديقتها التى مالت فوقها . ولكن ظهر الصديقة كان الآن إلى جهة المنضدة التى فوقها صورة معلم الموسيقى الشيخ : وأدركت الآنسة فانتى أن صديقتها لن تراها إلا إذا لفتت نظرها إليها ، فصاحت وكأنها لم ترها إلا فى هذه اللحظة :

ـ أوه ! ها هى صورة أبى تنظر إلينا ! لا أدرى من الذى وضعها ها هنا ! أنا متأكدة أنى نبهت عليهم عشرين مرة بأن هذا ليس مكانها المناسب !

وتذكرت على الفور كلمات المسيو فانتى التى استخدمها عندما اعتذر لوالدى عن وجود النوتة الموسيقية فوق البيانو : وصار واضحاً لى أن هذه الصورة الفوتوغرافية كانت تقوم عادة ـ بطبيعة الحال ـ بدور فى شعائرهما الغرامية ، وأنها كانت تتعرض يومياً للتدنيس والإهانة كجزء من تلك الشعائر ، لأن الصديقة أجابتها بنبرة من الواضح أنها كانت جزءاً من تلك الشعائر أيضاً :

ـ دعيه هنا ! فلم يعد فى استطاعته أن يثير المصاعب فى وجهنا. أتظنينه يمكن أن يبدأ الآن فى التذمر والبكاء والأنين ؟ أتظنينه يستطيع الآن ـ هذا القرد المسن القبيح الصورة ـ أن يطردك من البيت إذا رآك الآن فى هذا الوضع والنافذة مفتوحة ؟

وأجابتها الآنسة فانتى :

ـ أوه : من فضلك !

وهو تأنيب لطيف رفيق يشهد لها بالطيبة الصادقة ، لا لأنها قالته مدفوعة بالسخط لسماعها هذه النعوت لوالدها الراحل (فهى بلا شك قد روضت نفسها على كتمان هذا الشعور فى مثل هذه اللحظات الشهوية ، مستخدمة سلسلة من المغالطات مع نفسها) بل لأن هذا التأنيب الرقيق كان العنان الذى تتحكم به فى إبطاء عمليات ومشاعر الإرضاء الحسى الذى شرعت صديقتها فى إمدادها به :

ومن الجائز أيضاً أن هذا التعبير المتسامح الباسم الذى واجهت به وردت على تلك الإهانات المدنسة لقدسية أبيها ، وأن هذا

التأنيب الرقيق المرائى بدا لطبيعتها الصريحة السخية صيغة مخزية ومغرية بصورة خارقة من صيغ السلوك الإجرامى التى كانت تحاول أن تتخذه . ولكنها لم تستطع أن تقاوم جاذبية أن تعاملها بإعزاز هذه المرأة التى أبدت تلك القسوة التى لا ترحم نحو هذا الرجل الميت الذى لا يستطيع الدفاع عن نفسه ، ولذا وثبت إلى ركبتى صديقتها فجلست فوقها وقدمت لها جبينها كى تقبلها ، تماماً كما تفعل البنت مع أمها ، وكأنها أحست بملء الحبور أنهما على هذه الصورة يمكن أن تصلا معاً إلى منتهى القسوة بسرقة المسيو فانتى واختلاس حقوقه الأبوية المقدسة ، كأنما هما قد نبشتا قبره فعلا .

وتناولت صديقة الفتاة رأسها بين يديها وطبعت على جبينها قبلة بكل الوداعة التى تنبعث من حبها للآنسة فانتى ، ولرغبتها فى إدخال العزاء والتسرية على الحياة المملة الكئيبة التى تحياها اليتيمة . ثم قالت وهى تتناول الصورة :

ــ أتدرين ماذا أحب أن أصنع بهذا الشيخ المفزع ؟

وهمست فى أذن الآنسة فانتى بشىء لم أتبينه . فصاحت الفتاة :

ــ أوه ! إنك لن تجسرى على هذا ؟

فصاحت الصديقة بضراوة متعمدة :

ــ لا أجسر أن أبصق عليها ؟ على هذا القبح ؟

ولم أسمع شيئاً أكثر من هذا ، لأن الآنسة فانتى التى بدت الآن مجهدة ، ومرتبكة ، ومشغولة الذهن ، وبادية الحزن عادت إلى

النافذة وأغلقت المصراعين الخشبيين : ولكنى عرفت الآن ما هو الجزاء الذى تلقاه المسيو فانتى من ابنته بعد موته ، لقاء كل ما بذله من تضحيات وتحمله من عذاب طيلة حياته بسبب هذه الابنة !

ومع هذا فكرت بعد ذلك أنه لوقيض للمسيو فانتى أن يكون حاضراً هذا المشهد ، لظل رغم كل شىء يؤمن بسلامة فؤاد ابنته ، وأنه ليس مخطئاً فى هذا الإيمان على طول الخط ؛ صحيح أن مظهر الشر كان قوياً جديداً فى كل أعمال الآنسة فانتى ، وبمثابرة عظيمة عليه ، بحيث لا يمكن العثور على هذه المظاهر إلا لدى شخص « سادى » بتعبير هذه الأيام ، فالمرء لا يتوقع إلا وراء أضواء خشبة مسرح باريسى ــ لا فى ضوء مصباح فى بيت ريفى عادى ــ أن يرى فتاة تستدرج صديقتها إلى البصق على صورة أبيها الذى عاش ومات لأجلها دون سواها . وعندما نجد فى الحياة الواقعية رغبة فى التأثير الميلودرامى ، فالغريزة السادية هى المسئولة عموماً عن هذه الرغبة ؛ ومن الجائز أنه بدون الحد الأدنى من الميل نحو السادية يمكن أن نجد فتاة تظهر هذه القسوة الشائنة الفاضحة ــ كما فعلت الآنسة فانتى ــ بتدنيس ذكرى أبيها المتوفى وتحدى رغباته ، ولكنها ما كانت لتعبر عن هذا عمداً بمثل هذا العمل الفج فى رمزيته : وفى هذه الحال كان العنصر الإجرامى فى سلوكها خليقاً أن يبدو أقل وضوحاً لغيرها من الناس ، بل ولنفسها أيضاً ، لأنها ما كانت لتعترف بينها وبين نفسها أنها ترتكب خطأ ؛ ولكننا إذا تركنا المظاهر جانباً ، وجدنا عنصر

الشر فى نفس الآنسة فانتى ـ فى المراحل الأولى على الأقل ـ لم يكن خالصاً غير مشوب . والشخص السادى من نوعها فنان فى الشر ، وذلك ما لا يستطيعه شخص كلى الشر ، لأن الشر فى هذه الحالة ما كان ليبدو خارجياً ، بل لبدا لها طبيعياً فى حد ذاته بالنسبة لها ، ولما تميز عن ذاتها : وفى هذه الحالة ما كانت لتجد لذة خاصة فى تدنيس احترام الموتى وعصيان الطاعة البنوية :

إن الساديين من طراز الآنسة فانتى أشخاص عاطفيون جداً ، وفضلاء بطبيعتهم ، حتى أن اللذة الحسية نفسها تبدو لهم سيئة ، وامتيازاً خاصاً بالأشرار ، وعندما يسمحون لأنفسهم فى لحظة ما بالتمتع بها يحاولون أن يجسدوا كل المظهر الخارجى للأشرار ، لأنفسهم ولشركائهم فى الإثم ، لكى يحصلوا على وهم مؤقت بأنهم أفلتوا من رقابة طبائعهم الرقيقة المتزمتة وهربوا فعلا إلى عالم اللذة اللا إنسانى :

وأمكننى أن أفهم كيف كانت تصبو إلى هذا الهرب عندما تحققت أنه كان من المستحيل عليها اصطناعه . فى اللحظة التى أرادت فيها أن يظن بها أنها نقيض أبيها ، كان ما أوحت به إلىّ هو الأساليب السلوكية الخاصة ، فى التفكير والكلام ، لذلك الشيخ معلم الموسيقى المسكين : والحق أن صورته لم تكن شيئاً فى نظرها ، فالذى دنسته للمعاونة على لذاتها ، ولكنه بقى حائلا بين هذه اللذات وبينها وحال دون أى استمتاع مباشر بها ، كان الشبه بين وجهه ووجهها ، وزرقة

عينى أمه التى أورثها ابنته ، كأنها حلية طريفة تحتفظ بها الأسرة جيلا بعد جيل ، وتلك الحركات الودية الصغيرة ، فكأنها لغة مميزة تحول بين الشر الكامن فى الآنسة فانتى وبين طبيعتها ، وتمدها بعقلية غير مهيأة للشر ، مما جعلها تنظر إلى هذا الشر وكأنه لا يختلف عن الواجبات الاجتماعية التى لا تحصى التى يجب أن تؤديها كل يوم :

ليس الشر هو الذى كان يمدها بفكرة اللذة التى تبدو لها ذات جاذبية طاغية ، بل اللذة هى التى كانت تبدو لها شراً . ولما كانت كل مرة تنغمس فيها فى اللذة تحس هذه اللذة مقترنة بأفكار شريرة لا توجد فى ذهنها الفاضل فى الأحوال العادية ، لذا انتهى بها الأمر إلى أن ترى فى اللذة نفسها شيئاً شيطانياً ، فوحدت بين اللذة والشر .

ولعل الآنسة فانتى كانت تشعر فى أعماقها بأن صديقتها ليست سيئة تماماً ، وأنها ليست مخلصة وهى تتفوه بعباراتها الفظيعة النابية : وهى على كل حال كانت تحظى بلذة تلقى تلك القبلات على جبينها ، وتلقى تلك الابتسامات والنظرات . ولعلها كلها مصطنعة ، ولكنها قريبة الشبه فى طريقة التعبير عنها بحيث لا يمكن التمييز بينها وبين ما يرتسم على وجه مخلوقة لم تجبل على الرقة والمعاناة ، بل على التهتك والقسوة . فيتاح لها أن تخدع نفسها لحظة وتصدق أنها تستمتع على النحو الذى تستمتع به فتاة لديها فعلا هذا النفور من ذكرى أبيها ، وهى مع هذه الشريكة الشاذة :

ولعلها ما كانت لتفكر فى الشر على أنه حالة نادرة بهذه الصورة ،

وشاذة جداً ودخيلة على الطبائع ، وينعشها أن تجربها ، لو كان تسنى لها أن تميز فى نفسها ، وفى سائر الرجال والنساء ، تلك اللامبالاة بالآلام التى يسببونها : وأن هذه اللامبالاة – أياً كان الاسم الذى يطلقونه عليها – هى النوع الوحيد من القسوة الصادقة الرهيبة الباقية .

* * *

ولئن كان « طريق ميزجليز » غاية فى السهولة ، فالأمر مختلف جداً عندما كنا نسير فى « طريق جيرمنت » ، لأن هذا يقتضى مسيرة طويلة ، ويجب أن نستوثق أولا من حالة الطقس . فعندما كان يبدو أننا دخلنا فى فترة طويلة من الجو اللطيف ، وعندما أسمع فرنسواز مغتاظة من عدم نزول قطرة واحدة من المطر فوق « الحاصلات المسكينة » الظامئة ، فتتطلع إلى السماء ولا ترى فيها إلا سحابة صغيرة بيضاء تطفو هنا وهناك فوق سطح السماء اللازوردى الهادئ ، فتتأوه بصوت مرتفع وتصيح :

– ما أشبهها بسرب من كلاب البحر تسبح هنا وهناك ! ولا تفكر فى إسقاط بعض المطر لأجل خاطر الفلاحين المساكين ، حتى إذا نضج القمح تماماً ، بدأ المطر يهطل بلا رحمة ، غير مبال بالمحصول ، وكأنه ينهمر فوق البحر !

وبعد أن يسأل أبى البستانى مراراً ويتلقى منه إجابات متكررة مشجعة ، عندئذ يقول أحدنا على مائدة العشاء :

– غداً ، إذا ظل الطقس على اعتداله ، ذهبنا فى اتجاه جيرمنت !

وفى هذا الطريق نمضى فعلا بعد الغداء مباشرة ، ونخرج من بوابة الحديقة الصغيرة التى تفضى بنا إلى شارع بيرشان Perchamps الضيق ، الذى ينحرف بعد ذلك فى زاوية حادة . وقد اندثر هذا الشارع الضيق بعد ذلك ولم أعد أعثر له على أثر عندما عدت فى الرجولة إلى كمبراى . فقد كانت بيوته وكنيسته تحمل طابع القرن الثانى عشر .

ونمر بعد ذلك فى شارع العصفور أمام المنزل العتيق الذى كان له فناء كبير جداً ، كانت فى الزمن الخالى تقف به عربات دوقة مونبنسييه Monpensier ودوقة جيرمنت ودوقة مونمورنسى Montmorency ، عندما كن يأتين إلى كمبراى لبعض المنازعات القضائية مع مزارعيهن ، أو لتلقى الاحترامات منهم ، ونصل أخيراً إلى أجمة يتراءى من بين أطرافها العالية برج كنيسة سانت إيلير ؛ وكم كنت أتمنى أن أجلس هناك لأقضى سحابة النهار كله هناك فى القراءة والإصغاء لصوت الأجراس ، لأن المكان هناك بديع جداً وشديد الهدوء ، بحيث إنك حين تسمع رنين الساعة فجأة لا تحسب أنه عكر صفو السكون ، بل تحس أنه خلص النهار من سطحيته الممتدة .

وأهم عناصر سحر طريق جيرمنت أننا كنا طول الوقت تقريباً نمر إلى جوار مجرى نهر فيفون Vivonne . وكنا نبدأ بعبوره ، بعد عشر دقائق من مغادرتنا البيت ، على معبر للمشاة يسمونه بون

فيه Pont Vieux أى الجسر القديم : وفى كل عام ، عندما نصل إلى كمبراى ، أنطلق بعد القداس فى صباح يوم عيد الفصح — إذا كان الجو صحواً — وأركض إلى هناك وسط الفوضى التى تسود صباح يوم العيد ، لأرى النهر وهو يتدفق أمامى فى مثل زرقة السماء بين ضفتين ما زالتا سوداوين جرداوين من أثر الشتاء الطويل ، ولا تنبت فيهما إلا أجمة من النرجس البرى الأصفر الكبير ظهرت قبل أوانها ، وبضعة من أزهار الربيع المبكرة ، وهنا وهناك تنبثق وسطها شعلات زرقاء من أزهار البنفسج ، وقد تمايلت تحت ثقل عبيرها الفواح :

ويفضى الجسر العتيق إلى درب مزدوج يظلله فى الصيف أوراق شجر البندق الضاربة إلى الزرقة ، وتحتها يجلس صياد سمك لابساً قبعة من القش ، وكأنه ضرب بجذوره فى ذلك المكان . وأنا أعرف كل من فى كمبراى ، وكنت أستطيع دائماً أن أتبين الحداد أو صبى البقال وهما متنكران فى زى الشماس أو مدرعة المنشد فى القداس ، ولكنى لم أستطع قط التعرف على الشخصية الأصلية لهذا الصياد . ولكن لا بد أنه كان يعرف أسرتى ، لأنه كان من عادته أن يرفع قبعته عندما نمر به ، وعندئذ كنت أهم بالسؤال عن اسمه ، عندما يشير أحدهم لى أن ألزم الصمت حتى لا أزعج وأنفر السمك . .

ونمضى فى الدرب المزدوج الذى يحاذى قمة ضفة سريعة الانحدار ، ترتفع فوق مجرى الماء عدة أقدام . أما على الجانب الآخر

فالأرض منخفضة وتنبسط لتتحول إلى مروج عريضة تصل إلى القرية ، بل وإلى محطة سكة الحديد البعيدة . وفى هذه المروج تتناثر بقايا وأطلال قلعة كونتات كمبراى الأقدمين ، نصف متواربة بين الأعشاب الطويلة . وفى العصور الوسطى كان مجرى نهر فيفون حاجزاً طبيعياً يحمى هذه القلعة من هجمات دوقات جيرمنت ورؤساء ديور مرتنيفل Martinvilla ، ولكن لم يبق من هذه القلعة الآن إلا بقايا أبراجها ، متناثرة فوق مسطح الحقول المترامى ، لا تكاد تراها العين ، مع أنه من فوقها كان الرماة يلقون القذائف على الأعداء ، وكان المراقبون يرصدون الحركات عن بعد حتى كليرفونتين Clairefontaine ، ومارتنفيل ، وبايو Bailleau ، وكلها أرباص وقرى خاضعة لسلطان جيرمنت ، وتتكون منها حلقة تحيط بكمبراى . ولكن ها هى القلعة تهاوت الآن وسط العشب ، وسويت بالأرض ، يتسلقها ويلهو فيها غلمان مدرسة الأخوة المسيحيين الذين يأتون إليها فى أوقات لهوهم أو حاملين كتبهم لاستظهار دروسهم . فما هى إلا معالم ماض انقضى واندثر تحت التراب ، وصار للسائر على ضفة النهر معبراً للمتريض الذى يستنشق الهواء . ولكن هذا الأثر المندثر كان مع هذا يمدنى بغذاء فكرى ، يجعل اسم كمبراى ليس مجرد علم على البلدة الصغيرة التى أعرفها اليوم ، بل علماً على مدينة تاريخية مختلفة تماماً ، تسيطر على مخيلتى بتلك المعالم البعيدة المطموسة تحت قناع من العشب ترصعه الأزهار البرية الصفراء الحريفة الرائحة :

ذلك أن هذا العشب المزهر المعروف باسم « الحوذان » كان شديد الغزارة فى هذا الموضع ، بزهره الذى يشبه لونه مح البيض ، ويجعل المرج كله يبدو فى وهج الشمس ذهبى اللون ، يكاد يبهر أنفاسى بجماله . وكنت منذ طفولتى كلما سرت على الضفة الأخرى أمد ذراعى إلى هذه المروج وأتمنى لو احتضنتها... قبل أن يستطيع لسانى نطق اسمها الذى يصلح اسماً لأمير فرنسى فى قصة من قصص الجنيات ، أو لمرتاد جاء من مجاهل آسيا البعيدة منذ قرون ، ولكنه استقرّ هاهنا فى هذه القرية ، قانعاً بأفقها المتواضع ، وبتلك اللمحة التى تتراءى له من محطة سكة الحديد . إلا أنه لم يزل محتفظاً بتألقه الشاعرى من ذلك الشرق الأقصى .

وأستمتع أيضاً بمنظر القدور الزجاجية التى كان الأولاد يدلونها فى نهر فيفون ، ليصطادوا بها السمك الصغير ، فتمتلئ هذه القدور الزجاجية بالماء وتحتويه ، فى الوقت الذى يحتويها فيه الماء ، فأشعر لمنظرها بانتعاش لا أجده لهذه القدور وهى ملآنة بالماء على مائدة الطعام . وقررت أن آتى يوماً ما ومعى شص (سنارة) لكى أصيد السمك . ورجوت والدى وأنا على المائدة وحصلت على كسرة خبز أخذتها معى وألقيت بفتاتها فى نهر فيفون ، خيل إلىّ أن لها تأثيراً كيماوياً ، لأن الماء سرعان ما صار من حولها صلباً بعناقيد بيضاوية من أفراخ الضفادع ، التى كانت قبل ذلك متوارية فى الماء

الجارى ، ولكنها كانت شديدة اليقظة فانتهزت هذه الفرصة لتدخل فى مرحلة التبلور المنظور بالعين .

وسرعان ما يغص مجرى نهر فيفون بالنباتات المائية . وهى تبدو فى البداية فرادى ، زنبقة من زنابق الماء مثلا ، لا يمكن أن يتركها الماء ـ الذى نبتت لسوء حظها فى مجراه ـ تنعم بالراحة أو الهدوء لحظة واحدة ، حتى لكأن هذه الزنبقة معدية ميكانيكية تنطلق من إحدى الضفتين لتصل إلى الضفة الأخرى ، لكى تعود على الفور من حيث أتت ، مكررة على الدوام رحلتها المزدوجة : وإذا ما ارتطمت بالشاطئ طال عودها الأخضر حتى ليكاد ينكسر ، إلى أن يستولى عليه التيار من جديد ، فيعود بالنبات التعس المنكود إلى ما يمكن أن نسميه موضع انطلاقه ، ولكنه مكتوب عليه ألا يستقر هناك لحظة ، قبل أن يتحرك منطلقاً من جديد . وهناك أجده فى كل نزهة فى إثر الأخرى ، فى نفس حالته المنكودة ، التى تشبه حالة بعض ضحايا النورستانيا ، الذين كان جدى يعد من بينهم عمتى ليونى ، فهؤلاء الضحايا يكررون يومياً ، وعاماً فى إثر عام ، عاداتهم نفسها بلا تغيير ، وهى عادات غريبة لا يمكن تفسيرها . ولكنهم يحتفظون بها حتى النهاية ، مع أنهم يقولون دائماً إنهم ينوون تغييرها ، ويتخيلون ذلك فعلا . إلا أن هذه التخيلات لا تجدى إلا فى دفع حركتهم الدورية كزنبرك الساعة إلى الدوران المستمر : هكذا أيضاً كانت حال زنابق الماء هذه ، وهى أيضاً شبيهة بحالة تلك المخلوقات

المعذبة إلى الأبد بحركاتها المتكررة ، والتى استوقفت نظر دانتى Dante وهم بسؤالهم عنها ، لولا أن فيرجيل مرشده فى رحلته بالجحيم استعجله ، مثلما يستعجلنى والدىّ فأسرع بالمضى خلفهما برغمى .

ولكن بعد قليل يبطىء التيار ، حيث يمر النهر وسط ضيعة فتح مالكها أبوابها للجمهور ، وفى هذه الضيعة كان يمارس هواية الحدائق المائية ، بحيث يتحول النهر الضحل البطىء هناك إلى بحيرات صغيرة تنبت فيها زنابق الماء . أما ضفاف النهر نفسه فتكثر حولها الأشجار الكثيفة ، التى تنعكس أوراقها على وجه الماء فتكسبه لوناً أخضر قاتماً فى الغالب . وإن كنت فى بعض الأيام التى نعود فيها بعد هبوب عاصفة كثيراً ما ألمح فى ثنايا هذا الماء بقعاً تضرب إلى الزرقة ، وتكاد تكون بنفسجية اللون أحياناً ، كأنما قد رصع هذا الماء بالمينا على الطريقة اليابانية . وهنا وهناك ، فوق السطح تطفو زنبقة مضرجة القلب بالحمرة كأنها الشليك ، وسط البتلات البيضاء.

وفيما وراء هذه المنطقة كانت الأزهار أكثر ، إلا أنها أشد شحوباً ، وأقل لمعاناً ، وأكثر التفافاً ، وموزعة بالصدفة على شكل فستونات بديعة تخيلت أنها تطفو على وجه الماء ، كما رأيت الورد الطحلبى فى أكاليل متفرقة . وفى ركن منها رأيت أنواعاً عادية من الزنابق ، ذات اللون الوردى الأنيق أو الأبيض ، مثل أزهار الجرجير ، وقد غسلت فغدت كالخزف . وفى موضع أبعد من هذا

أيضاً أزهار أخرى أشد كثافة كأنها حوض أزهار عائم ، أو كأنما أزهار البانسيه قد طارت من حديقة كما يطير الفراش وراحت تحلق بأجنحة زرقاء لامعة فوق هذه التخوم المائية الشفافة ، وفوق تخوم السماء أيضاً ، وتضفى على ما تحت الأزهار أرضية من لون أرق وأكثر حركة من أرضيتها . وفى فترة ما بعد الظهر والمساء ترتفع المساحات المائية البعيدة وتملأ السماء على حافة الأفق بأحلام الشمس الغاربة الوردية ، الدائمة التغير ، ولكن فى تناسق وانسجام دائمين ، وتوحى باللانهاية . فبعد الظهر أو المساء تبدو هذه الحديقة المائية البعيدة وكأنها مزدهرة فى قلب السماء :

وبعد أن يغادر نهر فيفون هذا البستان الرائع يمضى فى تدفقه بمزيد من السرعة . وما أكثر ما راقبت ، وتقت إلى محاكاة راكب زورق ذى مجدافين ـ عندما أغدو حراً فى الحياة كما أشاء ـ رأيته وقد ترك مجدافيه واستلقى فى قاع زورقه على ظهره ، ورأسه إلى أسفل ، وترك الزورق يطفو مع التيار ، بحيث لا يرى شيئاً إلا السماء التى كانت تمر من فوقه فى هدوء ، وتضفى على وجهه أمارات السعادة والسلام .

وقد نجلس بين السوسن على حافة الماء ، وكأنما السماء بتراخيها فى يوم عطلة ، فتمتد سحابة كسول إلى أقصى امتدادها ، وبين حين وآخر يثقل هذا الكسل السائد على سمكة شبوط فتطل من الماء وتشهق شهقة متلهفة على النشاط . وبين وقت تناولنا الطعام ،

فنجلس قبل أن نستدير للعودة ونقضى فترة طويلة هناك ، نأكل الفاكهة والخبز والشيكلاتة ، فوق العشب ، حيث تصل إلينا أصوات نواقيس سانت إيلير فى موجات أفقية ضعيفة ، ولكنها لم تزل صلبة معدنية ، لم تذب تمام الذوبان فى الجو الذى تعودت على اختراقه ، بل تقطعت أوصالها مع الدقات الرنانة المتعاقبة ، فإذا بها تنبض وهى تمر تباعاً فوق الأزهار التى عند أقدامنا .

وكنا أحياناً نصل إلى منطقة تحف فيها الأشجار بضفة الماء ، فإذا بين الأشجار بيت خلوى من بيوت المتعة ، منعزل عن الدنيا لا يرى منها شيئاً اللهم إلا النهر الذى يغسل أساس جدرانه باستمرار . وقد نرى امرأة يدل وجهها وزيها على أنها ليست من أهل هذا الإقليم ، وتدل موضة زينتها على أنها ليست من أصل محلى ، ولا شك أنها جاءت إلى هنا لكى « تدفن نفسها » – كما يقولون – ولتتذوق فى هذه الوحدة الشعور بأن اسمها صار منسياً ، وأن اسم من فقدت قلبه غير معروف لأحد هنا أيضاً . وهى تطل من نافذتها فلا ترى شيئاً سوى الزورق المربوط إلى أسفل البيت بجوار بابها . وترفع السيدة عينيها فى شرود حين تسمع من بين الأشجار التى تصطف على الشاطئ أصوات مارة هى على يقين من أنهم لم يعرفوها ولم تعرفهم من قبل ، ولم يعرفوا ذلك الحبيب الغادر ، وأن لا شىء فى ماضى حياتهم يحمل طابعه ، فقد هجرت كل مكان يمكن أن تكون قدماه قد وطئتاه ، أو يكون به أحد له به صلة . وكنت أنظر إليها أحياناً وهى

عائدة من سيرها فى طريق هى على يقين من أنه لن يبرز لها من ثناياه ، وأراها تخلع قفازاً طويلا من أصابعها المستسلمة ، حيث لا فائدة ولا لزوم لهذه الزينة الفاخرة الأنيقة .

ولم يحدث قط أننا فى نزهاتنا على الأقدام فى « طريق جيرمنت » توغلنا إلى حيث منبع نهر فيفون ، الذى كانت صورته فى ذهنى ذات وجود مثالى ، لذا دهشت كثيراً عندما قال بعض الناس إنه موجود فى نفس المحافظة ، وعلى مسافة كيلومترات معينة من كمبراى. وهى دهشة تماثل دهشتى عندما قيل لى إن هناك نقطة معينة من سطح الأرض هى التى يقول الأقدمون إن فكى الجحيم فاغران عندها ! ولم يحدث قط أيضاً أننا وصلنا إلى ذلك الهدف الآخر الذى كنت أصبو كثيراً إلى بلوغه ، وهو « جيرمنت » نفسها . وكنت أعلم أنها مقر مالكيها ، الدوق والدوقة دى جيرمنت . وكنت أعلم أنهما شخصيتان حقيقيتان لهما وجود حقيقى ، ولكنى كلما فكرت فيهما صورتهما لنفسى إما كشخصيتين فوق لوحة مطرزة ، مثل لوحة « تتويج إستر » المعلقة فى كنيستنا ، أو متغيرتى الألوان كقوس قزح ، مثل صورة جيلبير الشرير فى نافذته ، حيث كان لونه يتغير من خضرة الكرنب عندما أغمس أصابعى فى حوض الماء المقدس ، إلى زرقة البرقوق عندما أصل إلى صف مقاعدنا ، أو غير محسوسى اللون ، مثل صورة جنفييف دى برايان ، جدة أسرة جيرمنت ، التى يرينا إياها فانوسى السحرى متنقلة فوق ستائر حجرتى أو على

سقفها . أى أنى كنت أتصور الدوق والدوقة دائماً فى هيئة العهد الميروفنجى ، فى ضوء برتقالى وكالمغمورين بأضواء أشعة الغروب .

ولئن كانا برغم ذلك بالنسبة لى شخصين حقيقيين ، إلا أن صفتهما ومقامهما يجعلهما صنفاً خاصاً من البشر ، صنفاً غير مادى ، فيستوعب كيانهما كل ما نمر به فى طريق جيرمنت وقصرهما الذى لم أره قط ، ومجرى نهر فيفون بزنابقه المائية وأشجاره الوارفة ، وفترات ما بعد الظهر الحارة المتوالية فى رتابة . وكنت أعلم أنهما لا يحملان لقب دوقة ودوق جيرمنت فحسب ، بل إنهما منذ القرن الرابع عشر ، منذ فشلت المحاولات المتكررة لهزيمة سادة كمبراى فى ساحة القتال ، اتحدت أسرتاهما بالزواج ، وبذلك صارا أيضاً كونت وكونتس كمبراى ، وبالتالى المواطنان الأولان لتلك المنطقة المعروفة اليوم باسم كمبراى ، ومع هذا فهما المواطنان الوحيدان اللذان لا يسكنانها : فهما يملكان كمبراى ، ويسلكانها فى سلسلة ألقابهما ، ويستوعبانها فى شخصيتيهما ، ويصوران بلا شك تقواها الحزينة الخاصة بها . وهما يملكان هذه البلدة من غير أن يملكا أى بيت فيها ، وبالتالى كأنهما يقطنان فى العراء ، فى موضع ما بين الأرض والسماء ، مثل جيلبير دى جيرمنت الذى لم أكن أرى منه فى زجاج الطنف الناتئ من سانت إيلير إلا الجانب الآخر الأسود ، إذا ما رفعت عينى لأتطلع إليه وأنا ذاهب إلى محل كامى لشراء كيس من الملح .

وكذلك كان يتفق لى وأنا على طريق جيرمنت أن أمر أحياناً

بصف من الحدائق الصغيرة الجيدة الرى ، على أسيجتها عناقيد من الأزهار الداكنة ، فأقف أمامها على أمل أن أجنى بعض الإضافة الثمينة إلى خبرتى ، لأنه يخيل إلىّ أنى أرى جانباً من ذلك الريف على شواطئ الأنهار الذى طالما تمنيت أن أراه وأعرفه منذ قرأت وصفاً له فى كتابات بعض المؤلفين الأثيرين عندى . وأمام هذه الأرض التى كأنها كتاب قصصى ، والتى تشقها مئات الجداول ، كنت أقف وأتخيل « جيرمنت » وقد تجسمت أمام عينى بعد أن سمعت الدكتور بيرسبييه يتحدث عن الأزهار والجداول والينابيع الساحرة التى يراها زائر بستان قصر الدوق والدوقة المترامى : وكنت أحلم عندئذ أن الدوقة جيرمنت أغرمت بى فجأة ، فدعتنى إلى هناك ، وأنها قضت النهار بطوله بجوارى تصيد السلمون المرقط ، ولما جاء المساء ، تناولت يدى فى يدها ، ونحن نسير معاً بين حدائق أتباعها الصغيرة ، وتشير لى إلى الأزهار التى تميل بعناقيدها الزهرية الحمراء والقرمزية فوق الأسوار الواطئة ، وتعلمنى أسماءها كلها . وكانت أيضاً تحملنى على أن أحدثها عن كل القصائد التى أنوى نظمها .

وذكرتنى هذه الأحلام بأننى ما دمت قد رغبت فى أن أغدو فى يوم من الأيام كاتباً ؛ فينبغى أن أحدد منذ الآن أى نوع من الكتب سوف أكتب . ولكنى ما أكاد أوجه لنفسى هذا السؤال ، وأحاول اكتشاف بعض الموضوعات التى يمكن أن أضفى عليها مغزى فلسفياً ذا قيمة لا نهائية ، حتى أجد ذهنى قد توقف كما تتوقف

الساعة عن العمل ، وأرى أمامى فراغاً، أرى لا شيء ، وأكتشف أنى إما خال من الموهبة تماماً ، أو أن مرضاً من أمراض المخ قد عاق تقدمه ونموه :

وكنت أحياناً أعتمد على قيام أبى بتدبير كل شيء لى . فهو قوى جداً ، وله مكانة كبيرة عند « ذوى الشأن » من الناس ، بحيث كان يتيح لنا تجاوز حدود القانون التى كانت فرنسواز تقول لى إنها كقوانين الحياة والموت التى لا يمكن تخطيها ، ومن ذلك أننا بفضل نفوذه استطعنا أن نؤجل — دون سائر سكان الشارع — لمدة عام كامل طلاء واجهة بيتنا فى باريس : أو كما استطاع أن يحصل من الوزير لابن مدام سازيرا — الذى كان الأطباء قد أمروا بوجوب نقله إلى إحدى منتجعات المياه — أن يحصل على درجته العلمية قبل الموعد بشهرين كاملين ، فأدى الامتحان مع الطلبة الذين يبدأ اسمهم بحرف « ا » لا مع زملائه ممن يبدأ اسمهم بحرف «س» . فلو مرضت، أو خطفنى القراصنة ،لكانت رسائله إلى العلى القدير — فى اعتقادى — كفيلة بإنقاذى من الموت ، ولكان نفوذه مع القوى الخفية كفيلا بتخليصى من القراصنة . ولذا كلما تهددنى خطر شعرت أنه خطر وهمى ، وأن أبى خليق قطعاً أن يخلصنى منه :

ولعل هذا الافتقار إلى الموهبة ، وتلك الفجوة السوداء التى كنت أجدها فى ذهنى عندما أنبشه بحثاً عن موضوع كتاباتى المقبلة ، لم يكونا أيضاً إلا وهماً يقضى عليه تدخل من جانب أبى الذى سيدبر



وكنت احلم عندئذ ان الدوقة جيرمنت اغرمت بى فجاة ، فدعتنى الى هناك ، وانها قضت النهار بطوله بجوارى ..

مع الحكومة ومع العناية الإلهية ، ما يكفل لى أن أكون الكاتب الأول فى زمانى . ولكن فى أوقات أخرى عندما كان أبواى ينفد صبرهما لرؤيتى أتلكأ خلفهما بدلا من أن أتبعهما تبدو لى حياتى وكأنها جزء من واقع أكبر لم يخلق لمصلحتى ، ولا استئناف لأحكامه ، وأنا فى قلب هذا الواقع المعادى مقيد لا حيلة لى ولا حليف ، ولا صديق ، ولا مجال للإمكان فيما وراءه . وفى هذه اللحظات لا أشعر بأن حياتى الواقعية من صنع أبى الذى يملك تغييرها وتعديلها كما يشاء ، وهو الشعور الذى كان يغلب على تفكيرى معظم الوقت . وعندئذ يتبين لى أننى موجود على نحو ما وجد سائر البشر ، وأننى لا بد حتماً أن أشيخ مثلهم ، وأموت يوماً ما مثلهم أيضاً ، ولن يعرفوا عنى سوى أننى من أولئك النفر الذين لا مقدرة لهم على الكتابة . وهكذا قررت قانطاً أن أتخلى عن الأدب إلى الأبد ، برغم تشجيع «بلوخ» لى :

هذا الإحساس الحميم التلقائى ... هذا الإحساس بتفاهة ذهنى طمس كل الأحاديث التى تطربنى ، على نحو ما يحس الإنسان الشرير بوخز الضمير الخفى عندما يسمع كل من حوله يطرون أعماله الصالحة !

وذات يوم قالت لى أمى :

— أنت دائم الحديث عن مدام دى جيرمنت . والدكتور بيرسبييه صنع الكثير لها منذ أربع سنوات عندما كانت مريضة ، ولذا سوف تحضر إلى كمبراى لتشهد زواج ابنته : وهكذا سيتاح لك أن تراها فى الكنيسة .

وكان الدكتور بيرسبييه مصدر معظم ما سمعته عن مدام دى جيرمنت ، وكان هو الذى أطلعنا على نسخة من صحيفة مصورة كانت بها صورتها فى الزى الذى كانت قد ارتدته فى حفل راقص تنكرى أقامته الأميرة دى ليون P. De Léon :

وفجأة ، أثناء قداس الزواج تحرك الشماس من موضعه فأتاح لى أن أرى سيدة جالسة فى مصلى خاص ، ذات شعر أشقر وأنف كبير ، وعينين زرقاوين ثاقبتين ، ولفاع من الحرير البنفسجى المتماوج اللامع ، وعلى ركن أنفها شامة صغيرة . ولأننى استطعت أن أرى على صفحة وجهها الأحمر — كأنما هى تشعر بحر شديد — تفصيلات تشبه الصورة التى سبقت لى مشاهدتها ، ولأنى عرفت فيها تلك الأوصاف التى وصف بها الدكتور بيرسبييه الدوقة دى جيرمنت ، لذا عرفت أنها هى . وكان المصلى الذى تشهد منه صلاة القران هو مصلى جيلبير الشرير ، وتحتها أحجار الضريح المصفرة البارزة مثل خلايا العسل فى أقراص الشهد ، الذى تثوى فيه عظام كونتات برابان القدامى . وتذكرت أنى كنت قد سمعت أن هذا المصلى خاص ومحجوز لآل جيرمنت ، يشغله من يحضر منهم حفلا كنسياً فى كمبراى : وليست هناك سوى امرأة واحدة هى الجالسة فى ذلك المصلى تشبه الدوقة جيرمنت المنتظر وصولها اليوم . فلا بد إذن أنها هى !

وكانت خيبة أملى عظيمة ، وكان مصدرها أننى كنت قد تخيلت الدوقة على هيئة لوحة مطرزة بألوانها الخاصة ، أو على هيئة لوحة

فى نافذة ملونة ، وعلى أنها تعيش فى قرن آخر ، ومن مادة أخرى غير طينة النوع البشرى : ولم يدخل قط فى حسابى أن يكون لها وجه أحمر ، ولفاع بنفسجى مثل مدام سازيرا : وكانت استدارة خدها تذكرنى جداً بوجوه أناس رأيتهم فى بيتنا ، فداخلنى الشك بأن مادة جسمها ليست فريدة ، بل تنتمى إلى فصيلة من الإناث تنتمى إليها أيضاً زوجات الأطباء والتجار . ورحت أقول لنفسى بإصرار :

– إنها هى ! لا بد أنها هى مدام دى جيرمنت !

وأنا أنظر إليها بتركيز شديد ودهشة بالغة ، لفرط مباينة شكلها للصورة التى كنت أتخيلها لها فى ذهنى ، وتراودنى فى أحلامى ، حتى اللحظة التى انبرت فيها هذه السيدة أمام عينى منذ لحظة داخل الكنيسة ، وإذا بها فى كل شىء ، حتى تلك الشامة المتقدة على ركن أنفها ، تؤكد لى أنها واقع خاضع لكل قوانين الحياة ، على نحو ما تؤكد ارتعاشة خنصر بطلة المسرحية أنها ممثلة آدمية حية ، وتنفى من أذهاننا ما توهمناه من أنها مجرد انعكاس فانوس سحرى :

وهكذا صارت لهذه السيدة الواقعية التى طالما حلمت بها قوة سحرية إضافية على مخيلتى التى كانت قد شلت لحظة عندما صدمت بالمباينة بين توقعات أحلامى وبين الواقع ، وأخذت تؤثر فىّ هذه المعرفة الجديدة ، وأقول لنفسى :

– قبل أيام شرلمان كان آل جيرمنت أمجاداً عظماء لهم حق الحياة والموت على أتباعهم : وهذه الدوقة دى جيرمنت سليلة جنيفييف

دى برابان . وهى لا تعرف – ولا تقبل أن تعرف – أى أحد من الموجودين هنا اليوم !

وعندئذ ، بينما مدام دى جيرمنت جالسة فى المصلى الخاص فوق لحود أجدادها الراحلين ، راحت عيناها تتجولان هنا وهناك ، ورفعتهما إلى تيجان الأعمدة ، بل واستقرتا لحظة على شخصى ، كأنهما شعاع هابط من صحن الكنيسة ، إلا أنه شعاع أحسست أنه يعى ما يستقر عليه ، حينما استقرت على عيناها !

وظلت الدوقة جالسة فى مكانها لا تتحرك ، وكأنها أم تتعمد ألا تظهر أنها ترى سلوك أطفالها الذين يتحدثون أثناء لهوهم إلى أشخاص لا تعرفهم ، ولذا لم أستطع أن أجزم هل الدوقة تقر أو تشجب فى أعماق قلبها ما تراه عيناها فى تجوالها غير المكترث .

وشعرت بأنه يهمنى جداً ألا تغادر الكنيسة قبل أن يتاح لى النظر مدة كافية إليها ، مذكراً نفسى بأننى ظللت سنوات أتلهف على ذلك : ولذا ثبت نظرى عليها ، كأننى بذلك التثبيت أتمكن من اختزان تلك التفصيلات التى بدت لى ثمينة جداً ، وأصيلة ، ولا نظير لها فيما يتعلق بوجهها . والآن كلما فكرت فى هذا الوجه لا أجد فيه إلا ما هو جميل ، وأضع هذا الوجه فوق مستوى وجوه البشر العاديين الذين جعلتنى النظرة الأولى إليها أخلط بينهم وبينها . وانتابنى استنكار شديد عندما سمعت الناس يقولون ، فى الجمع المحيط بى :

– إنها أجمل من مدام سازيرا ... أو الآنسة فاتى

كما لو كانت يمكن أن تقارن بهما من أى وجه من الوجوه :
ورحت أمعن النظر إلى شعرها الأشقر ، وعينيها الزرقاوين ، وخطى
وجنتيها ، وأغض النظر عن كل السمات التى يمكن أن تذكرنى
بوجوه نساء أخريات ، ثم هتفت بينى وبين نفسى ، وأنا أتأمل هذه
الصورة غير التامة عمداً :

ـ ألا ما أحلاها ! أى نبل حقيقى ! إنها فعلا جيرمنت مجيدة ،
وسليلة جينفييف دى برابان ، تلك التى أراها الآن أمامى !

وأفلح تركيز انتباهى على وجهها فى عزل هذا الوجه تمام العزل ،
حتى أننى اليوم ، عندما أستعيد فى ذهنى حفل ذلك الزواج ، أجد
من المستحيل أن يتراءى لى أى شخص من الحاضرين سواها ، وذلك
الشماس الذى أكد لى عندما سألته أن هذه السيدة هى فعلا الدوقة
دى جيرمنت . أما هى فأراها إلى اليوم بكل وضوح ، ولا سيما فى
اللحظة التى اتجه فيها الموكب إلى حجرة ملابس الكهنة ، فى ذلك اليوم
الحار المشمس المطير فى تقطع ، حيث وجدت الدوقة نفسها وسط
كل أهالى كمبراى الذين تجهل أسماءهم ، ولكن دونيتهم زادت من
رفعة مقامها بصورة أشعرتها بالعطف عليهم عطفاً كله رثاء وإشفاق ،
ولا بد أن بساطتها وسحرها الطبيعى كان وقعهما عليهم بالغ الأثر :
وأستطيع أن أرى اليوم بعين عقلى تلك الدهشة اللطيفة التى بدت من
عينيها ، من فوق لفاعها البنفسجى الحريرى الرفاف ، التى أضافت
إليها ـ من غير أن تجسر على توجيهها إلى أى أحد بالذات ، بل هى

موجهة إلى كل من يأخذ منها بنصيب ، الابتسامة الحيية لملكة تعتذر
عن ظهورها بين رعاياها الذين تحبهم . واستقرت هذه الابتسامة على
شخصى ، أنا الذى لم أكف قط عن تعقبها بعينى . وإذ أتذكر تلك
النظرة التى حظيت بها أثناء القداس ، وكأنها فى زرقة شعاع الشمس
الذى اخترق زجاج نافذة جيلبير الشرير ، أقول لنفسى :

ـ إنها تفكر فىّ بالطبع !

فقد توهمت أنى وجدت نعمة فى عينيها ، وأنها ستظل تفكر فىّ
بعد مغادرة الكنيسة ، وأنها قد تعاود هذا التفكير ذلك المساء فى
جيرمنت : وعلى الفور وقعت فى غرامها . وكما يكفى أحياناً لكى
نحب امرأة أنها تنظر إلينا بازدراء ـ على نحو ما ظننت أن الآنسة
سوان نظرت إلىّ ـ ونتوهم أننا لا يمكن أبداً أن ننالها ، كذلك يكفى
أحياناً أن تنظر المرأة إلينا برقة وحنان ـ كنظرة مدام دى جيرمنت
حينئذ ـ كى نتوهم أنها صارت تقريباً فى متناول يدنا . فعيناها
الزرقاوان كالزهر الأزرق اللامع بعيدتان عن متناول يدى ، ولكنها
أهدتهما إلىّ . وانجابت سحابة عابرة فانبثق النور القوى على الميدان
وعلى الكنيسة ، فأضفى وهجاً على البساط الأحمر المفروش خصيصاً
بمناسبة القران ، وخطت مدام دى جرمنت فوقه باسمة ، وجررت
فوقه أذيالا من المخمل الوردى ، زادت من جمال وأبهة هذا الحفل ، فى
عذوبة تجعلنا نفهم لم وصف بودلير صوت البوق بأنه كان «لذيذاً» :

* * *

وكثيراً ما ألحّ علىّ إحساسى بعد ذلك اليوم، فى غضون نزهاتى بطريق جيرمنت ، شعور قوى بنقص استعدادى للعمل الأدبى ، وأننى ينبغى أن أتخلى عن كل أمل فى أن أغدو مؤلفاً مشهوراً . وكان أساى على ذلك عميقاً ، وأنا أتسكع وحدى كى أسترسل مع أحلامى لذا صرت ــ لكى أتجنب هذا الشعور المؤلم،أتجنب بحيلة دفاعية من جانب عقلى كل تفكير فى قرض الشعر أو كتابة القصة بسبب قصور مواهبى عن ذلك . وعندئذ، بعيداً عن كل هذه الاهتمامات الأدبية، وبدون ارتباط أو تعلق بأى شىء ، يطل علىّ فجأة وميض من أشعة الشمس من وراء أحد السقوف منعكساً على الصخور ، وتدفعنى رائحة الطريق المزهر إلى الوقوف فى مكانى ، لأنعم باللذة الخاصة التى يمنحنى إليها كل ما حولى ، وأيضاً لأنه خيل إلى أن هـذه الأشياء تخفى وراءها ما لا تستطيع عيناى أن تصلا إليه،وما تدعونى للاقتراب منه والاستحواذ عليه ، ولكنى مهما بذلت من جهد لا أستطيع أبداً أن أكتشف ما هو بالضبط . وكان وقوفى يطول وأنا جامد فى مكانى ، أحملق وأتنفس وأحاول بعقلى أن أنفذ إلى ما وراء المنظور والمشموم . وإذا اضطررت للسير وراء جدى، بعد ذلك حاولت أن أستعيد الإحساس بهذه الأشياء بإغلاق عينى ، وأركز ذهنى على تذكر شكل السقف بالضبط ، ولون الصخر ، فقد كانا ــ لا أدرى لماذا ــ فيما يخيل إلى يعجان بالأسرار ، وعلى استعداد للانفتاح أمامى كى أصـل إلى كنزهما المكنون ، الذى ليسا هما إلا غلافه

الخارجى . وليس شىء من قبيل هذا الانطباع كفيلا أن يعيد إلىّ الأمل الذى فقدته فى أن أصبح يوماً ما مؤلفاً وشاعراً . لأن كل انطباع منها كان مرتبطاً بموضوع مادى ليست له قيمة فكرية ، ولا يوحى بأى حقيقة مجردة . ولكنها على كل حال كانت تمنحنى لذة غير معقولة ، وتوهمنى بلون من خصوبة الذهن ، وبذلك كانت تنقذنى من الملل ، ومن إحساسى بعجزى الذى كنت أستشعره كلما فكرت فى موضوع فلسفى لعمل أدبى كبير .

وكان سلطان هذه الانطباعات المتعلقة بالشكل أو الرائحة كبيراً بحيث يدفعنى للبحث عما يكمن وراءها ، ولكنى كنت أجد عناء بلا طائل فى هذا البحث فأتذرع بأول مبرر للكف عنه ، ويسعفنى الحظ ، فينادينى والدىّ لألحق بهما ، وأقول لنفسى إنه من الخير أن أؤجل ذلك إلى حين عودتى للمنزل ، ولا أضنى نفسى الآن بهذه المحاولة التى لا جـدوى منها . وهكذا أكف عن الانشغال بالسر الكامن وراء شكل أو عبير ، وأمضى مستريح البال إلى أنى أحمـل هذه الأسرار معى إلى البيت محفوظة داخل أغلفتها الملموسة ، حيث أجدها ما تزال حية نابضة ، مثل السمكة التى أصطادها فى الأيام التى يسمح لى فيها بالصيد، وأحملها تحت العشب فى سلتى إلى المنزل ، فتصل حية طازجة رطبة .

ولكنى متى عدت إلى البيت بدأت أفكر فى أمور أخرى ، وبذلك يتبعثر ذهنى ــ كبعثرة الأشياء المتباينة التى جمعتها فى نزهتى

أو أعطانى الناس إياها – بين انعكاس الضوء على صخرة ، وصوت ناقوس ، ورائحة الأوراق المتساقطة ، ويضل بينها السر المزعوم الذى أحسست بوادره ، ولكن عقلى لم يستطع قط استخراجه من مكامنه .

وحدث ذات مرة أننا ذهبنا فى سيرنا إلى مدى أبعد مما تعودناه ، حتى أطبق المساء ، ولذا سرّنا أن نرى الدكتور بيرسبييه يمر بنا فى عربته بأقصى سرعة عائداً إلى كمبراى ، وعرفنا فتوقف ودعانا للوثوب والجلوس بجانبه. وجلست أنا على الصندوق بجوار الحوذى ، ومضت العربة تسابق الريح ، لأن الطبيب كان ينبغى أن يمر قبل العودة على مرتنفيل لوساك Martinville lesac ، ليعود مريضاً فى بيته . وأمام الباب طلب منا أن ننتظره . وعند ثنية فى الطريق شعرت فجأة بتلك اللذة الخاصة التى لا تشبه أى لذة أخرى ، عندما لمحت برجى كنيسة مرتنفيل ، اللذين كانت تتلاعب فوقهما أشعة الغروب ، فى حين كانت سرعة العربة تخيل إلىّ دائماً أنهما يغيران وضعهما باستمرار . ثم لمحت برجاً ثالثاً هو برج كنيسة فييفيك Vieuxvicq ، وكأنه قائم بجوارهما ، مع أنه يفصل بينه وبينهما تل وواد، ويقوم على مستوى من الأرض أكثر ارتفاعاً من مستواهما.

وبدت الأبراج بعيدة جداً ، ولذلك أدهشنى أن أرانا بعد بضع دقائق نقف بجوار كنيسة مرتنفيل . ولم أعرف سبباً للذة التى شعرت بها عند رؤية البرجين على الأفق ، وكل ما هناك أنى تمنيت أن أحتفظ

فى ذاكرتى بهذه الخطوط المتقاربة التى تتحرك فى ضوء الشمس ، ولم أرد أن أفكر فيهما فى الوقت الحاضر . ونزلت من فوق الصندوق لأتحدث إلى والدى ونحن فى انتظار أوبة الطبيب ، ثم حان وقت التحرك ، فصعدت إلى مكانى ، وأدرت رأسى كى أنظر إلى الوراء إلى البرجين ، وبعد قليل ألقيت عليهما لمحة وداع عند منعطف الطريق .

ولم أجد لدى الحوذى استعداداً للحديث ، فاتجهت إلى نفسى وحاولت استعادة منظر الأبراج الثلاثة ، وإذا بالسر المكنون المستعصى يتجلى لإحساسى على غير توقع ، ويملأ جوانب نفسى بحيث لم أفكر فى أى شىء غيره . وكنا فى هذه اللحظة قد ابتعدنا كثيراً عن مرتنفيل ، فأدرت رأسى ولمحت شبحها وقد تحول إلى اللون الأسود لأن الشمس كانت قد اختفت تماماً . وجعلت كل ثنية فى الطريق ، كل بضع دقائق ، تواريها عنى ، إلى أن اختفت نهائياً .

ولما كانت اللذة العميقة التى اجتاحتنى على صورة كلمات ، اقترضت من الدكتور ورقة وقلماً ، وكتبت – برغم اهتزاز العربة المستمر – ما نفست به عن حماستى – وهو القطعة النثرية التالية ، التى اكتشفتها فيما بعد بين أوراقى وها أنا أوردها هنا ، بشىء يسير من التعديل هنا وهناك .

* * *

« وحدهما ، صاعدين من مستوى السهل ، وكأنهما ضائعان فى

هـذا الريف المكشوف المترامى ، انبثق إلى السماء برجا مرتنفيل التوأمان : وسرعان ما رأينا ثلاثة أبراج ، فقد اندفع إلى وضعه هذا فى مواجهتهما بقوة وجسارة برج ثالث ، هو برج « فييفيك » ، الذى انضم إليهما : ومرت الدقائق ونحن نتحرك بسرعة ، وظلت الأبراج الثلاثة قبالتنا لمسافة طويلة ، مثل ثلاثة طيور جاثمة فوق السهل ، واضحة للعيان لا تتحرك فى ضوء الشمس : ثم انسحب برج فييفيك ، إلى مسافته الصحيحة ، وظل برجا مرتنفيل وحدهما ، وقد ذهبتهما أشعة الشمس الغاربة ، التى كنت أراها من هذا البعد تتلاعب وتبتسم فوق جوانبهما المنحدرة . وأنفقنا وقتاً طويلا فى الاقتراب منهما حتى بدأت أفكر فى الوقت الذى يجب أن ينقضى قبل وصولنا إليهما ، وإذا بالعربة فجأة ، وقد دارت حول منعطف ، تبلغ بنا إلى سفحهما مباشرة ، وكأنهما اندفعا فجأة ليقتحما طريقنا ، حتى لم يكد يتسع لنا الوقت للتوقف قبل الارتطام بمدخل الكنيسة :

« واستأنفنا طريقنا ، وكنا قد غادرنا مرتنفيل منـذ قليـل ، وغادرنا القرية التى صحبتنا فى مسيرتنا بضع ثوان ، ثم اختفت ، وإذا ببرجى مرتنفيل ، وبرج فييفيك يبرز ثلاثتها فوق الأفق لترقب فرارنا ، وتلوح لنا تلويحة الوداع بقممها المغمورة بالشمس : وفى وقت ما ينسحب البرج الثالث ليبقى الاثنان يرقباننا برهة ، ولما غير الطريق اتجاهه يروغ الثلاثة من نظرى كثلاثة محاور ذهبية : وبعد قليل ، عندما اقتربنا من كمبراى ، وكانت الشمس فى هذه الأثناء قد غربت ،

رأيت الأبراج الثلاثة للمرة الأخيرة ، ممعنة فى البعـد ، ولاحت كثلاثة أزاهير مرسومة على صفحة السماء فوق خط الحقول . وجعلتنى أفكر أيضاً فى ثلاث عذارى ورد ذكرهن فى أسطورة ، متروكات فى مكان منعزل ، بدأ الليل يطبق عليه ... وإذا بى أراهن ونحن نبتعد عنهن بسرعة ركض الخيول ، وقد رحن يتلمسن طريقهن ، وبعد حركات متعثرة من قدودهن النبيلة ، تدانين ، حتى صارت كل منهن متوارية خلف الأخريين ، حتى لم يعد يبدو منهن الآن على صفحة السماء التى لم تزل وردية إلا قوام واحد قاتم فاتن مستكين ، يوشك أن يبتلعه الليل » .

* * *

ولم أفكر بعد ذلك أبداً فى هذه الصفحة . ولكنى فى ذلك الحين ، وأنا جالس على الصندوق الذى كان من عادة حوذى الدكتور أن يودعه سلة كبيرة بها الدواجن التى كان قد اشتراها من سوق مرتنفيل ، أحسست عندما فرغت من كتابتها بسعادة غامرة لأنى خلصت ذهنى تماماً من وسواس تلك الأبراج ومن السر الذى يكمن فيها ، وكأننى شخصياً دجاجة وضعت أخيراً بيضتها ، فشرعت أغنى بأعلى صوتى :

* * *

وكنت أثناء نزهاتى تلك أظل طول اليوم أفكر فى اللذة التى سأحصل عليها من صداقة الدوقة جيرمنت ، ومن صيد السلمون

المرقط ، ومن الطفو وحدى فى زورق فوق صفحة نهر فيفون . وكنت لشدة نهمى إلى السعادة لا أطلب شيئاً من الحياة – فى تلك الأوقات – أكثر من أن تكون سلسلة من « العصارى » المرحة . ولكن عندما ألمح فى طريقنا إلى البيت مزرعة على يسار الطريق ، تبعد قليلا عن مزرعتين متجاورتين ، لا يفصلهما عن كبرى إلا أن ننعطف فى ممر تظلله أشجار البلوط ، تحف بأحد جانبيه بساتين مسورة لأشجار التفاح التى تلقى على الأرض ظلالها فى ضوء الغروب ، وعندئذ يدق قلبى بشدة ، وأعلم أننا بعد نصف ساعة سنكون فى البيت ، وأننا كالعادة كلما سرنا فى طريق جيرمنت نتناول العشاء متأخرين ، وبعده مباشرة أومر بالصعود إلى حجرتى ، وتبقى أمى على المائدة كأنما هناك ضيوف ، ولا تصعد لتقول لى فى فراشى طابت ليلتك . وعلى الفور تبدأ منطقة اكتئابى التى تختلف تمام الاختلاف عن منطقة المرح والسعادة التى كنت أرفل فيها منذ لحظة ، تماماً كما تنفصل أحياناً على صفحة السماء مساحة وردية عن مساحة أخرى خضراء أو سوداء ، كأنما بينهما خط غير منظور . فبينا أنت ترى طائراً يحلق فى الضوء الوردى ، إذا به يعبر ذلك الحد الفاصل ويمرق منه ليحلق فى المساحة السوداء التى تخفيه عن ناظريك.

وإذا بالتمنيات التى كنت غارقاً فيها بأن أذهب إلى جيرمنت وأسافر وأعيش حياة السعادة وقد صارت بعيدة عنى ، حتى أن تحققها لا يسبب لى أدنى لذة . فقد كنت مستعداً أن أضحى بهذا كله فى

سبيل أن أبكى الليل بطوله بين ذراعى ماما ! وأرتجف من شدة الانفعال ، وأعجز عن تحويل عينى الفزعتين عن وجه أمى التى لن تأتى إلى حجرتى هذا المساء وأنا راقد فى فراشى ، وليتها تكون ضجعة الموت !

وتلازمنى هذه الحالة حتى الصباح ، ومتى نشرت أنواره أشعتها ، قفزت من فراشى وهبطت على الفور إلى الحديقة ، ولا يخطر ببالى عندئذ أن المساء سيعود ، وتحل معه الساعة التى يتعين علىّ فيها أن أفارق أمى . وهكذا تعلمت من طريق جيرمنت أن أميز بين هاتين الحالتين اللتين كانتا تسيطران على عقلى بطريقة تبادلية ، بحيث تقتسمان يومى فيما بينهما ، وتحل كل منهما محل الأخرى بانتظام دورات الحمى والبرداء فى الملاريا . تتجاوران ولكن كلا منهما غريبة عن الأخرى ، وليس بينهما اتصال ، بحيث لا أستطيع وأنا فى إحدى الحالتين أن أفهم ، أو حتى أصور لنفسى ما تقت إليه أو فعلته وأنا تحت سيطرة الحالة الأخرى .

* * *

وهكذا يظل طريق ميزجليز وطريق جيرمنت مرتبطين عندى بالأحداث الصغيرة للحياة الغنية بالتفصيلات والوقائع ، الحافلة بالتنوع. وأعنى بتلك الحياة حياة الذهن . فما يحدث فى عقولنا من تطورات ، ومن نمو وتقدم سبقته دائماً تمهيدات صغيرة غير ملحوظة ، لأنها تمهيدات لا شعورية ، يضنينا البحث عن جذورها وراء تكويننا

الراهن عندما نكبر . ولخفاء هذه الجذور والتمهيدات عنا نحسب حالتنا الراهنة وليدة اليوم ، بل اللحظة التى لاحت لنا فيها ، مع أن كل ما مر بنا فى حداثتنا من مناظر وروائح ومشاعر جزئية قد اندمج فينا وحملناه معنا بأدق تفصيلاته . وهو الذى صنع تكويننا النفسى والعقلى من حيث لا نحتسب . وهكذا حملت فى دخيلتى روائح الزعرور البرى ، ومناظر المروج ، والنهر ، والبساتين ، والسماء ، والأبراج ، وألصقتها بى انفعالاتى الحارة بها فى حينها ، وعبرت معى كل تلك السنين ، فى حين ماتت كل العناصر والمرئيات التى لم أنفعل بها . وأحياناً تطفو فى الحاضر قطعة من منظر قديم منفصلة عن كل ما كان متصلا بها ، بحيث أعجز عن تحديد المكان والزمان الذى تراءت لى فيه فى البداية . بل لعلها جزء من أحلامى القديمة ، ولكنى أعجز أيضاً عن تحديد ملابسات هذا الحلم . إلا أن هذه المكنونات اللاشعورية هى أرض نفسيتى الصلبة ، فى أعمق طبقاتها ، التى فوقها أستطيع أن أبنى تصوراتى الجديدة . وهذه الأرضية هى بلا شك – فى نظرى – طريقا ميزجليز وجيرمنت . وما زالت الأشياء والأشخاص الذين عرفتهم وأنا أطوف هذه الأصقاع هى مصدر سرورى العميق . ولا أدرى ألأن الإيمان الخلاق قد توقف فى نفسى ، أم لأن الواقع احتل تصوراتى ، صرت لا أحس أن الأزهار التى يريني الناس إياها الآن لأول مرة أزهار حقيقية . وما زال طريق ميزجليز بليلكه وزعروره البرى وقنطريونه العنبرى

وخشخاشه وأشجار تفاحه ، وما زال طريق جيرمنت بنهره الغاص بأفراخ الضفادع ، وزنابقه المائية ، يكونان لدى على مدى الأيام صورة الأرض التى أتمنى أن أقضى فيها حياتى ، وكل ما أقتضيه منها أن أخرج للصيد فى النهر ، والطفو بتراخ فى زورق ، وأشاهد أنقاض القلعة القوطية بين الأعشاب ، وأعثر وسط حقول القمح على كنيسة قديمة متوارية – كما تتوارى كنيسة سانت أندريه ديه شان – ببنائها الريفى ، وقد اصفر كأنه حجر الطاحون ، وأعثر على القنطريون العنبرى والزعرور البرى وأشجار التفاح التى قد أصادفها وأنا خارج للنزهة بين الحقول .

ولكن لأن للأماكن فرديتها ، لن يشبع اشتياقى إلى طريق جيرمنت أن أرى ضفتى نهر ما فيه زنابق الماء ولو كانت فى جمال زنابق نهر فيفون أو أجمل منها وأبهى . تماماً كما لن يشبع اشتياقى للحب والحنان أن أجد عند عودتى للبيت أماً غريبة تدخل حجرة نومى لتقول لى طابت ليلتك ، حتى ولو كانت أجمل من أمى بكثير وأذكى منها . وكما أنه كان لا بد لتلك المرأة أن تكون أمى كى تمنحنى السعادة وأنام قرير العين (وذلك ما لم أستطع أن أحسه من قبلات من حظيت بهن بعد ذلك من عشيقات ، كنت أشك فى صدق عواطفهن فى نفس اللحظة التى أصدقهن فيها ، فالمرء لا يملك حقاً قلوبهن كما كنت أتلقى مع قبلة أمى قلبها كله بغير تردد أو ضن أو تحفظ) وكما كان لا بد أن تكون أمى هى التى تأتى إلى وتميل فوق

بوجهها ذاك الذى كانت توجد فيه تحت إحدى العينين شائبة كنت أحبها جداً كما أحب كل ما فيها ، كذلك ما كان لا بد لى منه كى يشبع أشواقى هو طريق جيرمنت كما عرفته ، وفيه تلك المزرعة البعيدة قليلا عن المزرعتين المتجاورتين المتلاصقتين ، عند مدخل ممر البلوط ، وفيه تلك المروج التى ترتسم فوقها أوراق أشجار التفاح عندما تضئ الشمس على صفحتها تألقاً تبدو فيه كالبحيرة . وبه كل تلك المناظر التى تسيطر فرديتها أحياناً على أحلامى فى الليل ولكنى عندما أصحو لا أجد لها أثراً .

ولا شك فى أن طريقى ميزجليز وجيرمنت قد عرضانى فيما تلا ذلك من مراحل عمرى لكثير من خيبة الأمل ، بل لكثير من الأخطاء بما أوقعاه فى نفسى من ارتباطات بين مجموعات متباينة من الانطباعات ، لا لسبب سوى أنها أشعرتنى بأشياء متفرقة فى آن واحد . ولذا فكثيراً ما تمنيت بعد ذلك لقاء شخص معين ثم أكتشف أن السبب فى ذلك أنه ذكرنى بسياج من الزعرور البرى المزهر . وهكذا أجد هذين الطريقين الأساس الغائر لانطباعاتى الحاضرة ، الأساس الذى يكسبها عمقاً وأبعاداً ، تفتقر إليها انطباعاتى الأخرى غير المرتبطة بهما . كما أنه يكسبها مغزى يخصنى وحدى . فعندما تزمجر السماء المكفهرة فى إحدى أمسيات الصيف ويتذمر كل امرئ من العاصفة ، تذهب بى مخيلتى إلى طريق ميزجليز فى نشوة لأستنشق وسط صوت

المطر المنهمر عبير تلك المروج وما فيها من أشجار الليلك التى لا يراها سواى ، وتلاحقنى صورها وشذاها .

وكذلك كثيراً ما أرقد حتى الصباح أحلم بالأيام الخوالى فى كمبراى ، وأمسياتى الحزينة الأرقة هناك ، وبأيام أخرى ردها إلىّ طعم فنجان من الشاى ، وبتداعى الذكريات أستعيد قصة رويت لى بعد فراق ذلك المكان بسنوات عن غرام انغمس فيه سوان قبل أن أولد . أستعيدها بكل التفصيلات وبكل الدقة التى تواتينا ونحن ندرس حياة من غبروا منذ قرون بأسهل مما تواتينا تفصيلات حياة أقرب أصدقائنا إلينا . تفصيلات كان يبدو من المستحيل أن ندركها مثلما كان يبدو لنا الكلام من بلدة لأخرى مستحيلا قبل اختراع التليفون . وتتراكب كل هذه الذكريات فى كيان واحد ولكن بغير التحام ، فهناك ثلاث طبقات منها : طبقة الذكريات الموغلة فى القدم وكأنها غريزية ، وطبقة الذكريات التى استعادها طعم معين أو رائحة خاصة ، وطبقة الذكريات التى اكتسبتها عن طريق رواية شخص آخر .

أجل إنى عندما يدنو الصباح أكون قد تخلصت من سيطرة الحلم ، وأدرك فى أى حجرة أنام فعلا ، مستعيناً بالذاكرة فى عتمة السحر ، أو بوميض ضوء منبعث من الخارج ، فأعرف أن مصدره نافذة لها ستائر ، وأحدد مكان كل قطعة من أثاثها . ولكن ما يكاد الصبح الحقيقى يبزغ حتى أتبين أن بصيص النور كان منبعثاً من تحت الباب ،

لا من النافذة ، وأرى الأثاث كله فى وضعه الصحيح ، لا كما توهمته بالمخيلة فى العتمة .

لكى تقبل فى « الخلية الصغيرة » أو « المجموعة الصغيرة » فى بيت آل فرديران Verdurin ، يكفى أن تكون مستوفياً لشرط واحد ، ولكن هذا الشرط الواحد لا غنى عنه . فلا بد أن تؤمن بالعقيدة التى من بين بنودها أن عازف البيانو الشاب الذى شملته مدام فرديران برعايتها هذا العام وقالت عنه :

– لا ينبغى أن يسمح لأحد أن يعزف البيانو أفضل من هذا .

وأن الدكتور كوتار Cottard نطاسى أبرع فى وصف العلة من بوتان Potain . وكل مستجد يفشل آل فرديران فى إقناعه بأن الأمسيات التى تقضى فى غير دارهما مملة كمياه الصرف الصحى ، يجد نفسه منبوذاً مقصياً على الفور . ولما كانت النساء فى هذا الشأن أشد تمرداً من الرجال ، وأقل منهم استعداداً لنبذ كل فضول دنيوى ، ويفضلن أن يكتشفن بأنفسهن هل قاعات الاستقبال الأخرى لها مثل مباهج قاعة استقبال آل فرديران فى بعض الأحيان أم لا ؟ ولما كان آل فرديران يشعران أن هذه الروح النقدية وهذا النزق يمكن أن ينتقلا بالعدوى فيقضيان على أصالة واستقامة عقيدة كنيستهما الصغيرة ، لذا اضطرا إلى إقصاء الجنس اللطيف واحدة بعد واحدة .

فبخلاف زوجة الطبيب الشابة ، اضطرا فى ذلك الموسم (مع

أن مدام فرديران نفسها كانت امرأة « طيبة » جداً ، وتنحدر من أسرة محترمة من أسر الطبقة الوسطى ، وبالغة الثراء ، وليس فيها عنصر من عناصر الرقى والامتياز ، وقد قطعت كل صلة لها بأسرتها هذه تدريجياً ومن تلقاء نفسها) للاكتفاء بامرأة شابة تكاد تنتمى لطبقة معينة (من أنصاف الحرائر) هى مدام دى كريسى Crécy ، كانت مدام فرديران تناديها باسمها الأول وهو « أوديت » Odette ، وبعمة عازف البيانو التى كان يبدو عليها أنها كانت تعمل فيما مضى خادمة : وهما سيدتان تجهلان المجتمع الراقى تماماً ، ولذا كان من السهل عليهما لسذاجتهما أن تعتقدا أن أميرة ساجان De Sagan ودوقة جيرمنت De Guermantes كانتا مضطرتين لدفع مبالغ كبيرة من المال للمسكينات اللواتى يقبلن الدعوة إلى قصريهما ، وهى دعوة كانت المرأة غير المصون والخادمة السابقة تأبيان قبولها بازدراء شديد :

ولم يكن آل فرديران يدعوانك إلى المائدة ، بل مكانك محجوز لك دائماً . ولم يكن هناك قط أى برنامج للترفيه فى الأمسيات . وقد يعزف عازف البيانو إن وجد ميلا لذلك ، لأنه لم تكن هناك واجبات مفروضة على أحد ، بل كما قال المسيو فرديران :

– كلنا هنا أصدقاء والحرية هى الشعار .

وإذا اقترح عازف البيانو عزف «ركوب الفالكيرى» أو «مقدمة تريستان» احتجت مدام فرديران ، لا لأن الموسيقى لا تروقها ، بل

بالعكس لأن انطباعها عنيف جداً « أتريد أن يصبنى الصداع ؟ فأنت تعرف جيداً أننى أصاب به فى كل مرة يعزف فيها هذا .. ويتعذر علىّ النهوض غداً من فراشى ». فإن لم يكن عازماً على العزف ، دارت الأحاديث ، وعادة يشرع الرسام ـ الذى كانت له الحظوة تلك السنة ـ فى « حبك » نادرة تجعلهم جميعاً تكاد تنشق جنوبهم من الضحك ـ على حد قول مسيو فرديران ، وتكون مدام فرديران أشد الجميع ضحكاً ، حتى أن الدكتور كوتار ـ الذى كان يومئذ حديث عهد بالممارسة العامة ـ يضطر فى الصباح لزيارتها كى يصلح فكها الذى اعوج من شدة الضحك !

وكانت ملابس السهرة ممنوعة ، لأن الجميع « رفاق وأصحاب » ولا يريدون أن يبدوا مثل المملين من السمجين المتكلفين الذين يجب تحاشيهم كأنهم الطاعون ، فلا يدعون إلا فى السهرات الكبرى التى لا تقام إلا نادراً جداً ، وبشرط أن تفيد فى إذاعة شهرة الرسام أو الموسيقى . أما سائر الليالى فأنت سعيد بالتسلية بين الصحاب أو أداء تمثيليات تنكرية ثم تناول العشاء ، بدون حاجة إلى إقحام عناصر غريبة فى « العشيرة » الصغيرة .

ولكن بعد أن صار « الرفاق الطيبون » يحتلون مكاناً بارزاً فى حياة مدام فرديران ، كذلك صار « المملون » يشملون كل من وكل ما يبعد أصدقاءها عنها ، بحيث يتذرعون أحياناً « بارتباطات سابقة » ، مثل والدة هذا ، أو واجبات مهنة ذاك ، أو « المقر الريفى » لثالث .

فإذا اضطر الدكتور كوتار أن يقول طابت ليلتكم بمجرد النهوض من المائدة ، لكى يعود مريضاً حالته سيئة ، قالت مدام فرديران :

ـ أعتقد أن حالته ستكون أفضل إن لم تقلقه مرة أخرى الليلة ، فيحظى بليلة طيبة بدونك ، ويمكنك غداً صباحاً أن تبكر بالذهاب إليه فتجده شفى تماماً !

ومنذ بداية ديسمبر ينتابها المرض من التفكير فى أن بعض « المخلصين » قد يخذلونها فى عيد الميلاد ورأس السنة . فعمة الموسيقى ألحت أن يصحبها فى رأس السنة لتناول العشاء عند والدتها . فصاحت مدام فرديران :

ـ أتظنين أن والدتك ستموت إن لم تتعشى معها ليلة رأس السنة مثل أهل الريف ؟

وينفد ضيقها فى الأسبوع المقدس . فقد قالت للدكتور كوتار فى أول سنة انضم فيها إلى « العشيرة » ، بصوت حازم كأنها لا ترتاب فى رده :

ـ أنت يا دكتور رجل عاقل واسع الأفق ، وستأتى بالطبع يوم الجمعة الحزينة كأى يوم آخر ؟

ولكنها كانت ترتجف وهى تنتظر هذا الرد ، لأنه إن لم يأت قضى عليها بتناول العشاء وحدها :

ـ سآتى يوم الجمعة الحزينة لأودعك ، لأننا ذاهبان لقضاء العطلة فى أوفرنى Ouvergne .

– فى أوفرنى ؟ لكى تأكلكما الحشرات والهوام ؟ ما أسوأه من اختيار ! (وبعد لحظة صمت) ولو كنت أخبرتنى من قبل لحاولت تكوين جماعة لنذهب كلنا معاً إلى هناك بطريقة مريحة .

وكذلك إذا كان لأحد « المخلصين » صديق ، أو كان لإحدى السيدتين صديق من الممكن أن يدفع « المخلص أو المخلصة » إلى التخلف عن أمسية ، ربما ضمه إلى العشيرة ، لأن آل فرديران لا يغضبهما أن يكون لأى سيدة عشيق ، ورحبا به بكل سرور . ثم يجرى اختباره للتأكد من أنه لن يكتم سراً عن مدام فرديران ، فيتم ضمه نهائياً . أما إن رسب فى الاختبار انتحيا « بالمخلص » الذى قدمه إليهما جانباً ، وحرضاه على الشجار مع العشيقة أو العشيق غير المرغوب فيه . أما إن اجتاز الاختبار ، خلعا عليه لقب « مخلص » أو « مخلصة » ، ولذا عندما قالت الغانية للمسيو فرديران إنها تعرفت بسيد ساحر هو مسيو سوان Swann وألمحت أنه يتمنى أن يسمحا له بالقدوم ، رفع مسيو فرديران الالتماس فوراً إلى زوجته ، فما كان ليكوّن رأياً فى أى موضوع ، بل يترك ذلك لها . وينحصر واجبه فى تنفيذ رغباتها ورغبات « المخلصين » عموماً ، بكل دقة وبراعة ، وهذا يقول لزوجته :

– يا عزيزتى إن مدام دى كريسى (أوديت) لديها شىء تقوله لك : إنها تود أن تأتى إلى هنا بأحد أصدقائها : من يدعى مسيو سوان . فما رأيك ؟

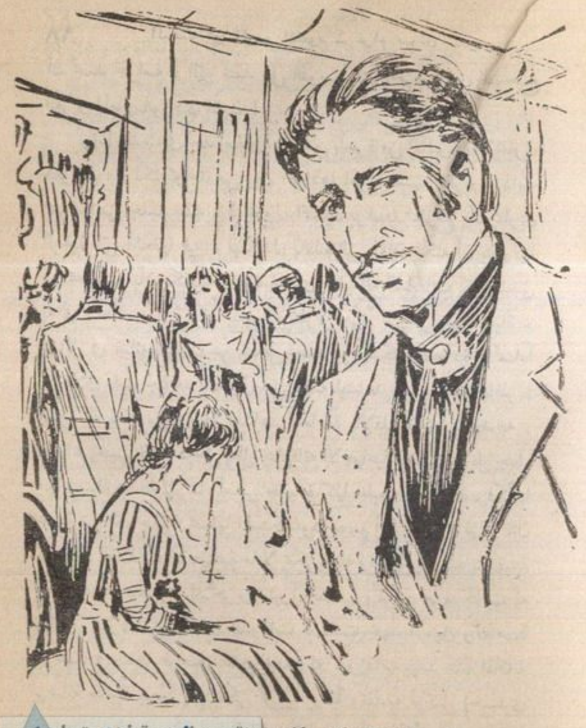
– كأنما يسع أى إنسان أن يرفض أى شىء لهذه التحفة ؟ اسكتى أنت . لم يطلب أحد رأيك . أنا قلت : إنك تحفة !

فأجابتها أوديت ، بلهجة متكلفة :

– كما تشائين . وأنت تعلمين أنى لا أتصيد الإطراء .

– هذا حسن . ليكن . أحضرى صاحبك ، إن كان لطيفاً .

ولم يكن هناك أى ارتباط إطلاقاً بين هذه « الخلية الصغيرة » وبين المجتمع الذى يخالطه سوان ، وأى رجل مجتمع راق ما كان ليجدهذه المجموعة تستحق عنايته وهو يحتل مركزاً مرموقاً فى الحياة، ولا يعنى نفسه للسعى إلى دخول بيت آل فرديران . ولكن سوان كان عاشقاً مدنفاً ، بحيث أنه بعد أن عرف جميع نساء الأرستقراطية تقريباً ، وعلمنه كل ما يمكن تعلمه ، لم يعد يرى فى حبك الاعتماد الذى أضفاه عليه حى سان جيرمان Faubourg Saint Germain علاقة نبالة ، بل مجرد سند قابل للمقايضة وليست له قيمة ذاتية ، بل كل ما هناك أنه يتيح له مكانة فى ركن قصى من الريف ، أو فى حى مغمور من باريس حيث خلبت لبه ابنة حسناء لحام أو أحد صغار الأعيان . ففى هذه الأوقات توقد الشهوة أو الحب ذاته فى نفسه شعوراً بالزهو هو الآن خال منه فى حياته اليومية ، مع أنه بلا ريب نفس الشعور الذى كان قد دفعه فى البداية نحو هذا الاتجاه كرجل مجتمع أنيق يسخر مواهبه الذهنية والثقافية للمسرات الفارغة ، ويستخدم أبحاثه وتبحره فى أمور الفن لمجرد نصح سيدات المجتمع



وسوان يختلف عن اناس كثيرين تنقصهم الحيوية أو يستسلمون للاحساس بالواجب الذى يفرضه عليهم مركزهم الاجتماعى الرفيع ..

الراقى بأى الصور يشترينها وكيف يزخرفن بيوتهن : وهذه الأباطيل هى التى جعلته متلهفاً على التألق فى نظر أى مجهولة حسناء فتنته فى حينها ، تألقاً ربما لم يكن اسم سوان فى حد ذاته مشعاً به فى نظرها . وإن شغفه ليزداد لهفة إذا كانت المليحة المجهولة أو المغمورة ذات ظروف متواضعة . وسوان الذى كان يتصرف بكل بساطة وعلى سجيته تماماً مع الدوقات يرتجف خوفاً من ازدراء يوجه إليه ، ويشرع فى التكلف على الفور إذا كان سيقابل خادمة صاحبة الفخامة !

وسوان يختلف عن أناس كثيرين تنقصهم الحيوية أو يستسلمون للإحساس بالواجب الذى يفرضه عليهم مركزهم الاجتماعى الرفيع ، فيظلون كالزورق المشدود أمام البيت الساحلى ملازمين لنقطة معينة من شط مجرى الحياة ، ممتنعين عن المسرات واللذائذ المتاحة لهم فيما يجاوز هذه النقطة حتى نهاية عمرهم ، متحملين السأم والملل بما تيسر لهم من تسلية تافهة . أما سوان فليس هكذا ، فهو يحاول ألا يجد السحر والجمال فى النساء اللواتى يتحتم عليه أن يقضى معهن الوقت ، ويحاول أن يقضى وقته بين نساء اكتشف بنفسه أنهن جميلات فاتنات ، وهن غالباً نساء ينتمى جمالهن إلى النمط السوقى ، لأن المحاسن الجسدية التى تجتذبه غريزياً وبلا تعقل هى نقيض المحاسن التى يعجب بها فى صور وتماثيل النساء التى رسمها ونحتها أساتذة الفن الذين يعجب بهم. فعمق الشخصية أو الطبع ، أو المسحة الحزينة على وجه امرأة كفيلة

أن تجمد حواسه ، التى تتقد على الفور لمرأى اللحم البشرى الصحيح الغزير المعافى الوردى اللون !

وإذا حدث فى أحد أسفاره أنه التقى بأسرة من الأليق به ألا يحاول معرفتها ، ولكنه وجد من بين أفرادها امرأة لفتت نظره ، ذات سحر خاص جديد عليه ، لم يحاول التمسك بوضعه المترفع بأن يمارى الرغبة التى أشعلتها فيه ، فيستبدل باللذة التى كان يمكنه أن يتذوقها فى صحبتها ، بأن يكتب لدعوة إحدى عشيقاته السابقات كى تلحق به فى رحلته ، لأن ذلك يبدو له تنازلا جباناً عن مواجهة الحياة ، يماثل فى غبائه النزول عن شكل جديد من أشكال السعادة ، تماماً كإغلاق باب جناحه بالفندق على نفسه ليشاهد صور « المناظر » الباريسية بدلا من زيارة المشاهد الخاصة بالإقليم الذى يوجد به .

ولذا لم يحبس نفسه داخل إطار علاقاته الاجتماعية الصلب ، بل جعل منها وسيلة متاحة لإرساء أسس جديدة كلما خلبت لبه امرأة . فكأنها خيمة من الخيام التى يحملها المستكشفون معهم أينما ذهبوا . فإذا كان من هذه العلاقات الاجتماعية ما لا يمكن حمله والتنقل به عده بلا قيمة وطرحه ، مهما بدا للآخرين مثيراً للحسد . وكم من مرة كانت له مكانة كبيرة لدى إحدى الدوقات ، بنيت بجهد السنين وكدها ورغبتها فى انتهاز فرصة لتقديم خدمة له ، وإذا به يبدد هذه المكانة برسالة طائشة يبعثها إليها لكى تزكيه برقياً وتقدمه لوكيل إحدى ضياعها فى الريف لأن له ابنة لفتت نظره هناك . فكأنه الجائع الذى

ينزل عن جوهرة نفيسة ليحصل على كسرة خبز جافة ! وللحق أنه — بعد فوات الأوان — كان يضحك ساخراً من نفسه وما فعل ، لأن فى طبيعته عنصر التهريج وإن كانت قد صقلته تجارب الحياة .

ثم إنه ينتمى إلى ذلك الصنف من أذكياء الرجال الذين عاشوا حياة الدعة والكسل ، وينشدون العزاء ، وربما أيضاً العذر لكسلهم لأنه يتيح لهم موضوعات اهتمام تضارع الموضوعات العلمية والفنية ، على أساس أن « الحياة » بها مواقف أحرى بالطرافة وأحفل بالرومانسية من كل الروايات المكتوبة . وهكذا ، على الأقل ، يتسنى له أن يؤكد ويقنع بلا عناء أشد أصدقائه فطنة فى المجتمع الراقى — ولا سيما البارون دى شارلى De Gharlus — الذى كان يحب أن يسليه بحكاية المغامرات الغريبة التى تتفق له ، كما حدث عندما التقى بامرأة فى القطار ، وأخذها معه إلى البيت ، قبل أن يكتشف أنها كانت شقيقة ملك متوج ، كانت متجمعة حينذاك فى يديه كل خيوط السياسة الأوربية ، وبذلك ظل على علم بخفاياها على أمتع وجه ، أو عندما تكون الأهمية كلها — نتيجة لتعقد الظروف — فهل يصبح أم لا عشيقاً لطباخة شخص ما ، وعلى ذلك قد تتوقف نتيجة انتخاب المجمع المقدس للبابا !

ولم يكن الفيلق اللامع من العقائل الفضليات والجنرالات والأكاديميين المرتبطين به ارتباطاً وثيقاً ، هو وحده الذى يحمله سوان بكل استهانة على أن يقوم له بعمل القواد . بل كل أصدقائه

كانوا معتادين أن يتلقوا بين الحين والحين رسائل تطلب منهم كلمة تزكية أو تقديم ، بأسلوب غاية فى الدبلوماسية ولكن بصورة متواترة فى جميع « علاقاته الغرامية » ، مستعيناً على هذا بشتى المعاذير ، مما يفضح سمة ثابتة فى طبعه هى البحث الدائب عن المتعة المتغيرة . وكثيراً ما ذكرت نفسى — عندما بدأت بعد سنوات طوال فى الاهتمام بطبعه لما فيه مشابه من وجوه مختلفة تماماً مع طبعى الخاص — كيف كان من عادته أن يكتب إلى جدى (وكان ذلك قبل وقت مولدى ، فنى ذلك الحين بدأت علاقة سوان الغرامية الكبرى فقطعت مغامراته المعهودة) فكان جدى يعرف خط صديقه على المظروف ويصيح :

— ها هو سوان يطلب شيئاً ما . فلنكن على حذر !

وبناء على النزعة اللاشعورية التى تحثنا على تقديم شىء ما إلى من لا يحتاجون إليه ، كان جدى وجدتى يقابلان أهون مطالب سوان بالرفض البات ، كما هو الحال حينما رجاهما أن يقدماه إلى فتاة كانت تتعشى معنا كل يوم أحد ، وصارا يتظاهران كلما ذكرها لهما سوان أنهما انقطعا عن رؤيتها ، مع أنهما طول الأسبوع فى حيرة بشأن من عساهما يدعوان للقائها ، وكانا يفشلان أحياناً فى العثور على أحد ؛ ومع هذا لا تبدر منهما إشارة لدعوته وهو الذى كان خليقاً أن يلبيها بكل سرور :

وأحياناً كان زوجان من معارف جدى وجدتى — ممن سبق لهم الشكوى لانقطاع سوان عنهما منذ مدة — يعلنان بفرح ، وربما

بشىء من الرغبة فى إثارة حسد جدى وجدتى لها ، أن سوان عاد إلى مودته ، بل وزاد فى مظاهرها معهما فجأة ، ولم يعد يغيب عن بيتهما . ولا يحاول جدى أن يحطم وهمهما الجميل ، وينظر إلى جدتى وهو يدندن بموسيقى هذه الأغنية :

« ما هذا اللغز الخفى ؟ أنا عاجز عن فهمه . البصر عاجز مراوغ .. وفى مثل هذه الأمور ، يستحسن أن يغلق المرء عينيه ! » .

وبعد بضعة أشهر ، إن سأل جدى صديق سوان الجديد :

— ماذا عن سوان ؟ ألم يزل يكثر من زيارتكم كالمعتاد ؟

عندئذ يستطيل وجه الرجل ويقول :

— لا تذكره لى من فضلك بعد الآن !

— ولكنى ظننتكما صديقين حميمين ...

وعلى هذا المنوال كان سوان صديقاً حميماً لعدة أشهر لبعض أبناء عمومة جدتى ، بحيث كان يتعشى عندهم كل ليلة : وفجأة انقطع بغير سابق إنذار . فظنوه مريضاً ، وهمت ربة البيت أن ترسل للسؤال والاستفسار عن صحته ، عندما عثرت فى مطبخها على خطاب بخط يده كانت الطباخة قد تركته سهواً فى دفتر حسابات المنزل ! وفيه يعلن أنه سيغادر باريس ولن يأتى إلى هذا البيت بعد ذلك . فقد كانت الطباخة عشيقته . وفى لحظة رحيله كانت هى الشخص الوحيد من أهل البيت الذى فكر فى إخباره بنيته هذه .

أما إذا كانت عشيقته فى فترة معينة امرأة من سيدات المجتمع ،

أو على الأقل ليست وضيعة المولد جداً ، أو ليس وضعها شاذاً جداً بحيث لا يمكنه تقديمها للمجتمع الراقى ، عندئذ يدور فى الفلك الضيق الذى به هذه المرأة أو الذى وضعها فيه هو ، ويقول الناس فى هـذه الحـالة :

— لا جدوى من الاعتماد على سوان الليلة : ألا تتذكرون أنها ليلة صاحبته الأمريكية بالأوبرا ؟

وتراه يحصل لها على الدعوات إلى أرقى الصالونات ، فى تلك البيوت التى يغشاها عادة ، للعشاء أسبوعياً ، أو للعب البوكر : وفى كل أمسية تراه بعد أن يرجل شعره الأحمر المتهدل بما يلطف من جسارة عينيه الخضراوين ، يختار زهرة لعروة سترته ويذهب للقاء عشيقته فى هذا البيت أو ذاك ، ويجد سحراً جديداً فى الصحبة التى كانت تضجره ويعاملهم بكل لطف بسبب وجود هـذه المعشـوقة الجـديدة ...

* * *

ولكن فى حين كانت كل علاقة غرامية أو نزوة من هذا القبيل تحقيقاً متفاوت الاكتمال لحلم تولد عن رؤية وجه أو خد مليح وجـده سوان فاتناً بصورة تلقائية ، من غير جهد من جانبـه ، إلا أن الأمر كان مختلفاً تمـاماً عندما قدمه أحد أصدقائه فى المسرح ذات يوم إلى أوديت دى كريسى . وكان هذا الصديق قد حدثه قبل ذلك عنها على أنها مخلوقة ساحرة يمكنه أن يصل إلى تفاهم معها (أى أن عفتها

موضع مساومة) ولكنه تعمد أن يوهمه بأن اقتناص رضاها أصعب مما هو فى الواقع ، كى يوقع فى روعه أنه أسدى إليه جميلا ذا قيمـة بتقديمه إليها . وقد كان وقعها من نفس سوان بالقطع لا على أنهـا عاطلة من الجمال ، بل لأن جمالها ذو طابع خاص لا يبالى هو به ، ولا يثير شهوته ، بل إنه فى الواقع أثار فيه نفوراً جسدياً . فهى من ذلك النوع من النساء الذى يستطيع كل واحد أن يذكر واحدة مثلها أو أكثر على نقيض ما تشتهيه حواسنا . فالشكل الجانبى لوجهها حاد وبشرتها مفرطة الرقة ، وعظمتا خديها بارزتان أكثر مما يجب ، وتقاطيعها مشدودة بحيث لا يمكن أن تروقه . وكانت عيناها بديعتين إلا أنهما واسعتان جداً حتى كأنهما تنحنيان إلى أسفل لفرط ثقلهما ، وتشدان كل ملامحها ، بحيث تبدو دائماً عليلة أو منحرفة المزاج . وبعد فترة من هذا التعارف فى المسرح كتبت إلى سوان تسأله أفى وسعها أن تشاهد مجموعاته الفنية ، التى تحس أنها ستثير اهتمامها جداً ، قائلة : « فأنا امرأة جاهلة ولكن ذوقى يميل إلى الأشياء الجميلة » . وذاكرة له أنها ستعرفه بصورة أفضل عندما تراه فى بيته حيث تتخيله « على سجيته بين شايه وكتبه » وإن لم تخف عنه دهشتها لإقامته فى هذا الحى من المدينة ، فلابد أنه حى كئيب « لا يليق بأناقة رجل فى مثل وجاهته المفرطة » : ولما سمح لها بالحضور قالت له عند انصرافها : كم هى آسفة لأنها مكثت هذه البرهة القصيرة فى بيت سرّها جداً أن تدخله ، وأشعرته أنه يعنى لديها أكثر مما يعنيه سائر من تعرفهم من

الناس ، وكأنما تريد ربط حياتيهما برباط رومانسى جعله يبتسم . ولكن سوان كان يقترب فى ذلك الحين من مرحلة انقشاع الأحلام ، التى يكتفى فيها الرجل بأن يحب من غير أن يتوقع الكثير فى مقابل هذا ، ولا يعود ارتباط القلوب — كما كان فى مرحلة الشباب الباكر — الهدف الذى يرمى إليه الحب بالضرورة . بل لعل شدة توافق الأفكار قد يكون علة الحب إن حدث هذا التوافق الفكرى أولا . فالرجل فى عهد شبابه يحلم بامتلاك قلب المرأة التى يحبها ، ولكنه فيما بعد قد يكفيه الإحساس أنه يمتلك قلب امرأة ما كى يقع فى هواها . وهكذا فى سن قد يبدو فيها — ما دام المرء ينشد فى الحب قبل كل شىء آخر اللذة الذاتية — أن تذوقه للجمال الأنثوى لابد أن يقوم بالدور الأكبر فى تولد الحب ، قد نجد الحب الجسدى الجارف ينشأ بدون أى أساس من الاشتهاء . وفى هذا الوقت يكون الرجل قد أدمته سهام الحب أكثر من مرة ، فلا يعود الحب ينشأ من تلقاء نفسه إطاعة لقوانينه القدرية المحتومة غير المفهومة فى حين يظل قلبه المبهوت سلبياً . بل يخف الرجل لمعونة الحب ، فيزيفه بالتذكر والإيحاء ، ومتى تعرف على عرض من أعراضه تذكر بقية الأعراض واستدعاها . وفى هذه الحالة ما دمنا نحفظ ترنيمته محفورة فى قلوبنا بنصها الكامل ، فلا حاجة بأى امرأة للتفوه بمطلعها ، بل يكفى أن يلهمنا إياه إعجابنا بجمالها كى نتذكر سائر الترنيمة . وحتى إن هى بدأتها من منتصفها

سهل علينا المضى معها فيها إلى نهايتها ، بدون تردد ، مع أول نبرة أو أول توقف فى صوتها وهى تنشدها .

وجاءت أوديت دى كريسى مرات أخرى لزيارة سوان ، وتواترت زياراتها ، وما من شك أن كل زيارة جددت لديه شعوره بخيبة الأمل عند رؤية الوجه الذى كاد ينسى تفصيلاته فيما بين زيارة وأخرى ، ولا يذكر منها إلا شدة تعبيرها أو شدة ذبولها رغم صباها . وكان يأسف وهى تحدثه لأن جمالها العظيم فعلا ليس من النوع الذى يعجب به تلقائياً . وينبغى أن نلاحظ أن وجه أوديت كان يبدو أنحف وأشد بروزاً من حقيقته ، لأن جبينها والقسم العلوى من خديها ، سطح واحد منبسط ، مغطى بالشعر على طريقة نساء تلك الحقبة ، والشعر مشدود إلى الأمام ، ومرفوع بعد ذلك فى تموجات مجعدة تتساقط فى خصلات فوق أذنيها . أما قدها — وهو بديع التكوين — فمن الصعب اكتشاف خطوطه بسبب المشد الذى تلبسه كعادة معاصراتها ، وإن كانت من أنق النساء ملبساً فى باريس . ويتسبب المشد فى دفع ثيابها فى تقوس كأنما لها معدة بارزة ، ومن تحت ذلك أذيالها المضاعفة . فزى النساء فى ذلك العام يجعلهن يبدين كما لو كن مركبات من قطاعات سيئة التناسق : بالإضافة إلى تعقيدات فى التفصيل والأنشوطات والأهداب ، فى بهرجة وفى استقلال تام عن البنية الجسمية الحية التى تغدو إما مختنقة أو دفينة تحت هذه الملابس المعقدة .

ولكن بعد أن تغادره أوديت ، يفكر سوان باسماً فى قولها له كيف ستستطيل الوقت إلى أن يسمح لها بالعودة . ويتذكر اللهفة والخجل اللذين اقترنا ذات مرة بتوسلها إليه ألا تطول هذه الفترة : وكيف نظرت إليه عندئذ ، وقد ثبتت عليه نظرتها المخيفة المتوسلة من تحت أزهار البنسيه الصناعية المثبتة فى مقدمة قلنسوتها المستديرة المصنوعة من القش الأبيض ، والمربوطة بسيور من القطيفة السوداء . ثم أردفت هذه النظرة بقولها :

ــ أفلا تأتى أنت ذات مرة لتناول الشاى معى ؟

واعتذر متذرعاً بضغط العمل ، لإنجاز رسالة أو مقال ــ كان فى الواقع قد تخلى عنه منذ سنوات ــ عن فرمير Vermeer . فأجابته قائلة :

ــ أنا أعرف أنى عديمة الفائدة . وكالحيوان الوحشى إلى جانب رجل عظيم عالم مثلك . فكأننى ضفدعة الأسطورة ! ولكنى أتمنى لو تعلمت منك أشياء كثيرة . فما أظرف أن أتحول إلى دودة كتب ، وأدفن أنفى فى كومة من الأوراق القديمة . ولكنك ستضحك منى لأن هذا الرسام الذى يمنعك من زيارتى (تعنى فرمير) لم أسمع أنا به من قبل . ألم يزل على قيد الحياة ؟ أيمكننى أن أرى شيئاً من لوحاته فى باريس ، كى يتسنى لى على الأقل أن أقول : « ها هو ما يفكر فيه » فما أعزه من حلم على نفسى أن أتمكن من مساعدتك فى عملك :

وقد نشد عذراً أو ذريعة لخوفه من إنشاء صداقة جديدة ، وقد

وصف هذا العذر بأنه الخوف من عاطفة بلا أمل :: وقالت له بصورة طبيعية جداً وباقتناع تام تأثر بهما تأثراً حقيقياً :

ــ أتخشى الوقوع فى الحب ؟ ما أدعى هذا للضحك ، فى حين أننى لا همّ لى إلا البحث عن الحب . ومستعدة أن أهب روحى فى سبيل العثور على شىء من الحب فى أى مكان ! ولا بد أن امرأة ما قد سببت لك العناء والعذاب ، فحسبت أن سائر النساء مثلها . لا بد أنها عجزت عن فهمك . ولا عجب ! فأنت شديد الاختلاف عن الرجال العاديين . وهذا ما أحببته فيك عندما رأيتك أول مرة : فقد أحسست على الفور أنك لست مثل أى شخص آخر :

وواصل هو كلامه قائلا :

ــ ثم هناك ما يشغلك شخصياً . فأنا أعرف طبائع النساء ، ولا بد أن لديك كومة هائلة من المشاغل . لا تدع لك وقت فراغ :

ــ أنا ؟ بل ليس عندى أى شىء يشغلنى : فوقتى دائماً بلا شواغل ، وأنا دائماً غير مشغولة وسأكون دائماً رهن إشارتك إن أردتنى . وفى أى ساعة من الليل أو النهار يروقك ويلائمك أن ترانى ، ابعث إلىّ ، وسأكون سعيدة جداً بالقدوم إليك . أتراك تصنع هذا ؟ أتعرف ماذا أتمنى أن أصنع أنا ؟ أن أقدمك إلى مدام فرديران ، حيث أذهب كل مساء . وتصور فرحى إذ أجدك هناك، وأنك إنما ذهبت لأجلى :

ولا شك فى أنه إذ يتذكر أحاديثهما على هذه الصورة ،

وإذ يفكر فيها وهو وحده ، فهو إنما يستدعى صورتها فى عداد من لا يحصين من النساء فى أحلامه الرومانسية . ولكن إن حدث ظرف عرضى (أو حتى بدون ذلك ، فإن الظرف الذى يطرأ عندما تطفو حالة نفسية كامنة إلى السطح لا تأثير له إطلاقاً على تلك الحالة) فإن صورة أوديت دى كريسى تستوعب كل أحلامه : ولئن لم يتسن إبعاد ذكراها من هذه الأحلام ، فعيوبها الجسدية لن تكون لها أدنى أهمية . ولا ملاءمة جسدها أو عدم ملاءمته لذوقه ، لأنه غدا جسم من أحبها ، وبالتالى يتعين أن يكون الجسد الوحيد الكفيل باتقاد سروره أو لهفته وكربه .

وقد اتفق أن جدى كان قد عرف أسرة آل فرديران ، ولكنه قد قطع تماماً كل صلة بمن كان يسميه « فرديران الشاب » لأنه رآه رغم احتفاظه بملايينه قد انزلق إلى حضيض حثالة البوهيميين . وذات يوم تلقى رسالة من سوان يسأله هل له أن يعرفه بآل فرديران . وكان تعليق جدى عندما قرأها :

– الحذر ! الحذر ! لا يدهشنى البتة هذا الطلب ! فسوان كان من المتوقع أن يتزلق إلى هذا المستوى . يا لهم من طغمة فاسدة ! لا يمكننى أن أجيب طلبه ، لأننى أولا لم أعد أعرف هذا السيد فرديران . وثانياً لأنه لا بد أن تكون فى المسألة امرأة ، وأنا لا أتدخل فى هذه الأمور . وسنرى العجب إذا بدأ سوان يجرى وراء آل فرديران الشباب .

ولما رفض جدى إجابة طلبه ، كانت أوديت نفسها هى التى أخذته إلى ذلك البيت . وكان على مائدة عشاء آل فرديران يوم ظهر هناك لأول مرة الدكتور كوتار وقرينته ، والموسيقى الشاب وعمته ، والرسام صاحب الحظوة ، ثم لحق بهؤلاء فى غضون الأمسية عدد آخر من « المخلصين » .

ولم يكن الدكتور كوتار متأكداً قط من اللهجة التى ينبغى أن يرد بها على أى ملاحظة ، ولا يفهم هل المتحدث يمزح أم هو جاد ، ولذا يزين سحنته دائماً بابتسامة غامضة تبرئه من تهمة السذاجة فى جميع الأحوال إذا اتضح أن العبارة التى وجهت إليه كانت على سبيل المزاح . ولكن لما كان من المحتمل أن يواجه أيضاً الأحاديث الجادة ، لذا لم يكن يسمح أبداً لابتسامته أن يكون لها معنى محدد ، وكأنه يسألك دائماً « أتعنى ما تقول حقاً ؟ » . ولم يكن سلوكه فى الطريق العام يختلف عن سلوكه فى الصالونات ، لذا كان يشاهد فى الشوارع يحيى المارة والعربات وكل ما يصادفه بابتسامة ماكرة .

ولكن حينما لاح له أن من الجائز توجيه سؤال عن موضوع يجهله ، كان لا يتردد فى تثقيف نفسه وإتمام تربيته عن هذا الطريق ، وهكذا كان – طوعاً لنصيحة أمه عندما جاء إلى باريس للمرة الأولى من الريف – لا يترك كناية أو اسم علم جديد على مسامعه ، إلا ويستقصى عنه غاية الاستقصاء .

وفيما يتعلق بالكنايات والاستعارات كان ظمأه لا ينطفئ للمعرفة ،

لأنه غالباً يتوهم أن لها معان أشد تحديداً مما لها فى الواقع ، فيسأل عن المقصود بالضبط من « حياة القط والفأر » أو « ملكة الموضة » أو « إطلاق اليدين » أو « الوقوع فى مأزق » وما إلى ذلك ، وعن أى المناسبات بالضبط يجوز له استخدامها فى الحديث . وكذلك كان يكثر من ترصيع كلامه بالتلاعب بالألفاظ والتوريات التى تعلمها ، لا لشىء إلا لكى يكررها لنفسه . وأما أسماء الأشخاص الجديدة عليه فيسأل عنها بغير إلحاح ، ليعرف شيئاً عنهم . وملكته النقدية المميزة لظلال المعانى والمقاصد خامدة ، لذا كان يأخذ كلام الناس على ظاهره الحرفى ولايفهم مراميه البعيدة . ومع تعامى مدام فرديران عن عيوبه هذه ، إلا أنها كانت تضيق بها . وإن ظلت تظن به البراعة التامة . ومن أمثلة ضيقها به أنها دعته ذات مرة ليشاهد ويسمع ساره برنار Sarah Bernardt من لوج لصيق بخشبة المسرح وقالت له بتهذيب ومجاملة (لأن هذا النوع هو أرق الألواج) :

— إنه لكرم منك أن تأتى يا دكتور ، ولا سيما أنى متأكدة من أنك لا بد قد سمعت ساره برنار مراراً ، ثم إنى أخشى أن يكون اللوج شديد القرب من خشبة المسرح .

فإذا بالدكتور يقول بابتسامته الغامضة التى يقصد بها أن تكون حصيفة :

— طبعاً اللوج قريب أكثر مما ينبغى من المسرح ، ثم إن المرء سئم سماع ساره برنار . ولكنك أبديت الرغبة فى حضورى ، ورغبتك

أمر . وإنه ليسرنى أن أؤدى لك هذه الخدمة الهينة ؛ فأنت آية فى الطيبة . (وبعد لحظة صمت) ساره برنار ؟ أليسوا يسمونها « صوت الله » ؟ وإنها أحياناً « تشعل النار فى خشبة المسرح » : أليس هذا تعبيراً غريباً ؟ لماذا بالله « تقترف » هذا العمل ؟

قال ذلك بلهجة من يطلب تفسيراً لمعناه . ولكن مدام فرديران شغلها الغيظ عن الرد .

وبعد ذلك قالت مدام فرديران لزوجها :

— لا شك أننا نخطئ حين نحط من قدر شىء جليل على سبيل المجاملة أمام كوتار : فهو عالم يعيش بعيداً عن حياتنا اليومية ، ويجهل القيمة الحقيقية لأى شىء ، ويصدق كل ما يسمعه حرفياً .

وأجابها مسيو فرديران :

— أنا لم أجسر قط على الإشارة إلى هذا . وإن كنت لاحظته عليه .

وفى يوم رأس السنة التالى ، بدلا من أن ترسل إلى الدكتور كوتار ياقوتة ثمنها ثلاثة آلاف فرنك مع الزعم بأنها « شىء تافه » ، اشترى المسيو فرديران جوهرة مزيفة بثلاثمائة فرنك وتركه يعتقد أنها شىء يعز وجود نظير له . ولما أعلنت مدام فرديران أنهم سيرون المسيو سوان تلك الليلة ، صاح كوتار باسم سوان فى دهشة كدهشته لسماع أى اسم غريب . ولما وجد أنه لا أحد يعرفه بحقيقة هذا الاسم ، صاح بكل قلق :

ـ سوان ؟ من سوان هذا ؟

وسرعان ما ذهب قلقه عندما قالت له مدام فرديران :

ـ إنه صديق أوديت ، الذى حدثتنا عنه .

فقال الدكتور وقد هدأ روعه فى الحال : « هذا حسن إذن » .

أما الرسام فقد استطار فرحه لتوقع ظهور سوان فى بيت آل فرديران ، لأنه استنتج أنه عاشق لأوديت .. وهو مستعد للمساعدة على لقاء العاشقين . وهمس فى أذن الدكتور كوتار أنه ما من شىء أحب إليه من الجمع بين رأسين ، وأنه بارع فى هذا مع النساء خاصة .

وعندما أخبرت أوديت آل فرديران أن سوان شديد الأناقة أفزعتهما لأنهما ظناه سمجاً مثل بقية المتأنقين . ولكن عندما جاء فعلا كان وقعه ممتازاً ، وكان السبب غير المباشر فى هذا ـ وإن لم يدركاه ـ هو اختلاطه بأرقى المجتمعات . فالإشارات والإيماءات البسيطة التى تبدر من رجل المجتمع عندما يمد يده إلى الشاب المجهول الذى يقدمونه له ، وعندما ينحنى أمام السفير الذى يقدمونه إليه ، صارت طبيعة فيه من غير أن يشعر . بحيث إنه عندما يكون فى صحبة طبقة اجتماعية أقل منه مثل آل فرديران وأصدقائهما يكون متفتح النفس متبسطاً بصورة لا يتصف بها أحد من أهل الغطرسة والأناقة السمجة . وإن كان قد تجمد لحظة واحدة لا أكثر عندما وقعت عينه على كوتار ، إذ رآه يغمض إحدى عينيه ويبتسم ابتسامته الغامضة قبل

أن يتبادلا الحديث . فقد خطر لسوان أن كوتار عرف من هو أو كان قد قابله من قبل فى مكان ما ، وربما أيضاً فى أحد البيوت « السيئة السمعة » ، وإن كان سوان لا يرتادها إلا فى القليل النادر ، لأنه لا يسيغ عادة ذلك « الحب التجارى » . ورأى فى ذلك التعريض الصامت فساد ذوق ولا سيما أمام أوديت ، التى قد يتغير رأيها فيه نحو الأسوأ ، ولذا تقمص سوان معه عندئذ أشد ما يستطيعه من البرود . ولكنه بعد أن عرف أن السيدة التى بجوار الدكتور هى مدام كوتار أدرك أن مثل هذا الزوج الشاب لا يمكن أن يتعمد فى حضور زوجته وعلى مسمع منها أن يشير إلى تلك المباذل الرخيصة .

أما الرسام فدعا سوان على الفور لزيارة مرسمه مع أوديت ، ووجده سوان لطيفاً جداً . وعندئذ قالت مدام فرديران لسوان :

ـ لعلك فى هذه الزيارة تحظى برؤية صورة كوتار . (وكانت هى التى كلفت الرسام برسمها على نفقتها قائلة للرسام : « وخذ حذرك يا أستاذ بيش Biche . فأنا يهمنى جداً أن تبرز ابتسامة الدكتور الفريدة . فما أطلبه أساساً هو صورة ابتسامته ! ») .

ولما كانت تعتقد أن عبارتها هذه جديرة بالاهتمام فقد حرصت على تكرارها ، وجمعت بحيلة بارعة حولها حلقة الحاضرين قبل أن تكررها . وطلب سوان أن يقدم إلى كل الحاضرين ، حتى ذلك الصديق القديم لآل فرديران المسمى « سانيت » Saniette ، الذى حرمه خجله وطيبته من كل تقدير يليق ببراعته فى دراسة النقوش

القديمة ، ويليق بثرائه العريض والأسرة الممتازة التى ينتمى إليها . وعندما كان يتكلم كانت الألفاظ تخرج من فمه مختلطة اختلاطاً لطيفاً لأنه يعبر عن مرحلة أقرب للطفولة التى لم تتجاوزها نفسه البريئة قط : فشفتاه عاجزتان عن نطق كل الحروف الساكنة على وجهها الصحيح. وعندما طلب سوان أن يقدموه إلى سانيت إذا بالمسيو فرديران يعكس الأوضاع ويقول ضاغطاً على الحروف :

ـ يا مسيو سوان . اسمح لى أن أقدم لك صديقنا سانيت .

ومع هذا شعر سانيت لطلب سوان التعرف إليه بشيء كثير من الغبطة والعرفان ، وإن لم ينقل آل فرديران هذا الشعور إلى سوان ، لأن سانيت يضايقهما بوجوده ، ولم يكونا مبالين لإمداده بالأصدقاء الجدد . ومن جهة أخرى طلب سوان وألح فى وجوب التعرف بعمة عازف البيانو ... وكانت ترتدى ثوباً أسود ، كعادتها دائماً ، لأنها تعتقد أن المرأة تبدو دائماً على أحسن وجه فى اللون الأسود ، وأنه لا لون أرق وآنق من السواد . ولكن وجهها كان بالغ الحمرة ، كعادته أيضاً بعد تناول الطعام . وانحنت لسوان بكل إجلال ، إلا أنها لم تلبث أن شدت قامتها بأنفة مبالغ فيها ! ولما كانت غير متعلمة على الإطلاق ، وتخشى أن ترتكب أخطاء فى النحو والنطق ، لذا كانت تتعمد أن تتكلم دائماً بهمهمة مشوشة ، كى لا يتبين أحد عثرات لغتها ، وبذلك كان حديثها همهمة أشبه بالحشرجة والتنحنح ، التى قد تبرز من بينها المقاطع التى تظنها « مضمونة الصواب » . وظن

سوان أن بوسعه التندر بطريقة كلامها مع المسيو فرديران ، الذى لم يبد عليه السرور بذلك ، وقال لسوان :

ـ إنها امرأة ممتازة . وأنا أوافقك أنها ليست حادة الذكاء ، ولكنى أؤكد لك أنها تستطيع أن تتحدث حديثاً جذاباً جداً عندما تنفرد بها .

فأسرع سوان يصلح ما بدر منه قائلا :

ـ أنا واثق بقدرتها هذه ، وكل ما عنيته أنها لم تترك فى نفسى الانطباع برقيها .

ـ على رسلك ! سيدهشك أن تعرف أنها بارعة فى الكتابة . ثم ألم تسمع قط ابن أخيها وهو يعزف ؟ إن عزفه بديع ، أليس كذلك يا دكتور ؟ أتحب أن أطلب منه أن يعزف لنا شيئاً يا مسيو سوان ؟

وشرع سوان يقول بشيء من الطنطنة :

ـ سأعد نفسى فى قمة السعادة وحسن الطالع !

وإذا بالدكتور يقاطعه ساخراً ، لأنه كان قد سمع ذات مرة ولم ينس قط بعد ذلك أن استخدام التراكيب والعبارات الرسمية فى المحادثات العامة قد انتهى زمنه . فكان كلما سمع كلمة رنانة تستخدم بكل جد ، مثل كلمة « حسن الطالع » التى استخدمها سوان الآن ، اعتقد أن المتحدث يتعمد الحذلقة ، أو ربما ظن الموضوع كله هزلا ومزاحاً ، وشرع على الفور يكمل هذا التعبير بجملة من الجمل

المحفوظة على سبيل السخرية ، وهكذا قاطع سوان رافعاً ذراعيه إلى أعلى :

– من حسن الطالع لفرنسا !

فلم يتمالك مسيو فرديران نفسه من الضحك .

فصاحت مدام فرديران فى تذكر الطفلة المدللة :

– ما الذى يضحك الأصدقاء الطيبين فى هذا الركن هناك ؟ لا أحسبكم سعداء بأن أظل منعزلة فى وجوم فى مقعدى هذا كالمذنبة !

وكانت مدام فرديران جالسة فوق مقعد سويدى عال من خشب الصنوبر اللامع ، كان قد أهداه إليها عازف بيانو من أهل تلك البلاد ، واحتفظت به فى حجرة استقبالها ، مع أنه نشاز بشكله المدرسى بين الأثاث العتيق الجيد الذى فى الحجرة ، إلا أنها كانت حريصة على إبراز هدايا « المخلصين » الذين كان من عادتهم أن يقدموها إليها بين الحين والحين ، حتى يراها هؤلاء الواهبون إذا ما أتوا إلى الدار . وكم حاولت إقناعهم بأن تكون هباتهم وهداياهم على شكل أزهار وحلوى ، فهى أشياء تتمتع بمزية سرعة الفناء على الأقل ! إلا أنها لم تنجح قط فى هذا ، وهكذا امتلأ البيت بالتدويج بمجموعة من دفايات الأقدام والوسائد وساعات الحائط والبارومترات والزهريات . وهى كلها عديمة الجدوى وغير قابلة للفناء .

ومن هذا المكان العالى الذى تجثم فوقه تشترك فى أحاديث « المخلصين » أو « الخلصاء » وتستمتع غاية المتعة بمزاحهم . ولكن

منذ حادثة التواء فكها ، كفت عن بذل مجهود القهقهة الشديدة واكتفت بالحركات الوجهية الصامتة التى توحى بأنها « تضحك حتى البكاء » . وعند أى سخرية لاذعة موجهة من أى عضو فى المجموعة إلى « المضجرين » أو ضد عضو سابق أحيل إلى قائمة المضجرين والمتكلفين ... وعندئذ تطلق مدام فرديران صيحة ثاقبة وتغلق عينيها الصغيرتين اللتين تشبهان عينى طائر ، واللتين بدأت تغشاهما آفة (الكتاراكتا) المياه البيضاء ، ثم تدفن وجهها بين يديها كمن تتحاشى النظر إلى شىء غير محتشم أو تتجنب ضربة قاضية ، فلا تعود ترى شيئاً على الإطلاق ، وتبدو كمن تمحو آثار ضحكة لو تركتها على سجيتها لقضت عليها . وهكذا من مجتمعها العالى تستطيب مدام فرديران – وكأنها عصفور مدلل فى قفص – ما يتناثر من نكات الخلصاء ، وتنتحب تلذذاً بشعور الصحبة الطيبة وأنسها .

وفى هذه الأثناء كان مسيو فرديران – بعد أن استأذن مسيو سوان فى إشعال غليونه (« فلا تكليف هنا ، وإنما نحن جميعاً رفاق كما تعلم ! ») – قد ذهب ليرجو الموسيقى الشاب فى الجلوس إلى البيانو . فصاحت مدام فرديران :

– دعه وشأنه . لا تزعجه . فهو لم يأت لكى نعذبه . ولن أسمح بتعذيبه !

فرد عليها المسيو فرديران :



ـ ولكن لماذا يعذبه العزف ؟ أنا واثق بأن المسيو سوان لم يسمع قط السوناتا التى اكتشفها . وسيعزف لنا جزءاً منها بالبيانوفورت .

فصاحت :

ـ لا . لا . لا . إلا سوناتتى ! فأنا لا أريد أن أبكى إلى أن أصاب ببرد فى الرأس ، وبالألم العصبى (النيورالجيا) فى كل وجهى ، كالمرة الماضية . ألف شكر ، فلست أنوى أن أكرر ما حدث لى : وكلكم طبيبون رقيقون ، ولكن ما من أحد منكم سيضطر لملازمة الفراش أسبوعاً .

وكان هذا « المشهد » الصغير ، الذى يتكرر تمثيله فى كل مرة يجلس فيها الموسيقى الشاب للعزف ، يمتع دائماً جمع الحاضرين ، كأنما كل واحد منه يراه لأول مرة ، ويرى فيه آية على أصالة ربة الدار وشدة حساسية « أذنها » الموسيقية . وينبه القريبون من مجثمها البعيدين عنه والمنهمكين فى التدخين أو لعب الورق فى الطرف الآخر للقاعة ، بصياحهم وهتافهم ، كأنهم أعضاء برلمان سمعوا شيئاً يستحق الإعجاب ، وفى اليوم التالى يرثون لحال من فاتهم مشاهدة هذا « المشهد » ، مؤكدين لهم أن « المشهد الصغير » لم يؤد من قبل بمثل هذه البراعة والإمتاع .

ويقول مسيو فرديران :

ـ وهو كذلك إذن . فى وسعه أن يعزف «الأندانت» فحسب !

فصاحت زوجته :

ـ الأندانت فحسب ! ما أعجب قولك ! كأنما هذه « الأندانت فحسب » ليست هى التى تحطم كل عظمة من عظامى . إن « الأستاذ » فذ فى عزفه ، أياً كان ما يعزفه . وما أشبه قولك يا عزيزى الأندانت فحسب ، بمن يقول عند ذكر السمفونية التاسعة : « إنما نريد الخاتمة فحسب ! » أو « الافتتاحية فحسب ! » عند ذكر « ما يستر سنجر » .

وتدخل الدكتور فرجا مدام فرديران أن تسمح بعزف البيانو ، لا لأنه يحسبها تتمارض ، عند ذكر العواقب الوخيمة التى تحدثها الموسيقى لديها دائماً ، فالواقع أنه يعرف أنها مصابة بحالات هستيرية ، بل لأنه جرياً على عادة الأطباء يرى تخفيف الخطر عن المريض فى سبيل إنقاذ الاجتماع الساهر . وقال لها وهو يحاول السيطرة على أعصابها بنظراته المغناطيسية :

ـ لن تمرضى هذه المرة . تأكدى من هذا . وإن مرضت سنعتنى بك ونشفيك !

فقالت مدام فرديران بنبرة من خصها الطب بحظوة خاصة فلم يسعها إلا الإذعان :

ـ أستشفينى حقاً ؟

فقد اندمجت فى أداء « المشهد الصغير » حتى أحست بصدق أنها عليلة ، والعليلات يحببن أن يعتقدن أحياناً أنهن يستطعن عمل كل شىء ممتع لهن ، حتى ولو تعرض لنوبات العلة بعد ذلك ، بشرط

أن يضعن أنفسهن بين يدى « سلطة عليا » تستطيع وتريد بكلمة واحدة أو بابتلاع حبة دواء أن تقيمهن من فراش المرض .

وكانت أوديت قد ذهبت فجلست على أريكة فوقها طنافس مطرزة قرب البيانو ، قائلة لمدام فرديران :

ـ ها أنا أحتل ركنى الصغير الخاص . أليس كذلك ؟

وأبصرت مدام فرديران مسيو سوان يجلس بمفرده على كرسى ، فاستنهضته قائلة :

ـ أنت لست مستريحاً تماماً هناك . اذهب واجلس بجوار أوديت . أفسحى له يا أوديت .

ووقف سوان يتأمل تطريز الأريكة قبل أن يجلس عليها ، مجاملة لربة الدار :

ـ ما أجمل هذه « البوفيه » iBvaeaus :

فأجابته مدام فرديران :

ـ يسعدنى أن تقدر أريكتى . وأنذرك بأنك إن حاولت رؤية مثيلة لها أن تنزع هذه المحاولة من رأسك . فما عادوا يصنعون مثلها الآن . وهذه الكراسى الصغيرة تحف نادرة هى الأخرى . ولو نظرت إلى الرموز المتمثلة فى النقوش النحاسية لوجدت كل رمز منها يشير إلى موضوع التطريز الذى يكسو المقعد . وهكذا يجمع المرء بين متعة الثقافة الفنية عند النظر إليها قبل الجلوس عليها . والنظر إلى تصميم الحوافى وما عليها من رسوم ملونة : وإلى شجرة الكرم فوق هذه



ووقف سوان يتأمل تطريز الأريكة قبل أن يجلس عليها ، مجاملة لربة الدار .

الأرضية الحمراء مثلا . أفلا تشعر بأن لعابك يجرى وأنت ترى هذه الكومة ؟ إن زوجى يظن أنى غير مغرمة بالفواكه ، لأنى آكل منها أقل مما يأكل هو ، ولكن هذا غير صحيح إطلاقاً ، بل أنا أشد نهماً إليها من أى واحد منكم ، ولكن لا حاجة بى لملء فمى بها ما دمت أستطيع أن آكل منها بعينى حتى أشبع ! ما الذى يضحكون منه الآن جميعاً؟ اسألوا الدكتور يقل لكم إن هذا العنب يقوم عندى بدور الملين الشديد الفاعلية . وبعض الناس يذهبون إلى فنتنبلو Fontainebleau للاستشفاء ، أما أنا فأستعمل تطريز « بوفيه » للاستشفاء ها هنا ! وعلى فكرة يا مسيو سوان ، ينبغى أن تتلمس النقوش المصبوبة من النحاس على ظهور الكراسى . أليس ملمسها بديعاً ؟ لا . لا . ليس براحة يدك كلها . بل تتلمسها كما ينبغى ! بأطراف الأنامل !

فقال الرسام :

ــ إن شرعت مدام فردبران فى الانشغال بنقوشها البرنزية ، فلن نحظى فى ليلتنا بأى موسيقى !

فاستطردت :

ــ صمتاً أيها التعس ! ولا تنس أننا نحن النساء محرومات من ملذات كثيرة أخرى . ولكن ما من لحم بشرى أشد ملامسة من هذه اللوحات المعدنية . وعندما شرفنى المسيو فردبران بغيرته الجنونية .. اسكت يا زوجى وكن مؤدباً على الأقل وتنكر أنك لم تشعر قط بالغيرة !

ــ ولكنى يا عزيزتى لم أفتح فمى . أنا أستشهد بك يا دكتور : هل تفوهت بشىء ؟

وكان سوان ــ بدافع المجاملة المهذبة ــ قد بدأ يتلمس بأنامله ذلك البرنز ، فقالت له :

ــ هيا الآن . داعبه فيما بعد . أما الآن فسوف تداعب أذنيك الأنغام . وستحب هذا . وهاله السيد الشاب الذى سيقوم بهذه المهمة السامية .

وبعد أن قام الموسيقى الشاب بالعزف ، شعر سوان وأظهر مزيداً من الاهتمام به أكثر من اهتمامه بسائر الحاضرين ، للسبب التالى :

ففى السنة الماضية ، أثناء حفلة ساهرة ، كان قد سمع مقطوعة موسيقية معزوفة على البيانو والفيولينة . وفى البداية قدر مادة الأصوات الصادرة عن هاتين الآلتين فحسب ، فقد كانت مصدر متعة فائقة له ، ولا سيما حينما أخذت أنغام الفيولينة الرقيقة تتصاعد فإذا به يحس من تحتها فجأة بأنغام البيانو المتناغمة المتعددة الألوان ، كأنها جيشان البحر الأزرق العميق الذى يرقشه ضوء القمر ... ثم فجأة ، من غير أن يدرى كيف حدث هذا ، فاحت الأنغام بعبير الورد الذى عطر هواء المساء الندى ، حتى فغم الخياشيم . ولعل جهله بالموسيقى هو الذى جعله يتلقى هذا الانطباع التصويرى الغامض . وهو انطباع شفاف لا مادى ...

وهكذا ما كادت تخفت الأنغام وتتلاشى حتى كانت ذاكرته

قد وعت تأثيراتها الخلوية ، التى ترامت أمام عينيه وأحس أبعادها
ورهافتها التى لم يكن يحلم بها قبل سماع هذه الأنغام . ولن تتخذ لديه
هذه المتعة إلا عن طريقها ، فتثير لديه هذه الرغبة وتلك الأشواق
الغريبة . وأحس كأنه رجل جلبت امرأة عابرة فى لمح البصر إلى
حياته صورة جديدة من الجمال ، ضاعفت ووسعت قوة إدراكه
للجمال ، من غير أن يعرف هل سيتاح له أن يرى هذه الساحرة مرة
أخرى أم لا ، ولكنه يعلم أنه عشقها بكل جوارحه ، وإن كان
لا يعرف عنها شيئاً ، حتى ولا اسمها .

وظل شغف سوان بهذه المقطوعة الموسيقية على مدى عدة
شهور يبث فى حياته إمكان تجدد شبابه . ومنذ ذلك الحين كف عن
توجيه مساره إلى أى هدف مثالى، واكتفى بالاستمتاع العابر السطحى ،
معتقداً أنه سيظل على هذا الحال إلى أن يموت ، من غير أن يتسنى
لأى شىء أن يغير منه . بل إنه منذ كف عقله عن الانشغال بمثل
عليا ، لم يعد يؤمن (وإن لم يصرح بذلك علناً) بوجودها . وتعود
أن يجد ملاذه فى الخواطر السطحية التافهة ، التى أتاحت له أن ينمى
جانباً الأمور ذات الأهمية الجوهرية . وكما كف عن سؤال نفسه
أليس خيراً له أن ينقطع عن غشيان المجتمع ، مدركاً أنه ما دام قد
قبل دعوة ما فلابد له من تلبيتها، ثم عليه إن لم يقم بعد ذلك بالزيارة ،
أن يترك على الأقل بطاقته لربة الدار ، كذلك حرص فى أحاديثه
ألا يعبر عن أى رأى شخصى بحرارة فى صدد أى شىء ، بل يكتفى

بدلا من هذا بالإدلاء بالحقائق والتفصيلات التى لها قيمة فى حد
ذاتها ، وتعفيه من الكشف عن مدى ما يعرفه ويراه من آراء . ولذا
كنت تجده دقيقاً فى الوصف التفصيلى لطبخة معينة ، كدقته فى
تحديد تاريخ ميلاد ووفاة رسام وعناوين أعماله . ولكنه فى بعض
الأحيان قد يمضى برغمه إلى حد التصريح بانتقاد لعمل فنى ، أو نقد
فهم شخص ما للحياة ، ولكنه فى هذه الحالة يغلف ألفاظه بالسخرية ،
وكأنه لا يؤيد شخصياً الرأى الذى يصرح به . ولكن ها هو تحت
تأثير تلك المعزوفة الموسيقية أشبه بالمريض الذى تغيرت حالته فجأة
وكأنه شفى من علته العضوية تلقائياً وبلا مقدمات ، وقرر أن يعيش
الحياة بنمط مختلف تماماً ، وكأنما انبثت فيه روح قضت على جدب
روحه ، فأحس من جديد رغبة جارفة فى تخصيص حياته لهدف
سام . إلا أنه لم يحاول قط أن يعرف من صاحب هذا العمل الذى
سمعه يعزف ذلك المساء، ولم يستطع الحصول على نسخة منه ، وكف
فى النهاية عن التقصى . والواقع أنه فى غضون الأيام القليلة التالية
لذلك الاستماع الأول المعجز قابل عدة أشخاص ممن كانوا معه فى
تلك السهرة وسألهم ، ولكن معظمهم كانوا إما وصلوا بعد انتهاء
العزف أو انصرفوا قبله . وكان بعضهم فى ذلك البيت أثناء العزف ،
إلا أنهم كانوا فى حجرات أخرى للحديث . ومن استمعوا للحن
لم يكن لديهم انطباع أوضح من الباقين . أما صاحبا الدار فكل
علمهما أن المعزوفة حديثة عهد بالنشر ، وأن الموسيقيين الذين

استأجراهم طلبوا السماح لهم بعزفها . ولما كانت هذه الفرقة تقوم الآن بجولة فى الأقاليم ، لذا لم يتمكن سوان من معرفة المزيد عن اللحن . ولسوان بالطبع أصدقاء كثيرون من المهتمين بالموسيقى ، إلا أنه برغم شدة انطباعه الشعورى بالصور التى أثارها فيه اللحن ، إلا أنه عجز عن الدندنة لهم بقطعة منه كى يعرفوه باسمه أو مؤلفه . وهكذا كف آخر الأمر عن التفكير فيه .

أما الليلة ، فى بيت مدام فرديران ، فما كاد الموسيقى الشاب يبدأ العزف ، حتى فطن سوان إلى أن معزوفته الفاتنة فى الطريق إليه ، من تحت غلائل الأنغام الأولى ، وتوشك أن تغمره بعبيرها السحرى الذى هام به حباً ، وكانت هى معزوفته الحبيبة فعلا ، بفتنتها المتفردة التى لا يمكن أن يكون لها بديل . فأحس سوان كما لو كان التقى فى قاعة استقبال صديق له بامرأة كان قد رآها من قبل وأعجب بها ذات مرة فى الطريق ، ويئس من رؤيته إياها مرة أخرى ... وانسابت الأنغام تغمر بعطرها أنف سوان وتطبع على محياه ابتسامتها . ولكنه الآن ـ على الأقل ـ يستطيع أن يسأل عن اسم هذه الحسناء المجهولة ، فقيل له إنها حركة « الأندانت » من سوناتة « فانتى » Vinteuil للبيانو والفيولينة . وهكذا اطمأن إلى أنه صار يعرف مستقرها ، وسيكون فى وسعه أن يسمعها مرة أخرى ، ويدرس فى داره لغتها ويدرك كنه سرها .

وهكذا عندما انتهى العازف من عزفه عبر سوان الحجرة وشكر بحرارة سرت جداً مدام فرديران ، التى سألت سوان :

ـ أليست ساحرة ؟ أليس فهمه لهذه السوناتة مدهشاً ؟ لا أظنك كنت تتوقع أن يتمكن البيانو وحده من أدائها بالكامل (بدون فيولينة) . وايم الله إن فيها كل شىء ما عدا البيانو ! إنى أقع ضحيتها فى كل مرة أسمعها . وإخالنى أصغى لأوركسترا . إلا أن هذا العزف أفضل فى الواقع من أداء الأوركسترا ، وأكمل منه .

وانحنى فوقها عازف البيانو الشاب وهو يجيب باسماً وضاغطاً على كل كلمة من كلماته كأنه ينطق بحكمة فريدة :

ـ أنت فى غاية الكرم من نحوى !

وبينما كانت مدام فرديران تقول لزوجها :

ـ إجر وأحضر له كوباً من عصير البرتقال ، فقد استحقه عن جدارة !

راح سوان يخبر أوديت كيف وقع فى غرام تلك الجملة الموسيقية المعينة . وعندما صاحت مضيفتها التى كانت على مسافة منها قائلة :

ـ يبدو لى أن « بعضهم » كان يقول أشياء لطيفة لك يا أوديت.

أجابتها :

ـ نعم . أشياء لطيفة جداً .

فوجد سوان بساطتها هذه رائعة . وعندئذ طلب بعض المعلومات عن « فانتى » هذا ، وماذا أبدع غير هذه المقطوعة ، وفى أى فترة

من حياته ألف هذه السوناتة . وأى معنى تمثله لديه هذه الجملة ؟ فذلك ما كان سوان يريد أن يعرفه .

ولكن ما من أحد من أولئك ممن زعموا أنهم معجبون بهذا الموسيقار (فعندما قال سوان : إن السوناتة بديعة فعلا ، صاحت مدام فرديران « أعتقد هذا ! بديعة فعلا ! ولكنك لا تجرؤ أن تقول إنك تجهل سوناتة فانتى . فليس من حقك ألا تعرفها ! » وقال الرسام : « آه . نعم ! إنها قطعة بديعة جداً . أليس كذلك ؟ فهى من النوع الذى لا يؤثر فى عامة الناس ولكنها بالغة الأثر فينا نحن الفنانين ! ») .. ما من أحد سأل نفسه تلك الأسئلة فيما يبدو ، لأنه ما من أحد منهم استطاع أن يجيب سوان عنها .

بل على أثر ملاحظة خاصة من سوان عن هذه الجملة الموسيقية المعينة علقت مدام فرديران بقولها :

ـ ما أغرب هذا ! أنا لم ألاحظها قط . فأنا لست ممن يحبون التدقيق فى تفصيلات الأشياء من خلال الميكرسكوب .. كلا ! نحن لا نعنى أنفسنا بالتدقيق الشديد فى هذا البيت . وقد تقول « ولم لا ؟» فأجيب إنها ليست عادتنا ، وهذا كل ما هناك .

قالت هذا ، بينما الدكتور كوتار يحدق فيها بإعجاب وهو فاغر الفم ، ويتعقب تنقلها بين عباراتها المسكوكة التى تريد بها الإبهار . فالدكتور وقرينته ـ كما هو شأن الأزواج ذوى المنبت المتواضع ـ حريصان على عدم إبداء رأى أو التظاهر بالإعجاب بمعزوفة يقول

كل منهما للآخر عندما ينفردان فى بيتهما إنهما لم يفهماها ، ولا يفهمان فن الأستاذ بيش بعامة . فهما مثل سائر السوقة ، ليس لديهما الحساسية المتفردة التى تقدر الأصالة الفنية ، سواء فى سوناتة « فانتى » أو لوحات بيش ، لأن هذه وتلك لا تمثل لديهما التناغم الواضح فى الموسيقى أو الجمال السطحى فى الرسم . فكان يخيل إليهما والموسيقى يعزف السوناتة أنه يضرب مفاتيح البيانو خبط عشواء بليل بحيث تخرج أنغام لا صلة فيما بينها أو بينها وبين الأشكال الموسيقية التى يعهدانها . كما يعتقدان أن الرسام بيش يلطخ اللوحة بالألوان حيثما اتفق . وإذا اتفق لهما أن تبينا فى إحدى لوحات بيش شكلا بشرياً ظنا الرسام جاهلا بتشريح أعضاء الجسم ، كتركيب الكتف مثلا ، أو أن شعر المرأة ليس فى العادة قرمزى اللون !

ومع هذا ، عندما تفرق « الخلصاء » بعيداً عن مرمى الأذن ، انتهز الدكتور كوتار هذه الفرصة ليقترب من مدام فرديران وهى تثنى بعبارة أخيرة على سوناتة « فانتى » ، وبلهجة من يلقى بنفسه فى الماء للسباحة على ملأ من الناس ، قال فى عزم :

ـ نعم ! الحقيقة أنه موسيقار من الطراز الأول .

ولم يستطع سوان أن يكتشف ما هو أكثر من أن آخر طبعة من سوناتة فانتى أثارت اهتماماً كبيراً بين أشد الموسيقيين تقدماً ، ولكنها لم تزل مجهولة لدى الجمهور العام . فقال سوان عندئذ ، وهو يفكر

فى معلم الموسيقى المسن بكمبراى الذى كان قد تولى تعليم أخوات جدتى :

ـ أنا أعرف شخصاً يسمى فانتى معرفة جيدة .

فصاحت مدام فرديران .

ـ لعله هو !

فانفجر سوان ضاحكاً وقال :

ـ أوه . كلا ! لو رأيته لحظة واحدة لما خطر لك ذلك : ولما سألته أهو المؤلف ؟

فقال الدكتور :

ـ إذن توجيه السؤال يجب أن تسبقه معرفة الحل ؟

فقال سوان مواصلا كلامه :

ـ ولكن من الجائز أن يكون بعض ذوى قرباه . وهو أيضاً مستبعد ، ولكن ما المانع أن يكون لعبقرى ابن عم أبله مسن . وإن كان الأمر هكذا فلن أحجم عن استعمال كل وسائل التعذيب إلى أن أجعله يقدمنى للرجل الذى ألف هذه السوناتة . ولو أن الحديث إلى هذا الأبله أول درجة من درجات العذاب لى شخصياً .

وألمح الرسام أن فانتى مريض فى هذه الأيام ، وأن الدكتور بوتان Potain يائس من حياته .

فصاحت مدام فرديران :

ـ ماذا ؟ ألم يزل أحد من الناس يستدعى بوتان لعيادته ؟

فتكلف الدكتور كوتار الابتسام وقال :

ـ آه يا مدام فرديران ! إنك تنسين أنك تتحدثين عن أحد زملائى ، بل ينبغى أن أقول عن أحد أساتذتى .

وكان الرسام قد سمع فى مكان ما أن فانتى مهدد بفقد عقله : وأصر على أن بعض بوادر هذا الاختلال تلوح فى بعض مواضع سوناتته . ولم يدهش سوان لسماع هذه الملاحظة ، ولكنه تحير ، لأن الموسيقى ليست كلغة الكتابة المترابطة منطقياً . ولذا ففى نظره يكون القول باضطراب فى الترابط الفكرى لسوناته أشبه بالقول بجنون كلب أو حصان . وإن لوحظت حالات جنون فى الكلاب والخيول :

وقالت مدام فرديران للدكتور كوتار بلهجة المرأة التى لديها شجاعة معتقداتها ، ومستعدة للوقوف فى وجه أى شخص يخالفها فى الرأى :

ـ لا تحدثنى عن أساتذتك . أنت تعرف عشرة أضعاف ما يعرفه ! وأنت على الأقل لا تقتل مرضاك !

فابتسم الدكتور بسخرية مرة :

ـ ولكنه عضو فى الأكاديمية يا سيدتى . وإذا فضل مريض أن يموت على يد أحد أمراء العلم ... فمن الوجاهة بمكان أن يقول : « نعم . بوتان يعالجنى » !

فقالت مدام فرديران :

ـ أدعى للوجاهة . هه ؟ هناك هذه الأيام إذن موضات فى

الأمراض ؟ لم أكن أعرف هذا . آه ! كم تضحكني ! (وأخفت وجهها بيديها) وها أنا كنت أتكلم بكل الجد ، ولم أفطن إلى أنك تغرر بى !

أما المسيو فرديران فوجد استئناف الضحك الآن عبثاً باهظاً بمناسبة شىء تافه كهذا ، فاكتفى بإطلاق حلقة من دخان غليونه ، وهو يفكر بأسى فى عجزه بعد الآن عن مجاراة زوجته فى مرحها .

* * *

وعندما كانت أوديت تلقى تحية المساء وهى منصرفة ، قالت لها مدام فرديران :

— لقد أحببنا صديقك كثيراً . فهو غير متكلف ، ولطيف جذاب . وإذا كان كل أصحابك الذين تريدين إحضارهم إلى هنا على شاكلته ، هاتيهم بأى شكل .

ولاحظ مسيو فرديران أن سوان فشل على كل حال فى تقدير عمة الموسيقى حق قدرها . فقالت مدام فرديران مدافعة عنه :

— أعتقد أنه أحس الغرابة والرهبة . فلا أظنك تتوقع أن يفطن إلى روح البيت لأول وهلة ، كما يفطن إليها كوتار مثلا ، الذى ينتمى لعشيرتنا الصغيرة منذ سنوات . إن المرة الأولى لا تحسب ، فهى مستوعبة فى مجرد النظر والاستكشاف . أحسبه يا أوديت أدرك أنه سينضم إلينا غداً فى شاتليه Chatelet . ولعل الأفضل أن تمرى عليه كى تحضريه معك .

— كلا ! إنه لا يريد منى هذا ؛

— ليكن ، كما تشائين . بشرط ألا يخذلنا فى آخر لحظة .

وما كان أعظم دهشة مدام فرديران من أنه لم يخذلهم قط ، بل كان ينضم إليهم حيثما كانوا ، فى مطاعم خارج باريس (وإن لم يذهبوا إلى هناك كثيراً فى البداية ، لأن الموسم لم يكن قد بدا بعد) وكثيراً ما انضم إليهم فى المسارح التى كانت مدام فرديران مغرمة بها .

وذات مساء بينما هم يتعشون فى البيت ، سمعها سوان تشكو من أنها غير حائزة لتصريح يعفيها من مشاق الانتظار على الأبواب ، والوقوف فى الزحام ، وقالت : إن مثل هذا التصريح لا شك مفيد لهم جداً فى ليالى الافتتاح ، وعروض الأوبرا ، وكم أسفت لعدم حيازتها لهذا التصريح فى يوم جنازة جمبيتا Gambetta . وكان سوان لا يتحدث أبداً عن أصدقائه المرموقين . ولكنه رغم ألفته وتردده على حى سان جيرمان (الذى يقطنه الملكيون) ، إلا أنه يعرف معرفة وثيقة كل كبار الرسميين فى الجمهورية الثالثة ، وهكذا اندفع قائلا بلا تفكير :

— سأتدبر هذه المسألة ، وأنا كفيل بها . وستحصلين على التصريح قبل احتفالات دانيشيف Danicheff . فسوف أتغدى مع مدير الشرطة غداً بالصدفة فى الإليزيه .

فزأر وهدر كوتار بصوت كالرعد :

— ماذا قلت ؟ الإليزيه ؟



فأجابه سوان ، مستشعراً بعض الحرج :

ـ نعم . لدى سيو جريفى Grévy .

وسأل الرسام الدكتور كوتار فى جد مصطنع .

ـ أمتعود أنت أن تنال منك الدهشة هكذا ؟

والقاعدة العامة ، أن الدكتور كوتار متى شرح له أحد ما أدهشه قال :

ـ طيب . الأمر على ما يرام إذن .

ثم لا تظهر عليه أقل شائبة من الانفعال . ولكن كلمات سوان الأخيرة هذه المرة بدلا من تهدئته كالعادة ، زادت حرارة دهشته على الفور إلى درجة الغليان ، لأنه اكتشف أن رجلا هو نفسه يتعشى معه على مائدة واحدة ، وليس له منصب رسمى ، ولا لقب من أى نوع ، من بين زوار رئيس الدولة . فسأل سوان فى غباء رجل شرطة معين لحراسة القصر حين يرى شخصاً غريباً يحضر ويطلب مقابلة رئيس الجمهورية ، ثم يكتشف حقيقة الزائر المخبول فيطمئنه إلى أنه سيرى الرئيس فوراً ، ويدله على الطريق إلى حجرة استقبال مستشفى شرطة القصر .

وقال له سوان :

ـ أنا أعرفه معرفة سطحية ، فلنا أصدقاء مشتركون (ولم يجرؤ على أن يقول له إن أحد هؤلاء الأصدقاء المشتركين هو أمير ويلز ، ولى عهد بريطانيا العظمى) ثم إن الرئيس شديد التوسع فى دعواته ،

وأؤكد لك أن مآدب غدائه ليست بهيجة إطلاقاً ، بل هى شديدة البساطة ، ولا يزيد الضيوف على المائدة عن ثمانية .

ومضى يتوسع فى التقليل من شأن اتصالاته وعلاقته برئيس الجمهورية ، فى ضوء بهر عينى كوتار . وتوهم كوتار ـ على عادته ـ أن أقوال سوان صادقة حرفياً ، فاعتقد أن دعوات المسيو جريفى لا يحرص عليها أو يسعى إليها أحد ، وأنها ترسل إلى كل من هب ودب . ومنذ تلك اللحظة لم يعد يدهش إذا سمع أن المسيو سوان أو أى أحد سواه « دائم التردد على الإليزيه » ، بل شعر ببعض الرثاء لمن يذهب إلى حفلات غداء مملة بهذه الصورة !

فقال الدكتور بلهجة موظف الجمارك الذى كان مرتاباً حتى هذه اللحظة ، ولكنه بعد أن سمع تفسيراتك يختم جواز سفرك ويتركك تواصل رحلتك من غير أن يعنى نفسه بتفتيش حقائبك :

ـ آه . عظيم عظيم . كل شىء على ما يرام إذن !

وقالت مدام فرديران التى لم تكن ترى فى رئيس الجمهورية إلا سمجاً مضجراً يستحق الازدراء بصفة خاصة ، ما دام يملك رهن إشارته وسائل الإغراء ، بل والإجبار ، التى لو استخدمت لاقتناص « خلصائها » من الممكن جداً أن يخذلوها :

ـ أستطيع أن أصدقك فى أنك لا تجد هذه المآدب ممتعة . والواقع أنها طيبة (تعنى تضحية) منك أن تقبل الذهاب إليها ! ويبدو أن رئيس الجمهورية أصم ، ويأكل جلافته بأصابعه !

فرنت نبرة أسى ورثاء فى صوت الدكتور، وهو يقول :

– بشرفى لا بد أن ذهابك إلى هذه المآدب يسئمك كثيراً !

ثم لفت نظره اقتصار عدد الجالسين إلى المائدة على ثمانية أشخاص ، فقال متسائلا :

– هل هذه المآدب إذن هى ما يسمونه حفلات « خاصة حميمة » ؟

ومهما يكن من زراية مدام فرديران وتواضع المسيو سوان فى الحديث عن علاقته الحميمة برئيس الجمهورية ، إلا أن رئيس جمهورية فرنسا ظل شخصية مجيدة فى نظر الدكتور كوتار ، ولذا لم يكن يجلس بعدها إلى المائدة مع آل فرديران من غير أن يسأل بلهفة :

– أتظنون أننا قد نرى المسيو سوان الليلة ؟ إنه صديق شخصى للمسيو جريفى . أظن هذا يعنى أنه ما يسمونه « جنتلمان » ؟

ووصل به الأمر إلى حد تقديم بطاقة دعوة لمعرض الأسنان إلى سوان ، قائلا له :

– هذه الدعوة تتيح لك الدخول أنت ومن معك . ولكن غير مسموح بدخول الكلاب . وأنا أقول لك هذا لأن بعض أصدقائى لم يكونوا يعرفون هذا ، وحدثت لهم متاعب .

أما المسيو فرديران فلم يفته أن يلاحظ ما أصاب زوجته من

ثبوط وكآبة عندما اكتشفت أن لسوان أصدقاء من ذوى النفوذ ، لم يكن قد حدثها عنهم من قبل .

وما لم يكن هناك اتفاق على الذهاب إلى مكان آخر ، فى بيت آل فرديران كان سوان يجد « العشيرة الصغيرة » مجتمعة . ولكنه لم يكن يحضر إلا فى الليل ، ولم يقبل قط دعوتهم لتناول العشاء ، برغم توسلات أوديت .

فاقترحت عليه أن تتعشى معه فى أى مكان آخر وحدهما، فقال:

– ولكن ماذا عن مدام فرديران ؟

– الأمر هين . ما علىّ إلا أن أقول : إن ثوبى لم يكن جاهزاً ، أو إن عربتى تأخرت فى الحضور إلىّ . هناك دائماً عذر جاهز ...

– ما أظرفك !

ولكن سوان قال لنفسه : إنه إن استطاع أن يجعل أوديت تشعر (بقبوله الالتقاء بها بعد العشاء فقط) أن هناك مسرات أخرى يفضلها على صحبتها ، فسوف تكون رغبتها فى لقائه بعيدة عن الوصول بسهولة إلى درجة التشبع – يضاف إلى هذا أنه كان يفضل على طراز جمال أوديت جمال فتاة عاملة تفضيلا لا متناهياً ، فهى مليئة القوام ناضرة كالوردة يحبها بشراهة . ولذا يفضل أن يقضى معها الجزء الأول من الأمسية ، وهو على يقين من تمكنه من رؤية أوديت بعد ذلك . ولعين هذا السبب لم يسمح قط لأوديت أن تزوره فى بيته ، لتأخذه إلى بيت آل فرديران . وكانت الفتاة العاملة الصغيرة تنتظر – غير بعيد

من بابه – عند ناصية شارع . وكان ريمى Rémi حوذيه الخاص يعرف أين يقف ، فتقفز الفتاة إلى جوار سوان ، وتطوقه بذراعيها إلى أن تقف العربة عند باب آل فرديران . ويدخل إلى قاعة الجلوس ، وبينما مدام فرديران تشير إلى الورد الذى أرسله إليها ذلك الصباح قائلة :

– أنا غاضبة منك !

ثم تسير معه إلى المكان المحجوز له بجوار أوديت ، يعزف الموسيقى لهما لا لأحد سواهما تلك الجملة الموسيقية الصغيرة من سوناتة فانتى ، التى كانت بمثابة « السلام الوطنى » لحبهما . ويشعر سوان كم هى باطلة وجوفاء تلك السعادة التى تشير إليها تلك الأنغام ، ففى باطنها شعور خفى بالإحباط تبينه سوان مع تكرار العزف والسماع ؛ ولكن ذلك لم يكن ذا بال فى نظره ... فللسوناتة قيمتها الذاتية بصرف النظر عنه وعن أوديت وعن أى أشخاص معينين . وتخلى عن فكرة استئجار موسيقيين محترفين لعزفها له فى بيته بمفرده ، مع أنه لم يزل علمه بها منحصراً فى تلك الجملة ، بعد أن قالت له أوديت :

– لماذا تريد بقيتها ؟ كل ما نحتاج إليه منها هو هذا الجزء الخاص بنا .

وقد يحدث أن يكون قد بقى فى الخارج مدة أطول من المعتاد مع فتاته الصغيرة ، قبل التوجه إلى بيت آل فرديران ، حتى أنه بمجرد أن يعزف الموسيقى الجملة القصيرة ، يكتشف سوان أن الوقت

حان كى تعود أوديت إلى بيتها . وكان من عادته أن يأخذها فى عربته حتى باب بيتها الصغير فى شارع لا بيروز La Pérouse ، وراء قوس النصر . ولعل هذا هو السبب – لكى لا يطلب احتكار الحظوة بها – فى تضحيته بمتعة رؤيتها فى وقت مبكر من المساء (وهى متعة ليست جوهرية لديه) أو الذهاب معها إلى بيت آل فرديران ، وفى مقابل ذلك يستمتع بمغادرتهما هذا البيت معاً ، وهو امتياز قابلته بالعرفان ، وصار هو يقدره تقديراً متزايداً ، لأنه ضمن بذلك أن أحداً غيره لن يراها بعد ذلك ، ولن يمنعه أحد من البقاء معها بروحه ، بعد أن فارقها لقضاء الليل .

وهكذا ، ليلة فى إثر ليلة ، بعد أن تنزل يقف هو عند البوابة ويغمغم :

– إلى الغد إذن !

فتشيح عنه فى عصبية واندفاع ، وتقطف زهرة كريز تيموم من الحديقة الصغيرة التى تحف بالممر المفضى من الشارع إلى بيتها ، وبينما هو عائد إلى عربته تدسها فى يده . فيضمها إلى شفتيه طول طريقه إلى بيته ، وعندما تذبل هذه الزهرة يدخرها كأنما هى شىء ثمين جداً ، فى درج سرى بمكتبه .

ومن عادته أن يرافقها إلى بوابة بيتها لا أكثر . ولم يدخل بيتها إلا مرتين لتناول شاى بعد الظهر (وهو من الشعائر التى تهتم بها جداً فى حياتها) . والواقع أن عزلة وإقفار هذه الشوارع القصيرة (التى



ومن عادته أن يرافقها الى بوابة بيتها لا اكثر..
ولم يدخل بيتها الا مرتين لتناول شاى بعد الظهر..

تتكون غالباً من بيوت منخفضة السقوف ، مستقلة ولكنها غير منفصلة ، متشابهة رتيبة لا يقطع رتابتها إلا حانوت صغير كئيب بين الحين والحين ، هو بقية أثرية من العهد الذى كانت فيه هذه المنطقة سيئة السمعة) وسط بقايا الثلج العالق بالأشجار وأحواض الحدائق ، كل ذلك كان يضفى عنصراً من الغموض على الدفء والأزهار والرفاهة التى وجدها داخل بيتها .

وكان الطابق الأرضى لبيت أوديت مرتفعاً عن مستوى الشارع من الجهة اليسرى ، ومخدع أوديت يطل على خلفية البيت ، أى على شارع صغير آخر مواز للشارع الأمامى ، الذى به باب بيتها : وعند الدخول ارتقى سلماً محصوراً بين جدارين قاتمى الطلاء ، مزينين بطنافس شرقية ، ومسابح تركية ، وفانوس يابانى ضخم مدلى من السقف بحبل من الحرير (والفانوس مضاء بالغاز لكى لايشكو زوارها من الافتقار إلى آخر وسائل المدنية الغربية) ويفضى هذا السلم الداخلى مباشرة إلى حجرتى الاستقبال ، الكبيرة والصغيرة ، ولهما مدخل صغير مزخرف يقوم مقام صوبة الحديقة الشتوية ، وأهم ما به صف من أزهار الكريزنتيم الكبيرة ، التى كان حجمها يومئذ يعد ظاهرة جديدة ، وإن كان المستنبتون قد استنبطوا حجماً عملاقاً من هذه الزهور بعد ذلك . وكان سوان يضيق بمنظر هذه الأزهار هناك ، التى كانت فى تلك السنة « الموضة » الجارفة فى باريس .

وكانت أوديت قد استقبلته فى ثوب للشاى من الحرير الوردى

يكشف عن عنقها وذراعيها . وأجلسته بجوارها فى ركن من أركان الحجرة الكبيرة ، تظلله أوراق النخيل النابت فى أصص من الخزف الصينى ، وتحيط به ستائر ثبتت فوقها صور فوتوغرافية لمراوخ وأنشوطات . وقالت على الفور :

ـ لست أراك مستريحاً هناك . انتظر لحظة . سأرتب لك كل شىء :

ودغدغت حلقها ضحكة تنبئ عن أنها ستقدم له ابتكاراً خاصاً بها ، ثم وضعت خلف رأسه وتحت قدميه وسائد ضخمة من الحرير اليابانى ، غير مبالية بثمنها الفادح . ولكن عندما جاء خادمها إلى الحجرة حاملا على التعاقب المصابيح التى لا تحصى (داخل أصص من الصينى) التى أضيئت أزواجاً أو فرادى فوق قطع الأثاث المختلفة وكأنها مذابح مقدسة ، فبددت عتمة ما بعد الظهر المبكرة فى أوائل الشتاء . وكانت عينها تراقب حركات الخادم ، شاعرة أن أى خطأ فى وضع أى ضوء فى غير مكانه المناسب سوف يفسد كل شىء ... ولا سيما أنها حريصة على سقوط الضوء على صورتها الزيتية القائمة على حامل مكسو بالقطيفة . وهكذا جعلت تتابع حركات الخادم ، وتؤنبه بقسوة عند أى خطأ ، أو أى احتكاك بأصص الأزهار ، وتنهض لتتأكد من سلامة كل زهرة . فهى تجد سحراً خاصاً لكل حلية من تحفها الصينية ، وفى أزهار الأركيد بصفة خاصة (فهى الأثيرة لديها إلى جانب الكريزنتيم) لأنها ذات منظر متفرد ، وكأنها

مصنوعة من الحرير أو الساتان . وقالت لسوان وهى تشير إلى الأركيد برنة إجلال :

ـ إنها تبدو كما لو كانت مقصوصة من بطانة ثوبى .

وكأنها ترى فى هذه الزهرة أختاً راقية ممتازة لها منحتها إياها الطبيعة ، على تباعد رتبتيهما فى الوجود ، إلا أنها أجدر لرهافتها من نساء كثيرات بالدخول إلى قاعة استقبالها . وعندما لفتت نظره إلى التنانين ذات الألسنة النارية المرسومة فوق إناء ، ثم إلى باقة من الأركيد ، ثم إلى تحفة من الفضة المطعمة ذات أعين ياقوتية ، كانت قائمة على رف موقدها ، تظاهرت بالإجفال من هذه الوحوش الخرافية ، ثم ضحكت من سخافتها ، وراحت تداعب تمثالين لضفدع وجمل مصنوعين من الخشب وتقبلهما فى دلال وخفة . وهى خفة تناقض إجلالها لتمثال عذراء لاجيتو Laghetto التى شفتها ذات مرة من مرضها العضال عندما كانت مقيمة فى نيس Nice ، وراحت تنسب لها كرامات لا حد لها .

وتولت بنفسها صب الشاى لسوان وسألته :

ـ ليمون أم قشدة ؟

ولما أجابها باسماً :

ـ قشدة من فضلك . مقدار بسيط جداً .

ثم أثنى على دقتها الممتازة فى وضع المقدار المناسب من القشدة ، فقالت :

ـ ها أنت ترى أنى أعرف كيف تحب شايك أن يكون .

وبدا لها هذا الشاى ـ مثلما بدا لسوان ـ شيئاً ثميناً . والحب محتاج إلى التماس ما يبرره ، وما يضمن استمراره فى ملذات ، لولا الحب نفسه لما كان لها وجود ، وتنقضى بانقضائه . وهكذا عندما غادرها فى الساعة السابعة ليذهب ويرتدى ثياب المساء ، ظل طوال الطريق إلى بيته جالساً منتصباً فى عربته ، عاجزاً عن كبح السعادة التى ملأته بها مغامرة ما بعد الظهر ، وظل يكرر لنفسه :

ـ يا لها من متعة أن يكون لدى المرء امرأة صغيرة كهذه فى مكان يمكن للمرء أن يكون على يقين من حظوته بما لا يضمن وجوده فى مكان آخر ، وهو فنجان من الشاى المتقن .

وبعد ساعة أو نحوها تلقى رقعة من أدويت ، وعرف على الفور خطها المزخرف الذى يحمل آثار تعمد خطوط الإنجليز . ولعل صاحب فراسة كان قميناً أن يجد فيه ما يدل على نقص فى التعليم ، ونقص فى الصدق والإخلاص والحسم ، وكان سوان قد نسى علبة سجائره فى بيتها ، فكتبت إليه تقول :

ـ لماذا بربك لم تترك هنا قلبك أيضاً ؟ عندئذ ما كنت لأعيده إليك !

* * *

ولعل الزيارة التالية ـ بعد الأولى بقليل ـ كانت أهم . ففى طريقه إلى بيتها راح يكوّن صورة لها فى ذهنه . وحاول أن يركز

انتباهه على عظمتى وجنتيها الناضرتين الورديتين ، التماساً لمواطن الجمال فيها ، وغض خياله عن تصور بقية خديها الشاحبين غالباً ، إلا إذا غطتهما البقع القاتمة أحياناً ، فيمتلىء فؤاده أسى لأن سعادة البشر ناقصة دائماً . وكان يحمل لها معه لوحة نحت طلبت أن تراها ، ولم تكن على ما يرام فى ذلك اليوم ، فاستقبلته فى دثار من الكريب دى شين البنفسجى المطرز بغزارة . ولما وقفت بجواره ودغدغت خده غدائر شعرها المنسابة ، وحنت إحدى ركبتيها لكى تميل لترى الصورة بدون عناء ، وراحت تحدق فيها بعينيها الكبيرتين اللتين تبدوان مكدودتين غائرتين عندما لا يوجد ما يبث فيهما الحيوية ، عندئذ أدهش سوان أن يلاحظ وجه الشبه بينها وبين زبورا Zipporah ابنة جثرو Jothro ، التى يمكن مشاهدتها فى إحدى لوحات الفريسكو بكنيسة سكستين Sixtine . وكان يجد دائماً متعة خاصة فى تعقب أوجه الشبه بين رسوم الأساتذة الأقدمين وبين الملامح الفردية للرجال والنساء الذين يعرفهم . مثلما رأى مثلا وجه شبه بين التمثال النصفى للدوج لوريدان Loredan من عمل أنتونيو ريزو A. Rizzo من حيث عظام الخد البارزة ، والحاجبين المائلين (وباختصار رأى شبهاً ناطقاً بين تمثال الدوج) وبين حوذيه ريمى ، وفى أعمال أخرى التقط الشبه بين صورة لجيرلنداليو Ghirlandaio وبين أنف المسيو دى بلانسى Palancy ، وبين لوحة لتنتوريتو Tintoretto من حيث الأنف والنظرة النفاذة والأهداب المتوردة

وبين الدكتور دى بوبلون Boublon . ولعل هذا الاهتمام فيه
تكفير عن فرط اهتمامه بالمجتمع على حساب الانغماس فى العناية بالفن.
ولعله أيضاً احتفظ فى أعماقه باهتمام خاص بالفن الرفيع بحيث يجد
لذة أصيلة فى مراقبة تلك التشابهات فى ملامح من يعرفهم . ومن هذا
القبيل ما أدهشه من تشابه بين أوديت وبين « زبورا » من صنع
أليسندرو دى ماريانو A. de Mariano بحيث صار إحساسه بملامح
أوديت أقرب إلى الإحساس بأنها لوحة فنية تمثلها .

ووقف يحدق فيها ، فإذا بقايا من لوحة الفريسكو تلك ظاهرة
فى وجهها وفى أطرافها ، وصار فيما بعد كثيراً ما يحاول أن يتأملها
بلا توقف ، وهو مع أوديت أو حين يفكر فيها وهى غائبة عنه :
وبرغم أن إعجابه بهذه الرائعة الفلورنسية ، ربما كان راجعاً إلى أن
أوديت تماثلها ، إلا أن هذا زاد من قيمة جمال أوديت عنده وجعلها
أثمن فى نظره . وصار سوان يؤنب نفسه منذ ذلك الوقت على تقصيره
فى تقدير جمال مخلوقة كان ساندرو العظيم خليقاً أن يعبدها ، وعد
نفسه مجدوداً لأن متعته فى تأمل أوديت صار لها مبرر من عقيدته
الفنية . وقال لنفسه : إنه باختياره فكرة أوديت ملهمة لأحلامه
بالسعادة المثلى ، لم يكن ينحط بمستواه – كما كان يظن حتى تلك
اللحظة – ما دامت تنطوى على ما يشبع أرهف أذواقه الفنية .: وفاته
أن يلاحظ أن هذه الصفة فى أوديت لا تجعلها فى عداد النساء اللواتى
يشتهيهن ، لأن رغباته واشتهاءاته كانت تجرى دائماً فى اتجاه مضاد

لذوقه الفنى . فكلمتا « الفن الفلورنسى » أتاحتا له لقباً شرعياً يخلعه
على صورة أوديت بحيث يدخلها إلى عالم الأحلام والأوهام الذى
كانت حتى ذلك الحين محرومة من الدخول إليه : وفى هذا الإطار
اكتسبت شكلا جديداً نبيلا . وفى حين كان مجرد النظر إليها بلحمها
ودمها يثير خيبة أمله فى مجموع محياها وقامتها وجمالها كله بحيث تبرد
حرارة حبه ، إلا أن هذا القصور فى جمالها لم يلبث أن انجرف أمام
استطاعته تقديرها على أساس متين من مبادئه الفنية لا من شهوته .
وإذا بالقبلة أو الضمة التى كان يخالها لا تثير دمه ، وقد صارت
تتويجاً لعبادته لرائعة فنية ، فهى ممتعة لذيذة بقدر ما هى خارقة
للطبيعة .

وعندما خامره الندم لأنه فى الشهور الماضية لم يصنع شيئاً اللهم
إلا زيارة أوديت جعل يؤكد لنفسه أنه لم يضيع وقته هباء حين
خصص معظمه لدراسة عمل فنى لا يقدر بمال ، وقد صب معدن
جديد مختلف ومن نوع خاص فى سحره . لدراسة نموذج لا يضارع
يتأمله حيناً بروح وعقل الفنان المتواضع النزيه ، وفى حين آخر
بزهو وأنانية ونشوة المقتنى الشهوانى :

وعلى مكتبه – حيث يعمل – وضع صورة منقولة عن لوحة
ابنة جثرو ، وكأنها صورة أوديت ، وينظر بإعجاب إلى العينين
الكبيرتين ، والملامح الرقيقة ، وخصلات شعرها البديعة التى تنسدل
على خديها المكدودتين ، ثم يلصق شعوره نحو هذا الجمال الفنى بفكرة

امرأة حيـة ، ويتخيل لهـا مزايا جسـدية بارعة ، ويهنئ نفسه على اجتماعها فى شخص من سوف يتملكها فى نهاية المطاف ... وعنـدما يكون قد قضى وقتاً طويلا وهو يحدق فى عمل بوتتشيلى Botticelli يخيل إليه أن عمله حى فى أوديت ، فيزداد تقديره لملاحتها ، وعندما يدنى منه صورة زيبورا يخال أنه إنما يضم أوديت نفسها إلى قلبه :

ومع تكرر فرص التلاقى كل ليلة ، لم يعد لدى أوديت جديد تقوله له ، ولذا خشى أن يتسبب هذا المسلك ــ بعد المعاشرة ــ فى تخييب أمله فى علاقة رومانسية . مع أنه لن يغدو عشيقها ، ولن يظل عشيقها إلا إذا اعترفت بهواها المتقد له . ولكنها تبـدو الآن هادئة هامدة المشاعر فى رتابة تقلقه . ولذا كتب إليهـا خطاباً حرص على أن يصلها قبل وقت العشاء . وكان يعلم أنها ستر تاع ، وسترد عليه : وكان يأمل أن يستثير خوفها من فقدانه مشاعرها الرصينة الهـامدة ، فتخط إليه كلمات لم يسمعها من قبل تخرج من فيها . وكان مصيباً : فبهذه الحالة حصل منها على خطاباتها الملتهبة . وأحد هـذه الخطابات (وكانت قد أرسلته إليه ظهراً مع رسول خاص من الميزون دوريه Maison Dorée فى يوم الحفـلة المقامة بباريس لصالح ضحايا الفيضـانات الأخـيرة فى ميرسيا Murcia) وقد بدأته بقولهـا : « يا عزيزى . إن يدى ترتجف حتى لأكاد أعجز عن الكتابة ... » وقد احتفظ بهذه الرسائل فى نفس الدرج الذى به أزهار الكريز نتيم

الذابلة . أما إن لم يتسع أمامهـا الوقت للكتابة ، فبمجـرد دخوله صالون آل فرديران كانت تجرى إليه قائلة :

ــ عندى شىء أقوله لك !

وينظر بفضول إلى محياها الذى يعبر عن مضمون كلماتهـا التى ظلت تخفيها عنه فى قلبها . بل إنه وهو يقترب من باب آل فرديران ويرى مساحات الضوء الذى ترسله المصابيح من نوافذ قاعة الاستقبال التى لم تكن مصاريعهـا الخشبية تقفـل مطلقاً ، كان ينتابه الشوق والحنين إلى المخلوقة الفاتنة التى سيراها عند دخوله القاعة رافلة فى هذا الضوء الذهبى . وهنا وهناك تبدو له أشكال وقامات الضيوف كالبقع السوداء التى تحول دون سطوع الضوء من النوافذ بأكملها : ويحاول وهو فى الشارع أن يتبين قامة أوديت من بينهم . ومتى دخل تألقت عيناه بالسعادة والحبور بلا وعى حتى أن المسيو فرديران قال للرسام :

ــ صه ! يبدو أن حرارته ارتفعت ؟

والواقع أن وجودها كان يضفى على البيت ما لا يتمتع به أى بيت آخر من البيوت التى يزورها . يضفى عليه نوعاً من الحسـاسية اللمسية والعصبية التى تنتشر فى كل حجرة من حجراته ، وتبث الإثارة المتواصلة فى فؤاده .

* * *



وهكذا تحولت « العشيرة الصغيرة » فى بيت آل فرديران من كيان اجتماعى لدى سوان إلى سلسلة من اللقاءات اليومية مع أوديت، مما أتاح له أن يتظاهر بعدم الاكتراث برؤيتها ، أو حتى عدم الرغبة فى ذلك . ولم يكن هذا التظاهر ينطوى على مخاطرة كبيرة ، لأنه فى يوم تغيبه يكون قد كتب إليها رسالة أثناء النهار ، يؤكد فيها ضرورة رؤيتها فى المساء واصطحابها إلى بيتها .

ولكن ذات ليلة ، ضاق ذرعاً بتلك الرحلة فى عربته المعتمة معاً ، فأخذ فتاته الأخرى حتى الغابة ، لكى يؤخر بقدر الإمكان ظهوره لدى آل فرديران . وتأخر كثيراً فى الوصول ، حتى أن أوديت حسبته لن يأتى فغادرت الاجتماع ، وما إن رأى سوان القاعة خالية منها حتى اعتصر قلبه الغم ، وشعر أن متعة كبرى فاتته ، متعة بدأ الآن يدرك مدى شدتها وعمقها ، وأدرك أن يقينه من الحظوة بها كل ليلة قد جعله يغفل عن أبعادها فى نفسه وتنقص قيمتها فى عقله الواعى :

وسأل المسيو فرديران زوجته :

ـ ألاحظت سحنته عندما تبين أنها ليست هنا ؟ أحسبه قد وقع فى الحبالة !

وتساءل الدكتور كوتار عن معنى هذا الكلام ، لأنه كان غائباً عن المكان لبعض الوقت كى يعود مريضاً ، ثم رجع ليأخذ زوجته ، فلم يعرف عمن يتحدث الزوجان .

ـ إذن أنت لم تقابله على عتبة الباب وأنت قادم ؟ أعنى فخر آل سوان !

ـ لا : أكان المسيو سوان هنا ؟

ـ لمدة لحظة واحدة ، لمحناه فيها شديد الاضطراب متهيج الأعصاب . والسبب أن أوديت كانت قد انصرفت :

ـ أتعنى أنها ذهبت معه إلى آخر الشوط ؟ وأنها أحرقت مراكبها ؟

ـ كلا بالطبع . ليس هناك شىء من هذا . الواقع ـ بينى وبينك ـ أظنها ترتكب خطأ جسيماً ، وتتصرف ببلاهة وغفلة :

فعارض المسيو فرديران زوجته قائلا :

ـ على رسلك ! ما أدراك أن لا شىء من هذا بينهما ؟ إننا لم نكن معهما لنرى ما يحدث !

فأجابته مدام فرديران بأنفة :

ـ كانت خليقة أن تخبرنى : فهى تقول لى كل شىء : ولما كانت غير مرتبطة بأحد حالياً ، فقد قلت لها إنها ينبغى أن تعيش معه . وهى تزعم أنها لا تستطيع هذا . مع أنها تعترف بأنها كانت منجذبة إليه بشدة فى البداية ، إلا أنه شديد الخجل معها ، وذلك يجعلها شديدة الخجل معه . ثم إنها لا تهتم معه بهذه الناحية كما تقول . فهو حب مثالى : أفلاطونى كما يقولون . وهى تخشى أن

تقضى على ازدهار هذا الحب . أوه : نصف كلامها لا أفهمه . وفى الوقت نفسه تقول إنه الرجل الذى تريده بالضبط !

فقاطعها المسيو فرديران بحذر قائلا :

ـ أستأذنك فى الاختلاف معك ، فأنا لست راضياً عن هذا السيد تمام الرضا ، لأنى أشعر أنه « متكلف » .

فتصلب كل جسم مدام فرديران ، وحدقت أمامها فى فراغ كأنما تحولت إلى تمثال ، وهى حيلة تستخدمها للتظاهر بعدم سماع هذا اللفظ الكريه ، فهى لا تتصور أن يتجاسر أحد على أن «يتكلف» فى بيتها ... وقال زوجها :

ـ على كل حال ، إن لم يكن بينهما شيء ، فليس السبب أن « صاحبنا » يعتقد أنها مصونة العفة : ثم هو فيما يبدو يعتقد أنها ذكية ، ولا أدرى هل سمعته أم لا وهو يحاضرها ذات أمسية عن سوناتة فانتى ، ومع إخلاصى لمودة أوديت ، إلا أن طرح نظريات فى علم الجمال عليها يدل على أن الرجل مغفل من الطراز الأول .

فصاحت مدام فرديران بلهجة « الطفل المدلل » التى كثيراً ما تلجأ إليها :

ـ اسمع ! لن أسمح لك أن تنتقص من قدر أوديت : إنها فاتنة !

ـ ليس هناك ما يمنع من أن تكون فاتنة ، ونحن لا نقول عنها ما يشينها ، وكل ما قلناه عنها إنها ليست التجسيد الحى للفضيلة والعفة أو الثقافة .

ثم التفت إلى الرسام وقال :

ـ أمن الأهمية بمكان أن تكون عفيفة مصونة أم لا ؟ لعمرى إن فتنتها تنقص كثيراً جداً لو أنها كانت عفيفة مصوناً !

* * *

وعلى السلم وهو نازل قابل سوان كبير خدم آل فرديران (الذى كان بالخارج عند قدوم سوان) وأخبره أن لديه رسالة من أوديت كلفته بتبليغها إليه (ولكن ذلك كان عند انصرافها منذ ساعة على الأقل) مؤداها أنها قد تذهب لتناول فنجان من الشكلاتة فى محل بريفو Prévost فى طريقها إلى البيت . وتوجه سوان من فوره إلى محل بريفو ، ولكن عربته كانت تتوقف فى زحام العربات أو المارة كل بضعة أمتار ، وهى عقبات كان يسعده أن يدهمها بعجلات العربة وسنابك الخيل ، لولا أن رجل الشرطة كان سيستوقفه عندئذ ويعطله مدة أطول ريثما يحرر محضراً بالحادث . فقد كان يحصى الدقائق كالمحموم ، تلهفاً على الوصول قبل انصرافها من محل بريفو . ثم تنبه لنفسه كمن يستيقظ من سبات كله أحلام ، وعجب من حاله ، فليس من عادته أن يكون على هذا النحو من التوتر العصبي منذ وصل إلى صالون آل فرديران وعرف بانصراف أوديت . فهذا الوجيب فى قلبه شيء طارئ عليه لا عهد به له من قبل ! ما هذا ؟ أكل ذلك الانزعاج لمجرد أنه قد لا يرى أوديت الآن ، حتى الغد . مع أن هذا ما كان يتمناه وهو متوجه بعربته منذ أقل من ساعة إلى بيت

آل فرديران : واضطر للإقرار بأنه الآن ، وهو جالس فى نفس العربة ، لم يعد نفس الرجل وهو فى طريقه إلى محل بريفو . بل ولم يكن وحده ، بل كانت إلى جواره شخصية أخرى مندمجة فيه ، وقد لا يتسنى له التخلص منها أبداً . ومع هذا ، شعر فى هذه اللحظة الأخيرة التى أحس فيها وجود هذا الآخر أن شخصية جديدة قد انضافت إلى شخصيته ، فصارت الحياة أدعى للاهتمام وأشد طرافة على نحو ما .

وعبثاً راح يؤكد لنفسه أن هذا اللقاء المحتمل فى محل بريفو ، قد يتبين ، بعد كل شىء ، فى حالة حدوثه ، أنه نسخة طبق الأصل من سائر لقاءاتهما ، وليست له أهمية كبيرة . فكما يحدث كل ليلة ، متى صار فى صحبة أوديت ، وبمجرد شروعه فى النظر المختلس إلى سحنتها المتغيرة ، يسرع بغض بصره أو الابتعاد به عنها حتى لا ترى فى عينيه أول أمارات الرغبة ، فلا تعود تصدق عدم مبالاته . ويكف عندئذ عن التفكير فيها لانشغاله بالبحث عن ذرائع تتيح له ألا يفارقها على الفور ، وبتذكير نفسه أنه يقيناً سيجدها حيث هى الآن فى الليلة التالية ، ببيت آل فرديران .. وهى ذرائع تمكنه من إطالة المكث وتجديد خيبة أمله فى تلك المرأة التى تعذبه خيبة أمله فى حسنها ، والتى يمكنه أن ينالها ولكنه لم يجرؤ قط على معانقتها .

ولم يجدها فى محل بريفو : وكان لا بد له أن يبحث عنها فى كل مطعم مطل على البولفارات : وتوفيراً للوقت ذهب بنفسه فى اتجاه وبعث حوذيه ريمى فى اتجاه آخر . وبعد أن خاب مسعاه وقف

حيث ينبغى أن تأتى العربة للقائه . وطال غياب العربة ، وداعبت الآمال فى عودة ريمى ليقول له :

ـ سيدى . السيدة هناك .

أو ينتابه اليأس فيتخيله يقول له :

ـ لم أجد السيدة فى أى مقهى .

وهكذا جعل يتأرجح بين العثور عليها أو العودة لبيته من غير أن يراها هذه الليلة .

وعاد الحوذى . ولكنه ما إن وقف أمامه حتى قال سوان ، بدلا من « هل وجدتها ؟ » :

ـ ذكرنى غداً كى أطلب المزيد من خشب الوقود . فأنا متأكد أن ما عندنا منه كاد ينفد !

ولعله كان قد أقنع نفسه أنه إذا كان ريمى قد وجد أوديت فى إحدى المقاهى ، وأنها تنتظره هناك ، فقد انتهت إذن ليلة عذابه بهذا التحقق لأمنيته ، وبدأت ليلة فرح وسرور ، فلا حاجة به إلى التهافت على سعادة صارت فى متناول اليد ، ولن تفلت من قبضته . ولكن وراء هذا المسلك أيضاً قوة القصور الذاتى المشاهدة عند بعض الناس حتى فى مواطن الخطر . ولعله لو بادره الحوذى بقوله :

ـ لقد وجدت السيدة .

كان قائلا له :

ـ آه ! طبعاً . هذا ما أمرتك به . وقد نسيت ذلك .

ثم يواصل بحث موضوع خشب الوقود ، لكى يخفى عن خادمه الانفعال الذى شعر به ، وليتيح لنفسه فسحة من الوقت للانفصال عن القلق وترك قياده للمتعة والفرح . ثم نصحه .

والواقع أن الحوذى عاد ليقول : إنه لم يستطع العثور عليها فى أى مكان .

بدالة الخادم القديم :

– وأظن يا سيدى أن كل ما نستطيعه الآن هو العودة إلى البيت .

ولكن مظهر عدم الاهتمام الذى كان من السهل على سوان أن يتخذه عندما قال له ريمى هذا القول تخلى عنه تماماً ، كأنما صدمه أن يدعوه ريمى إلى التخلى عن الأمل والتراجع عن مواصلة البحث ، فصاح به :

– كلا بالتأكيد! لا بد لنا أن نعثر على السيدة . هذا أمر فى غاية الأهمية : فبيننا موعد عمل ، وقد يغضبها منى ألا تقابلنى الليلة »

– لست أفهم لماذا يمكن أن تغضب السيدة ، ما دامت هى التى انصرفت من غير أن تنتظر قدومك ، وهى التى قالت إنها ذاهبة إلى محل بريفو ، وإذا بها ليست هناك !

وفى هذه الأثناء كانت المطاعم قد أخذت فى إقفال أبوابها وإطفاء أنوارها . وتحت أشجار البولفارات كانت هناك بقية من المرتاضين ، تكاد تخفيهم العتمة . وبين الحين والحين كان يتراءى لسوان شبح امرأة تدنو منه وتهمس فى أذنه بكلمة ، أو تطلب منه

أن يصحبها إلى البيت ، ثم تتركه وهو يرتجف . ولم يكف عن إمعان النظر فى هذه الأشكال الغامضة ، وكأنما هو يبحث فى الظلمات عن روح هبطت إلى العالم الآخر ...

وطلب سوان إلى ريمى أن يذهب به إلى المطاعم التى لم تزل مفتوحة . فقد كان هذا هو الفرض الوحيد لتحقيق سعادته التى زاد إلحاح رغبته فيها . ولم يعد قادراً على إخفاء اضطرابه ، ووعد حوذيه أن يجزل مكافأته فى حالة نجاح هذه المهمة . كأنما هذه الأمنية السحرية كافية لجعل أوديت التى لعلها أوت إلى فراشها منذ وقت طويل ، تنتفض جالسة فى أحد المطاعم المطلة على البولفارات . ومضى فى بحثه حتى الميزون دوريه ، واندفع مرتين إلى داخل محل تورتونى Tortoni ، من غير أن تكتحل عيناه بمرآها . وكان خارجاً من مقهى الإنجليز زائغ النظرات ليتجه إلى عربته التى كانت تنتظره عند ناصية بولفار الإيطاليين ، وإذا به يرتطم بشخص قادم من الجهة الأخرى . وكانت هى أوديت !

وقالت له فيما بعد إنها لم تجد مكاناً شاغراً فى محل بريفو ، فذهبت لتناول العشاء المتأخر فى الميزون دوريه ، وإنها كانت جالسة هناك فى خلوة منعزلة ولذا لم يرها ، وإنها الآن بسبيل البحث عن عربتها .

ولم تكن تتوقع أن تراه ، ولذا تراجعت فى ذعر . أما هو فكان قد نقب فى كل شوارع باريس ، لا عن اقتناع بجدوى البحث بل لأن ترك البحث كان أقسى عليه من أن يحتمله . أما الآن فكان

سروره الفجائى بادياً لا يمكن إخفاؤه ، وقد صارت - بعد يأس - أمام عينيه ساطعة كأنوار الحقيقة :

وركب فى إثرها عربتها التى كانت قد استبقتها فى انتظارها ، وأمر حوذيه أن يتبعه بعربته الخاصة :

وكانت فى يدها باقة صغيرة من أزهار « الكاتليا » ، ورأى سوان تحت الدانتلا التى تغطى رأسها زهرات أخرى من نفس النوع مثبتة فى ريشة بجعة . وكانت ترتدى تحت عباءتها ثوباً فضفاضاً من المخمل الأسود . وعند فتحة العنق مزيد من هذه الأزهار . ولم تكن قد أفاقت تماماً من صدمة وقوع بصرها فجأة على سوان ، عندما حدث عائق جعل الحصان الذى يجر العربة يجفل ، فدفع الراكبين إلى الأمام ، وأطلقت صرخة ، ثم سقطت إلى الخلف وهى ترتجف مبهورة الأنفاس . وراح يطمئنها قائلا :

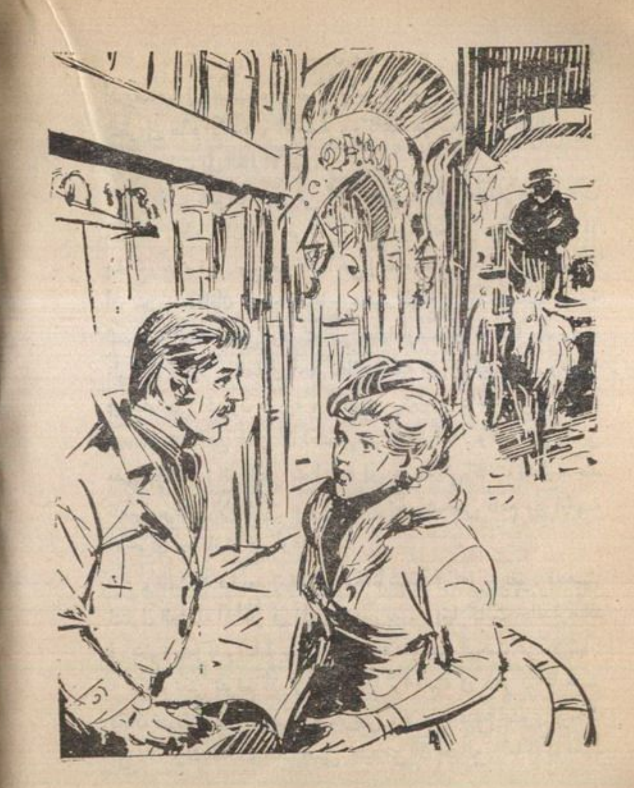
- لا بأس عليك . لا ترتاعى .

ودس ذراعه حول كتفها ، ليسند جسمها بجسمه ، ثم أردف :

- لا تتكلمى . يكفى أن تومئى بنعم أو بلا . وإلا انقطع تنفسك مرة أخرى . ألديك مانع من أن أثبت هذه الأزهار التى سقطت من مكانها فوق صدرك . لن أزيد على تثبيتها كما يجب فى مكانها .

ولم تكن قد تعودت أن تعامل بكل هذه الرسميات من جانب الرجال ، ولذا ابتسمت وهى تجيبه :

- لا . لا مانع عندى إطلاقاً .



ولم تكن تتوقع أن تراه ، ولذا تراجعت فى ذعر .
أما هو فكان قد نقب فى كل شوارع باريس ..

وصدمته إجابتها ، وهتف بها :

ـ لا . لا . لا ينبغى أن تتكلمى . وإلا انقطع نفسك من جديد ، يمكنك أن تجيبى بالإشارة . وسوف أفهم . أحقاً لا تمانعين ؟ ثم إن بعض متك الأزهار (حبوب اللقاح) انسكبت على ثوبك . أتسمحين لى أن أنفضها بيدى ؟ لا أظننى آلمتك ؟ لعلنى أدغدغك بعض الشىء ، ولكنى لا أريد أن ألمس المخمل حتى لا أدفعه فى عكس اتجاه وبره . ألديك مانع من أن أشم الآن هذه الأزهار وهى فى موضعها لأتأكد من أنها تحتفظ بعبيرها ؟ لا أظننى شممت هذا النوع من قبل . أتسمحين لى ؟ قولى الحقيقة .

فهزت كتفيها قليلا وهى لم تزل تبتسم ، وكأنها تريد أن تقول :

ـ أنت لا شك معتوه . فأنت تعلم جيداً أنى أستطيب هذا .

ومد يده الأخرى فتحسس بها خد أوديت ، فثبتت عينيها عليه بتلك النظرة الجادة الفاترة الهمة التى تتميز بها النساء فى الصور الفلورنسية القديمة ، والتى اكتشف فيها نمط سحنة أوديت . وكانت عيناها ـ مثل عيونهن ـ تكاد تسقط من وجهها لتتدحرج على خديها وكأنهما دمعتان كبيرتان ، وحنت رقبتها كما يحنين جميعاً رقابهن فى تلك اللوحات ، سواء فى المشاهد الوثنية أو المشتقة من الكتب المقدسة. ومع أن مسلكها كان غريزياً وتلقائياً ، وبصورة تعلم هى أنها ملائمة لمثل هذه المواقف ، إلا أنها بدت كما لو كانت بحاجة إلى كل قواها كى تعود بوجهها إلى الوراء ، وكأن قوة خفية تجذب وجهها إلى

أسفل نحو وجه سوان . وكان سوان هو الذى أمسك بوجهها لحظة أطول على مسافة قليلة من وجهه قبل أن تسمح لوجهها أن ينكب على شفتيه كما لو كان هذا الانكباب رغم إرادتها . فقد قصد أن يترك لعقلها فسحة من الوقت للتفكر فى حركات جسمها ، والتعرف على الحلم الذى طالما حلمته ، ولكى يساعدها على تحقيقه عن وعى وتدبر . وكأن عقلها أمٌّ دعيت لتشهد تقديم جائزة التفوق للطفل الذى ربته وأحبته . ولعل سوان نفسه كان فى الوقت نفسه مركز الانتباه على ملامح أوديت التى لم يتملكها بعد . بل لم يقبلها بعد ، وها هو يتأملها الآن بنظرة شاملة مستوعبة كنظرة المسافر الذى يريد قبل رحيله أن يحمل معه فى ذاكرته منظر القطر الذى لن يعود إليه .

ولكنه كان شديد الخجل وهو يقترب منها ، حتى أنه بعد تلك الأمسية التى بدأت بتنسيقه الأزهار على فتحة صدرها ، والتى انتهت باستسلامها التام ، لجأ إلى نفس الذريعة فى الأيام التالية . فإن كانت فى فتحة صدرها أزهار مثبتة قال لها :

ـ لسوء حظى البالغ أن الأزهار ليست بحاجة هذه الليلة إلى تثبيت ، فلم تتبعثر كما حدث فى تلك الليلة ، ولكنى أحسب هذه الزهرة ليست فى مكانها تماماً . أتسمحين لى أن أتأكد من أن عبيرها أشد من عبير الأزهار الأخرى ؟

أما إذا لم تكن فى فتحة صدرها أزهار ، فإنه كان يقول لها :

ـ أوه . لا أزهار الليلة . إذن ليس هناك ما أقوم بتنسيقه .

وهكذا لم يحدث تغيير فى الإجراءات التى تلت تلك الليلة الأولى التى بدأ فيها بلمس رقبتها بأنامله أولا ، ثم بشفتيه . فكانت مداعباتهما تبدأ دائماً وبلا تغيير بهذا الاستكشاف المتواضع . وبعد مدة طويلة تقادم فيها العهد على شعائر أو طقوس تنسيق الأزهار على صدرها ، تحولت هذه العادة إلى كناية أو استعارة ، بحيث تعنى عبارة « تنسيق الأزهار » فى لغتهما الخاصة عملية الاتصال الجنسى ، وتذكرهما هذه الكناية بتلك الشعائر التى أهملت بعد أن كانت مفتاح علاقتهما الجسدية . ثم إن هذه الطريقة الخاصة فى التعبير عن « الاتصال الجنسى » ليس لها المعنى الحاد المحدد لمرادفها المعتاد . ذلك أنه مهما كان الاتصال الجنسى بكل أنواع النساء متشابهاً ، بحيث يمكننا وصف تفصيلاته مقدماً ، إلا أنه يغدو اتصالا ناضراً ومتعة مثيرة إذا كانت المرأة المعينة مقترنة فى تفكيرنا بأنها صعبة المنال — ولو فى وهمنا فحسب — بحيث تحتاج إلى التذرع بالحيلة للوصول إلى امتلاكها ، كما فعل سوان بذريعة تنسيق تلك الأزهار . وارتجف وهو يأمل فى تلك الأمسية الأولى (وإن قال لنفسه : إن أوديت إن انخدعت بحيلته وخطته ، فلن تفهم أو تخمن مقصده منها) أن يصل إلى امتلاك تلك المرأة عن طريق هذه البتلات الزهرية الكبيرة الغنية بألوانها ، وبدت له تلك المتعة التى شعر ببوادرها فعلا وكأنها لم توجد من قبل ، لأنه هو الذى يكافح الآن لإبداعها ، فهى متعة متفردة بجدتها ، لا بد له من ابتكار اسم خاص لها يحفظ عليها هويتها .

* * *

ومنذ تحطم الجليد بينهما ، صار كلما صحبها بعربته كل مساء إلى بيتها يتبعها حتماً إلى الداخل . وكثيراً ما كانت تخرج فى ثياب نومها وروبها لتشيعه إلى عربته ، وتقبله تحت بصر حوذيه قائلة :

— وما أهمية أن يرانا الناس ؟

وفى الليالى التى يتخلف فيها عن الذهاب إلى بيت آل فرديران (وهو ما صار يحدث أحياناً ، لتوفر وسيلة لقائه بأوديت فى مكان آخر) وصار يذهب — بندرة متزايدة — إلى المجتمعات الراقية ، كانت أوديت ترجوه أن يأتى إليها وهو فى طريقه إلى بيته ، مهما كان الوقت متأخراً .

وكان الوقت ربيعاً ، والليالى صافية كثيرة الصقيع ، فيخرج من حفلة ساهرة ويثب إلى عربته المكشوفة ، ويغطى ركبتيه ببطانية ، ويقول لأصحابه الذين يلحون عليه أن يأخذهم معه إلى بيوتهم إنه لا يستطيع ذلك لأنه ليس ذاهباً فى اتجاه منازلهم ، وعندئذ ينطلق الحوذى بكل سرعة الركض بدون أمر يتفوه به سيده ، لعلمه سلفاً أين ينبغى أن يذهب . ويترك أصحابه متعجبين من أمره . والواقع أن سوان لم يعد الرجل الذى يعهدونه : فلا أحد منهم يتلقى الآن منه خطاباً يطلب تقديمه إلى امرأة . وكف عن الاهتمام بالنساء ، وصار ينأى بنفسه عن الأماكن التى توجد بها النساء عادة . وفى المطعم ، أو فى الريف ، سلوكه الآن نقيض ما كان يعهده فيه أصحابه من سماته الدائمة الثابتة قبل بضعة أيام . وإلى هذه الدرجة يتجلى العشق فينا

وكأنه طبع جديد متميز مؤقت ، يحل محل طبعنا المألوف ، وينسخ أماراته . ومن جهة أخرى صارت لسوان عادة جديدة لا تتغير ، وهى أنه أياً كان مكان سهرته لا يمكن أن يغفل الذهاب بعدها مباشرة لدى أوديت . وبعد الشقة بين هذا المكان وبين بيتها لا يحول بينه وبين اجتياز هذه المسافة حتماً . والحقيقة أنه فى أحيان كثيرة عندما تمتد سهرته إلى ساعة متأخرة جداً ، كان يفضل لو ذهب إلى بيته فوراً ، من غير أن يقطع هذه المسافة الطويلة إلى بيتها ، مرجئاً لقاءهما إلى الغد ، ولكن إحساسه بما يتطلبه ذلك من جهد فى سبيل زيارتها ، وعلمه أن أصحابه يقولون عنه إنه صار مكبلا تماماً بامرأة تصر على أن يزورها فى أى ساعة ، كل ذلك كان يشعره بأنه يعيش حياة تلك الفئة التى يلون الغرام حياتها ، بحيث يحس العاشق أن تضحيته براحته ومصالحه الخاصة مصدر سحر روحى خاص .

ولعله لم يكن واعياً تماماً بهذا الإحساس ، ولكن علمه بأن أوديت تنتظره يقيناً ، وأنها فى بيتها وليست فى أى مكان آخر ، أو مع أى أحد آخر ، وأنه سيراها قبل ذهابه لبيته ، كل هذا كان يستل منه لذعة ذلك الكرب الذى انتابه ليلة ذهب إلى بيت آل فردبران فوجدها بارحته وراح يبحث عنها كالمجنون . فاختفاء هذا الكرب والقلق كان أقرب شىء عنده إلى الشعور بالسعادة .

ولعل تلك الساعة من الكرب والقلق واللهفة هى مبعث ما صار لأوديت من أهمية كبرى لدى سوان : والآخرون ، عندما نكل إلى

واحد منهم سلطة تسبيب التعاسة البالغة أو السعادة البالغة لنا ، يبدو لنا هذا الشخص كما لو كان منتمياً إلى كون مختلف ، يكتنفه الشعر ولم يكن بوسع سوان أن يسأل نفسه بدون قلق ماذا يمكن أن تعنى أوديت فى الأعوام القادمة . وأحياناً ، عندما كان يرفع رأسه وهو فى عربته المكشوفة فى تلك الليالى البديعة الباردة من أوائل الربيع ، فيرى أشعة القمر تسقط بين عينيه وبين الشوارع المقفرة ، عندئذ كان يفكر فى ذلك الوجه الآخر المتألق مثل وجه القمر ، الذى طلع فى أفق عقله ذات يوم ، ومنذ ذلك اليوم وهو يسكب على الدنيا ذلك الضوء الغامض الذى يراها سابحة فيه .

وكان إذا وصل بعد الساعة التى ترسل فيها أوديت خدمها إلى مضاجعهم ، دار أولا حول البيت وذهب إلى الشارع الخلفى قبل أن يرن الجرس المثبت عند بوابة حديقتها الصغيرة . فعلى الشارع الخلفى تطل حجرة نومها . وتبدو له كل البيوت المتجاورة هناك متشابهة مظلمة ، ما عدا نافذة مخدعها المضاءة ، التى فى مستوى كتفه ، فيدق بخفة على الزجاج ، وتسمع هى هذه الإشارة وتلبيها بصوتها قبل أن تجرى لمقابلته عند البوابة . ويجد على البيانو نوتات مفتوحة لبعض معزوفاتها المفضلة ، مثل « فالس الورد » و « المجنون المسكين » من موسيقى تليافيكو Tagliafico (وقد نصت فى وصيتها على أن تعزف فى جنازتها) ولكنه بدلا من هذه الموسيقى يطلب إليها أن تعزف له الجملة الموسيقية الصغيرة من سوناتة فانتى ... فهذه الجملة

لم تزل مقترنة فى ذهن سوان بحبه لأوديت . وكان واعياً فى الوقت نفسه أن صفات أوديت لا تكفى فى ذاتها لتبرير ما يعزوه من قيمة للساعات التى قضاها فى صحبتها . وكثيراً ما كان – عندما يعلو صوت العقل على كل ما عداه – يعتقد أنه ما كان ينبغى له أن يضحى بكل هذه الاهتمامات الثقافية والاجتماعية فى سبيل هذه اللذة الموهومة ؛ ولكن ما إن تصافح أذنيه أنغام هذه الجملة الموسيقية حتى تتغير النسبة بين ملكاته النفسية ، ويخلو فى نفسه مكان لا يمكن أن تشغله لذة خارجية عدا حبه لأوديت . ولكن هذا الحب فريد فى بابه ، لأنه يتخذ لديه قيمة موضوعية أعلى من حقيقة الأشياء الأخرى المحسوسة ؛ وتوقظ هذه الجملة الموسيقية لديه هذا الظمأ الأول لفتنة لم يتذوقها بعد ، ولكن من غير أن تكفى بذاتها لإرواء هذا الظمأ .

فالواقع أن هذه الجملة الموسيقية تمحو من نفسه كل اهتمام بالأمور الدنيوية ، وتترك صفحاتها خالية تماماً ، بحيث يتسنى له أن يكتب فيها اسم أوديت . وعندما تبدو عاطفته نحو أوديت مخيبة للآمال بعض الشىء ، تنبرى هذه الجملة الموسيقية لتكملة ما يوجد من نقص ، وتلتحم بجوهر هذه العاطفة . فمن يرقب وجه سوان وهو مصغ لهذه الجملة يخيل إليه أنه يستنشق مخدراً يسمح له بالتنفس بمزيد من الحرية والعمق .. وإحساسه بهذه الجملة شبيه بما تحدثه فى حسه تجاربه فى إبداع العطور الجديدة من لذة عميقة . فهو إحساس أقرب للراحة العميقة والانتعاش الغامض ، فكأنما قد صار مخلوقاً غريباً عن



وتوقظ هذه الجملة الموسيقية لديه هذا الظما الأول لفتنة لم يتذوقها بعد ، ولكن من غير أن تكفي بذاتها لإرواء هذا الظما ..

البشرية : مخلوقاً أعمى ، محروماً من ملكاته المنطقية ، فهو حيوان خرافى لا وعى له بالعالم إلا عن طريق أذنيه فحسب . وهكذا يطلب هذه الجملة الموسيقية المعينة كى يتجرد من درع عقله ، ويغوص بأعماق سريرته وروحه إلى أغوار عالم الصوت المظلم . وبدأ يدرك كم كان هذا مؤلماً ، بل كم يكمن تحت عذوبة الجملة الكثير من الأسى الخفى والحزن الذى لا يخمد ، ومع هذا لم تكن هذه الجملة تشعره بالمعاناة أو العذاب . وما أهمية أن تكرر هذه الجملة كل مرة الإيحاء بأن الحب رهيف هش عابر ، بينما حبه هو بكل هذه القوة !

لقد كان يلهو ويتلهى بهذه السوداوية التى تشيعها الجملة ، ويشعربها تكتنفه، وتغمره بما يشبه المداعبة التى تعمق وتحلى إحساسه بسعادته . ويطلب من أوديت أن تعزف الجملة عشرة، وعشرين مرة، تباعاً ، مصراً على أن تظل تقبله طوال قيامها بالعزف . وكل قبلة تثير قبلة تتلوها . وطبيعى جداً أن القبلات تنبرى للحياة فى تلك الأيام الأولى من باكورة الحب . ويعجز العاشقان عن إحصاء قبلاتهما فى ساعة واحدة من الزمان، مثلما يعجزان عن إحصاء الأزهار التى أنبتها شهر مايو فى أحد المروج . ثم تتظاهر بالتوقف عن العزف قائلة :

ــ كيف تريدنى أن أتمكن من العزف وأنت تحتضننى هكذا ؟ أنا لا أستطيع أن أصنع كل شىء فى آن واحد . استقر على رأى فيما تريده بالضبط . أتريدنى أن أعزف ، أم تريد أن تلهو معى ؟

وعندئذ يتضايق ، وعندئذ تنفجر ضاحكة ، ضحكة لا تلبث

أن تنهمر عليه بوابل من القبل ! أو تنظر إليه مقطبة متجهمة ، فيرى عندئذ وجهاً كان جديراً بأن يظهر فى لوحة بوتتشيلى «حياة موسى» ، فيميل رأس أوديت ليأخذ الوضع المتسق مع هذه اللوحة . وينتشى حسه الفنى ، ويتذكر أن هذه الرائعة من روائع القرن الخامس عشر على حائط كنيسة سكستين ، كائن حى موجود معه فى حجرة واحدة إلى جوار البيانو فى هذه اللحظة ، وعلى استعداد للتقبيل والمضاجعة ، فيستولى عليه من وجودها المادى المحسوس انتشاء جارف ، ويلقى بنفسه مفتوح الفم ، جاحظ العينين ، فوقها كأنما يهم بالتهامها ، ويقبل «عذراء بوتتشيلى» ويعض خديها كما يشتهى .

وما إن يغادر بيتها ، حتى يعود ليقبلها من جديد ، لأنه نسى أن يأخذ معه فى طوايا ذاكرته إحدى تفصيلات ملامحها أو نكهتها ، ثم وهوفى عربته يبارك قلبه أوديت التى سمحت له بهذه الزيارات اليومية، وإن كان يشعر أنها لا تسبب لها سعادة كبرى ، ولكنها على كل حال تحصنه ضد حمى الغيرة ، أو ذلك الكرب الذى استبد به فى تلك الليلة التى وجدها فيها قد غادرت بيت آل فرديران . ويلاحظ وهو يتطلع إلى السماء أن القمر غير موضعه وكاد يلامس الأفق . ويخطر له أن حبه ــ مثل القمر ــ خاضع ولا شك لقوانين الطبيعة الثابتة ، فيسأل نفسه هل ترى هذه المرحلة من حبه مقدر لها أن تستمر طويلاً، أم سيحين وقت قريب يلاحظ فيه عقله أن هذه السحنة الغالية صارت تشغل منه وضعاً يقلل من فتنتها ويبعدها عنه : ذلك أن سوان صار

يجد فى الأشياء ، كرة أخرى ، منذ وقع فى الحب ، ذلك السحر الذى كان قد وجده وهو مراهق ، حينما خال نفسه فناناً . وكل ما هناك من فارق بين الحالتين ، أن ما فى الأشياء من سحر تضفيه عليها أوديت دون سواها . وها هو الآن يشعر بأن إلهامات صباه تستيقظ فيه ، بعد أن كانت قد تبددت بين تفاهات الحياة . إلا أن هذه الإلهامات تحمل طابع كائن معين . وهكذا صار يجد لذة فى قضاء ساعات طويلة فى بيته ، فى خلوة مع نفسه الناقهة ، فقد استرد نفسه ، ولكن فى اندماج مع كائن آخر .

* * *

كان يذهب إليها فى الليل فقط ، ولم يكن يدرى شيئاً عن كيفية قضائها وقتها أثناء النهار ، كما لا يعرف شيئاً عن ماضيها : فما كان يعرفه عنها كان من الضآلة بحيث لا يتيح له أى أثر يتعقبه ويتخيل على أساسه ما يجهله ، أو يثير لديه الرغبة فى المعرفة . ولذا لم يسأل نفسه قط ماذا عساها تصنع ، ولا كيف كانت حياتها . وكل ما هناك أنه كان يبتسم أحياناً عندما يتذكر أن أحدهم حدثه منذ سنوات ـ قبل أن يعرف أوديت ـ عن امرأة ـ إن لم تخنه ذاكرته ـ لا بد أنها أوديت ، وكيف وصفها بأنها « عاهرة » و « امرأة محازة » ، أى واحدة من تلك النساء اللواتى كان يتصور ـ لجهله بهن ـ أنهن يتصفن بكل الانحلال الذى صورهن به بعض الروائيين على مدى سنوات طويلة ، حتى استقر ذلك فى الأذهان : وعندئذ يقول لنفسه

إن على المرء كى يحكم حكماً منصفاً على أى أحد ، أن يأخذ الجانب المناقض لسمعة هذا الشخص عند عامة الناس . فأوديت تبدو له غاية فى الطيبة والبساطة والتحمس للمثل العليا ، وتكاد تعجز عن الكذب ، حتى أنه عندما أحب أن يتعشى معها ذات ليلة على انفراد ، وطلب منها أن تكتب إلى مدام فرديران قائلة : إنها متوعكة ولذا تعتذر عن الحضور تلك الليلة . وأجابته إلى طلبه . ولكنه رآها فى اليوم التالى عندما سألتها مدام فرديران هل شفيت من وعكتها ، تحمر خجلا ، وتتلعثم ، وتفضح كذبتها بهذا الارتباك ، فأدرك كم يتنافى الكذب مع طبعها المستقيم .

وفى بعض الأيام ـ وإن كانت نادرة ـ قد تزوره بعد الظهر ، فتقطع عليه انشغاله ببحثه عن فرمير الذى استأنف كتابته . ويقول له الخادم : إن مدام دى كريسى فى الصالون الصغير ، ويذهب ليأتى بها ، وعندما يفتح الباب تطالعه بهذه الابتسامة الخاصة بها ، التى رآها لأول مرة ليلة سألها وهما فى العربة ألديها مانع من أن يثبت الزهور فى فتحة صدرها . ولما كان يجهل كل شىء عنها فقد تخيل حياتها صفحة بيضاء كأنها الخلفية المحايدة ، مثل اسكتشات واتو Watteau التى يرى المرء على صفحاتها ابتسامات شتى فى كل ركن منها ، مرسومة بثلاثة ألوان .

ولكن صديقاً له فطن إلى علاقة الحب بينه وبين أوديت قال له ذات يوم : إنه رآها فى الصباح . ووصف له قوامها وهى سائرة

على قدميها فى شارع أباتوتشى Abbattucci لابسة كاباً وقبعة من طراز رمبرانت Rembrandt ، وعلى صدرها باقة من البنفسج : فكان هذا الوصف البسيط كافياً لإشاعة البلبلة فى نفس سوان ، لأنه أدرك من خلاله فجأة أن لأوديت وجوداً ليس خاضعاً لوجوده كل الخضوع ، فتحرق شوقاً لمعرفة من ذا الذى كانت تسعى لفتنته بهذا الزى الذى لم يرها فيه قط . وآلى على نفسه أن يلح عليها كى تخبره أين كانت ذاهبة فى تلك اللحظة . كأنما ليس فى حياتها عدا ابتساماتها له والساعات التى تقضيها معه إلا هذا الحادث الواحد ، حادث سيرها بقبعة من طراز رمبرانت وعلى صدرها باقة من البنفسج .

* * *

وفيما عدا طلب سوان من أوديت عزف جملة « فانتى » الموسيقية الصغيرة . بدلا من « فالس الورد » ، لم يحاول سوان مطلقاً أن يغريها بعزف الأشياء التى يفضلها شخصياً . ولا حاول فى الأدب أو الموسيقى تصحيح أخطائها الكثيرة فى الذوق . فقد أدرك تماماً أنها لم تكن ذكية . وعندما قالت كم تود أن يحدثها عن الشعراء الكبار ؟ توقعت أن يدلها على أشد الصفحات رومانسية فى الشعر ، على غرار أشعار الفيكونت دى بوريلى De Borelli ، أو ما هو أشد من ذلك تحريكاً للمشاعر . أما عن فرمير فقد اكتفت بسؤاله هل عانى هذا الرسام العذاب بسبب امرأة . وهل كانت له ملهمة من النساء . ولما قال لها

سوان أن لا أحد يدرى بالضبط ، فقدت كل اهتمام بذلك الرسام ، وكثيراً ما كانت تقول :

ـ أنا على يقين أنه لن يكون هناك شىء يعادل الشعر بالطبع لو كان كله صادقاً ، وكان الشعراء حقاً مؤمنين بما يقولون . ولكن الراجح أنك لن تجد من هو أخس ولا أمكر من هؤلاء الناس : أنا أعرف بعض الشىء عن الشعر . فقد كانت لى يوماً ما صديقة عاشقة لشاعر ردىء ، لم يكن يتحدث فى شعره إلا عن الحب والسماء والنجوم . فانخدعت فيه ! وتمكن من ابتزاز ما يزيد عن ثلاثمائة ألف فرنك منها قبل أن يتركها !

وإذا حاول سوان أن يريها كنه الجمال الفنى ، وكيف ينبغى للمرء أن يقدر الشعر أو الرسم ، كفت بعد دقيقة أو دقيقتين عن الإصغاء ، قائلة :

ـ آه . لم يخطر قط ببالى أن الأمر هكذا .

فيشعر أن خيبة أملها عظيمة جداً ، بحيث يفضل بعد ذلك أن يكذب عليها ، مؤكداً لها أن ما قاله سابقاً ليس صحيحاً كله ، وأنه إنما مس الأمور مساً سطحياً ، وأنه لم يتسع أمامه الوقت للإحاطة بأطراف الموضوع . وعندئذ تقاطعه قائلة :

ـ أهناك ما هو أكثر مما قلت أيضاً ؟.. أخبرنى !

ولكنه لا يخبرها بشىء ، لعلمه أن ما سيقوله شديد الاختلاف عما تتوقعه وأقل إثارة وتحريكاً للمشاعر . ولأنه خشى كما خاب

أملها فى الفن ، أن يخيب أملها فى الحب ! وكانت النتيجة أنها وجدت سوان أقل ثقافة مما كانت تظن ، وكانت تقول له :

ـ أنت دائماً شديد التحفظ ، ولا أستطيع أن أفهمك :

وازداد عجبها من قلة اكتراثه بالمال ، ومن تهذيبه مع الجميع على السواء ، ومن رهافة ذهنه ... ثم كان هناك الاحترام الذى تشعر به أوديت نحو مركز سوان الاجتماعى ، وإن لم ترغب فى أن يحصل لها على دعوات . ولعلها غالباً كانت تخشى إذا فاتح سوان أحداً فى أمرها ، أن يستثير تصريحات غير مستحبة عنها . والواقع أنها قيدته دائماً بوعده لها ألا يذكر اسمها لأى أحد إطلاقاً . وكان السبب الذى تذرعت به لعدم الرغبة فى غشيان المجتمع ، كما قالت له ، شجار نشب بينها وبين فتاة أخرى منذ زمن بعيد ، وأن تلك الفتاة انتقمت منها بإشاعة أقوال فظيعة عنها . واعترض سوان بأنه لا يمكن أن يكون كل الناس من معارف هذه الفتاة ، فأجابته أوديت بأن كلمة السوء تنتشر مثل بقعة الزيت ، والناس فى غاية السوء ! ولم يستطع سوان أن يقتنع بهذا الرأى العام عن الناس وعن كلمة السوء ، ولكنه فى الوقت نفسه رأى أن شيوع هذا الاعتقاد دليل على صدقه أحياناً . أليس من الجائز إذن أن تكون حالة أوديت مما ينطبق عليه هذا الاعتقاد ؟

وجعل يغيظ نفسه بهذا السؤال ، إلا أنه لم يمض فى ذلك طويلا ، لأنه كان فريسة ذلك الضغط النفسى الذى كان يرهق أباه من قبل ،

كلما واجهته مشكلة صعبة . ولعل ذلك المجتمع الذى ألهم أوديت بذلك الرعب ، ولم تكن تواقة لدخوله ، لبعده الشديد عن العالم الذى كانت تعرفه بالفعل ، بحيث يتعذر عليها أن تكوّن عنه فكرة واضحة . وفى الوقت نفسه كانت شديدة السذاجة فى علاقاتها الاجتماعية (فهى مثلا احتفظت بصداقة خياطة متواضعة ، تقاعدت حالياً عن العمل ، وتواظب على صعود سلمها المظلم الشديد الانحدار النتن الرائحة كل يوم تقريباً) ، وفى الوقت نفسه كانت ظمآنة إلى مجاراة أحدث الموضات ، مع أن فكرتها عن الموضة لا تطابق فكرة الخبراء فيها فعلا . فالموضة فى نظر هؤلاء الخبراء تصدر عن عدد صغير نسبياً من زعمائها ، ومنهم تنتشر على أوسع نطاق من أصدقائهم وأصدقاء أصدقائهم ، الذين تكون أسماؤهم فهرستاً ثابتاً فى المجتمع . وأهل « المجتمع » يحفظون هذا الفهرس عن ظهر قلب ، ولهم بهذا الموضوع دراية أكسبتهم ذوقاً خاصاً تلقائياً . فسوان مثلا لا يحتاج إلى استنفار معرفته بالدنيا ، إذا قرأ فى إحدى الصحف أسماء من كانوا ضيوفاً على مائدة عشاء ، بل يمكنه على الفور أن يستنتج من ذلك مستوى هذه المأدبة . تماماً كما يستطيع رجل الأدب من مجرد قراءة عبارة واحدة أن يقدر بالضبط القيمة الأدبية للمؤلف . ولكن أوديت كانت من الأشخاص الذين لا معرفة لهم بهذه الناحية ، بل تتخيل الموضة شيئاً مختلفاً تماماً ، وتتخذ مظاهر مختلفة على حسب الدائرة

التى ينتمى إليها الشخص . إلا أنها على كل حال متاحة لجميع الناس::
ولكن هناك فى رأيها أماكن « وجيهة » :

ولو سألها سوان ماذا تعنى بهذا لقالت ، بشىء من الزراية :

ــ الأماكن الوجيهة ! عجيب أن تحتاج فى سنك هذه إلى من يخبرك ما هى الأماكن الوجيهة فى باريس ! ماذا تتوقع منى أن أقول ؟ فى صباح يوم الأحد مثلا هناك شارع الإمبراطورة ، وما حول البحيرة فى الخامسة بعد الظهر ، وفى يوم الخميس هناك مسرح عدن ، وميدان سباق الخيل يوم الجمعة .. ثم هناك الحفلات الراقصة .

ــ أية حفلات راقصة ؟

ــ يا للغباء ! الحفلات الراقصة التى يقيمها الناس فى باريس. الحفلات الأنيقة طبعاً . انتظر قليلا . لقد تذكرت مثلا هربنجيه Herbinger . وأنت تعرف طبعاً من أعنى . إنه شخص يعمل فى أحد مكاتب السمسرة الكبرى . نعم : طبعاً أنت تعرفه حتماً . إنه من أشهر الناس فى باريس ! شاب ضخم أشقر الشعر ، يختال فى أفخر الثياب ، وهناك دائماً زهرة فى عروة سترته وله معطف فاتح اللون فى ظهره كسرة ، ويظهر دائماً مع امرأة عجوز ، ويصحبها إلى كل الليالى الافتتاحية . وقد أقام حفلة راقصة منذ بضع ليال ، حضرها كل أهل الأناقة والوجاهة فى باريس . وكم كنت أحب أن أذهب ! ولكن كان لابد من إبراز دعوتك عند الباب ، ولم أستطع الحصول على دعوة من أى مكان . ولكنى فى النهاية سررت لأنى

لم أذهب ، لأنى كنت حتماً سأوطأ بالأقدام من شدة الزحام ، ولا أرى شيئاً . ومع هذا يكفى أن يقول المرء إنه كان حاضراً حفل هربنجيه الراقص . وأنت تعرف كم أنا مغرورة . إلا أنه يمكن أن توقن بأن نصف من قالوا إنهم كانوا هناك كذابون ... ولكنى مندهشة من أنك لم تكن هناك . وأنت الوجيه الأمثل !

ولم يحاول سوان تصحيح تصورها هذا للأناقة والوجاهة ، لإحساسه أن تصوره لها شخصياً تصور خاطئ أيضاً ، ولا أهمية له، ولذا لم يجد جدوى للإفضاء به إلى عشيقته ، بحيث إنها بعد بضعة أشهر لم تعد تبدى اهتماماً بالبيوتات التى يتردد عليها ، اللهم إلا عندما تكون هناك وسائل لحصوله هناك على تذاكر تدخلها الحقول الملحقة بإسطبلات السباق ، أو ليالى الافتتاح فى المسارح . ففى هذه الحالة كانت تتمنى أن تستمر معرفته بهؤلاء الناس وتنمو ، إلا أنها صارت تعدهم أقل وجاهة منذ مرت فى الشارع بالمركيزة دى فلباريزى Villeperisis ورأتها مرتدية ثوباً أسود من القماش العادى وقلنسوة ذات شرائط . فصاحت مستنكرة :

ــ ولكنها تبدو كالخادمة يا عزيزى ! أهذه مركيزة ؟ الله يعلم أنى لست مركيزة . ولكنك لابد أن تدفع لى مبلغاً باهظاً من المال لكى أقبل الظهور فى شوارع باريس بهذا الزى الزرى !

ولم تستطع أن تفهم سر استمرار سوان فى السكن ببيته على

« رصيف أورليان » Quai D·orléans ، الذى كانت تعده غير لائق به ، وإن لم تقل له هذا :

أجل إنها كانت تزعم أنها مغرمة بالعاديات ، وتبدى النشوة البالغة وهى تعترف كم تحب أن تقضى طول النهار وهى « تنقب » فى محلات الأشياء المستعملة بحثاً عن أثاث ينتمى إلى « العصر المناسب » . ومع أنها كانت حريصة كل الحرص وبكل إصرار على ألا تجيب أبداً عن أى أسئلة أوتدلى بأى بيانات عن كيفية قضائها يومها ، إلا أنها حدثت سوان ذات مرة عن صديقة زارت بيتها بدعوة منها ، فوجدت كل شيء فيه ينتمى إلى « ذات العصر » . ولم يستطع سوان أن يستخلص منها أى عصر كان ذلك . ولكنها بعد لأى قالت : إنه العصر الوسيط ! واتضح بعد ذلك أنها تعنى أن الحوائط كانت مبطنة بالخشب . وبعد فترة من الزمن حدثته مرة أخرى عن صديقتها ، وأضافت ـ فى لهجة مترددة ولكنها واثقة كتلك اللهجة التى يتحدث بها المرء عن شخص قابله بمكان ما على العشاء ، ولكن أصحاب الدار كانوا يعدونه مشهوراً وذا شأن ـ إن حجرة مائدتها من القرن الثامن عشر . ولكنها كانت تعتقد فى الوقت نفسه أن شكلها بشع ، وعارية من الزخارف . وأن النساء كنّ يبدين فيها فظيعات ، فلا شك أنها حجرة لا تتفق والذوق الأنيق أو الموضة . وأشارت إلى هذه الصديقة مرة ثالثة حين أطلعت سوان على اسم وعنوان الرجل الذى صمم حجرة المائدة ، وقالت إنها تريد أن تستدعيه عندما يتوفر لديها

المال الكافى ، لتسأله أن يصنع لها مثل تلك الحجرة ! ليس مثلها بالضبط طبعاً ، بل حجرة فى مستوى إتقانها ولكنها أشبه بما تحلم به ، ولكن بيتها الصغير لسوء الطالع لن يتسع لها ، لأنها تريدها من طراز عصر النهضة الضخم الفخم ، وبمدفأة مثل تلك الموجودة فى قصر بلوا Blois . وفى هذه المناسبة صارحت سوان برأيها فى مقره برصيف أورليان . قالت بلهجة ربة البيت البرجوازية :

ـ صديقتى لا يمكن أن ترضى مثلك بالسكن وسط كراسى محطمة وأبسطة بالية !

وكانت تضع أصحاب الذوق فى انتقاء وتسقط الأشياء الجميلة ، ومن يعجبون بالشعر ، ويحتقرون حسابات الكسب والخسارة ولهم مثل عليا فى الشرف والحب ، فى طبقة خاصة بهم ، أعلى من سائر البشرية . ولم تكن هناك حاجة فى نظرها للاتصاف بهذه الأذواق ، بشرط أن يستطيع المرء الكلام عنها باستفاضة . وعندما يقول لها رجل ما على مائدة عشاء : إنه يحب أن يجوب الأزقة ، ويغطى الغبار والتراب يديه فى محلات الأثاث العتيق ، وإنه لا يكترث بالعصور ذات القيمة التجارية ، تعود إلى بيتها وهو تقول :

ـ إنه لشخص رائع ، شديد الحساسية ! لم أكن أظنه كذلك !

ثم تحس نحوه بصداقة وثيقة : ولكن من ناحية أخرى ، كان أمثال سوان ممن يملكون الذوق الرفيع فعلا ولكنهم لا يتشدقون به ،

لا يحركون عواطفها . وكانت تعتقد فعلا أن سوان شديد السخاء بماله ، ولكنها تردف ذلك بقولها متذمرة :

ـ ولكن ذلك ليس ما عنيته بالذوق الرفيع .

فما يجذبها ليس النزاهة ، بل التشدق بها !

ولما كان قد شعر بهذا ، وبأنه لا يستطيع أن يتيح لها المتع التى تحلم بها ، لذا كان يحاول على الأقل أن يكفل لها السعادة فى صحبته ، بألا يعارض أفكارها السوقية ولا ذوقها الفاسد الذى كانت تكشف عنه فى كل مناسبة ممكنة ، وهو ذوق كان يحبه من أجلها لأنه لا يسعه إلا أن يحب كل شىء يصدر منها ، فعيوب المرأة المحبوبة تبرز تفردها أكثر مما تبرزه محاسنها ! وهكذا عندما تكون فى حالة انتعاش لأنها ذاهبة لرؤية «الملكة توباز» Reine Topaze ، أو عندما تكون عيناها جادتين ومضطربتين إن خشيت التأخر عن معرض الزهور ، أو حتى لمجرد التأخر عن موعد الشاى مع الفطائر والتوست فى محلات الشاى بشارع « رويال » ـ حيث تعتقد أن تناول الشاى هناك بانتظام أمر لا غنى عنه ، لأنه يضفى على المرأة الشهادة المعتمدة بأناقتها ووجاهتها ، عندئذ يستطير السرور سوان لهذه السذاجة ، مثلما يستخفنا جميعاً السرور أمام مسلك طفل برىء ، ويقبل على عشيقته بكل مرح وبشاشة ، ليقول لها :

ـ أوه ! إذن أوديت الصغيرة تريد منا أن نأخذها إلى معرض الزهور . أليس كذلك ؟ وتريد أن يعجب بها الناس هناك ؟ وهو

كذلك ! سنأخذها إلى هناك ، فليس فى وسعنا إلا أن نطيع رغباتها :

ولما كان نظر سوان قد بدأ يضعف ، كان لابد له أن يلبس نظارة ، عندما ينكب على العمل فى المنزل . أما عندما يواجه العالم فإنه يستخدم مونوكلا (نظارة زجاجية لعين واحدة) لأنه أقل تشويهاً للوجه . وعندما رأته لأول مرة بهذا المونوكل لم تتمالك نفسها من شدة الطرب وصاحت :

ـ أعتقد أنه ، أعنى بالنسبة لرجل ، شىء غاية فى الوجاهة ! كم تبدو وسيماً به ! كل سنتيمتر فيك يقول إنك جنتلمان . وكل ما ينقصك الآن أن تحصل على لقب !

وكانت نبرتها فى العبارة الأخيرة تفيض أسى وحسرة . وكان يحب من أوديت أن تقول هذه الأشياء ، تماماً كما كان يمتعه ـ عندما أحب فتاة من مقاطعة بريطانيا ـ أن تبدو فى زيها المحلى ، وتقول إنها تؤمن بوجود الأشباح . وهكذا نجد أناساً كثيرين تنمو أذواقهم فى الفنون الجميلة مستقلة تماماً عن حساسيتهم الشهوانية : ومن هنا كان هذا التفاوت الجسيم بين ما يرضى كلا النوعين من الذوق عند سوان ، حتى غدا ذوقه الفنى مع الأيام يزداد رهافة فى حين تزداد متعته بمصاحبة نساء يزددن مع الزمن أمية وسوقية . ولذا من الممكن أن تراه يأخذ خادمة يافعة إلى لوج له ستائر فى مسرح تعرض به مسرحية منحطة ، أو إلى معرض للرسوم الانطباعية ، معتقداً أن إحدى نساء المجتمع الراقى ما كانت لتزيد عنها فهماً لتلك

اللوحات ، ولكنها ما كانت لتلتزم الصمت المريح المهذب مثل هذه الخادمة . أما الآن وقد عشق أوديت ، فقد تغير هذا كله ، وصارت مشاركتها ما تميل إليه مهمة محببة إليه ، حتى أنه صار يحاول أن يجد الرضا والمتعة فى الأشياء التى تحبها هى . وصار لا يجد متعة ولذة فى محاكاة عاداتها فحسب ، بل أيضاً فى اعتناق آرائها . وهذه مسألة أخطر وأعمق ، لأن عاداتها وآراءها لم تكن نابعة من جذور فى عقلها أو ذكائها ، ولكنه مع ذلك يعتنقها حباً لها هى ، وصار يفضلها على عاداته وآرائه شخصياً ! وهكذا صار يرتاد حفلات موسيقية معينة ـ لم تكن تخطر بباله ـ لمجرد مشاركتها فى ذوقها . وصارت جاذبية اختياراتها أحب إليه من ارتياد الأماكن التى كان يحبها لجمالها الموضوعى ولكنها لا تذكره بأوديت . وكان مع نضجه قد صار شكوكياً ، يعتقد أن الموضوعات التى تعجب بها ليست لها قيمة مطلقة فى حد ذاتها ، وأن المسألة كلها مسألة تواريخ ، ووجهات نظر ، وموضات متعاقبة . وأن أشدها سوقية لها نفس قيمة ما نحسبه غاية فى الرهافة . ولما كان قد قرر أن الأهمية التى تعلقها أوديت على تلقى بطاقات الدعوة لعرض خاص ليست فى حد ذاتها أسخف من المتعة التى كان يحسها يوماً ما فى التوجه لتناول الغداء مع أمير ويلز ، لذا لم يعتقد أن إعجابها بمونت كارلو أو الريجى Righi ليس منافياً للمعقول أكثر من حبه شخصياً لهولندة (التى كانت تخالها قبيحة) ، ولفرساى (التى كان تضجرها إلى حد البكاء) ، ولذا حرم نفسه

لذة الذهاب إلى تلك الأماكن التى يحبها ، معزياً نفسه بأنه إنما يريد ألا يشعر بشىء أو يحب شيئاً إلا ما تشعر به هى وتحبه .

* * *

ومثل أى شىء آخر من عناصر بيئة أوديت ، التى تتيح له أكبر الفرص للوجود معها ، صار سوان يستمتع بمجتمع آل فرديران ، بما يستتبع ذلك من كل حفلاتهما ، ومآدب العشاء ، والأمسيات الموسيقية ، والألعاب ، وحفلات العشاء المتأخر فى ملابس تنكرية ، والرحلات إلى الريف ، والحفلات المسرحية ، بل والسهرات الموسعة النادرة التى يدعوان إليها « السمجين » : فما دامت أوديت حاضرة ، ومرآها متاحاً ، والحديث معها ميسوراً ، فهو فى غاية السرور لدعوة آل فرديران إياه إلى كل تلك المناسبات ، وإنه ليشعر فى هذه « الخلية الصغيرة » بمزيد من المتعة أكثر مما يشعر بها فى أى مكان آخر ، وجعل يجتهد فى تمحل وتوهم المزايا لكل عضو من أفرادها ، متخيلا أن ذوقه سيحمله على التردد على مجتمعهم سائر حياته . ولم يجسر على أن يهمس لنفسه ـ حتى لا يداخله الشك ـ بأنه سيحب أوديت على الدوام ، وإن أوحى لنفسه أنه سيظل يتردد دائماً على بيت آل فرديران (وهو فرض لم يثر فى البداية أى اعتراض من جانب ذكائه) وكان يخال نفسه دائماً مستمراً فى مقابلة أوديت كل مساء . وإن كان هذا لا يعنى بالضبط أنه سيكون دائماً عاشقاً لها :

ولكن ما دام فى الوقت الحاضر يحب أوديت ، فلا محل لتخيل أنه سينقطع يوماً واحداً عن رؤيتها : وكان يقول لنفسه :

— يا له من جو خاص ساحر ، ذلك الذى يعيش فيه هؤلاء الناس بهذه الأصالة ! فهم أذكى ، وأكثر فنية من جميع من أعرفهم . ومدام فرديران (برغم مبالغاتها اليسيرة المضحكة) شديدة الإخلاص فى حبها للرسم والموسيقى ! وكم هى مولعة بالأعمال الفنية ، وكم هى متلهفة على إدخال السرور على الفنانين ! وآراءها عن بعض الناس الذين أعرفهم ليست صائبة تماماً ، ولكن آراء هؤلاء الناس عن الأوساط الفنية خاطئة تماماً ! ولعلى لا أهتم كثيراً بالمستوى الثقافى للأحاديث ، ولكنى سعيد جداً بالتحدث إلى كوتار ، برغم غرامه بالتلاعب بالألفاظ والتورية . أما الرسام ، فهو متكلف حين يحاول التفوه بالمفارقات ، إلا أنه من أحسن العقول التى التقيت بها ... ثم إن أهم شىء أن المرء يشعر بتمام حريته هناك ، بحيث يصنع ما يحلو له دون ضغط أو حرج . فما أشد المرح الذى يسود هذا الصالون كل يوم ! وأنا بالقطع لا أرغب فى الذهاب إلى أى مكان آخر ، إلا فى حالات استثنائية نادرة . وسيصبح ذهابى إلى هناك كل يوم عادة متأصلة لدى ، وسوف أقضى ما بقى من عمرى فى صحبتهم .

ولما كانت الصفات التى افترضها جزءاً لا يتجزأ من طابع جماعة فرديران ، ليست أكثر من انعكاس سطحى فى الواقع للذة التى استمتع بها فى صحبتهم لحبه لأوديت ، إلا أن هذه الصفات صارت

أكثر جدية وأشد عمقاً وحيوية مع زيادة هذه المتعة : فمدام فرديران صارت تقدم لسوان ، بين حين وآخر ، الجوهر الأساسى لسعادته . ففى ذات ليلة شعر سوان بالقلق لأن أوديت تحدثت مع أحد أعضاء الندوة أكثر مما تحدثت مع سواه ، وبدافع ضيقه لم يظهر المبادأة كالعادة بسؤال أوديت أتود العودة إلى البيت ، وإذا بمدام فرديران تقوم بدور حمامة السلام وتسأل أوديت من تلقاء نفسها :

— أوديت ! ستوصلين مسيو سوان إلى بيته . أليس كذلك ؟

ولما حلت عطلة الصيف ، وكان يسائل نفسه أترى ستغادر أوديت باريس بدونه ، وهل سيتاح له فى الصيف أن يراها كل يوم ، وإذا بمدام فرديران تدعوهما معاً لقضاء الصيف معها فى الريف. وهكذا سمح سوان لهذا العرفان أن يتسرب إلى عقله وأفكاره ، وذهب إلى حد المناداة بمدام فرديران « نفساً عظيمة نبيلة ! » فلو حدث أن كلمه أحد رفاقه السابقين فى مدرسة اللوفر للرسم عن فنان نادر مرموق ، لأجابه إنه يفضل مائة مرة آل فرديران ، وأكد له بجدية طارئة عليه :

— إنهما شخصان فى منتهى الشهامة والسماحة . والسماحة بعد كل شىء هى الصفة الوحيدة ذات القيمة الحقيقية على وجه الأرض . وفى رأيى أن البشر نوعان : أهل السماحة فئة ، وسواهم فئة أخرى . وقد بلغت السن التى يجب أن أنحاز فيها لفئة منهما ، وأى الفئتين أحبها وأيهما أكرهها ، بحيث ألازم من أحبهم وأعوّض الوقت الذى

أضعته مع غيرهم ، ولا أفارقهم ما حييت . لقد حسم الأمر ، وقررت ألا أحب سوى النفوس السمحة ، التى لا يمكن أن يرقى المرء إليها بدون سمو عقلى . فمدام فرديران بلا مراء ذات فهم عميق للفن . ولكن هذا ليس أروع صفاتها ، فكل لفتة وعمل ودى صغير صدر منها لأجلى ، مهما بلغت بساطته ، ومهما كان مألوفاً ، يدل على وجود فيه شمولية أكثر من كل ما فى كتبك الفلسفية !

* * *

وكان من الممكن أن يذكر نفسه ، على كل حال ، بأن من بين أصدقاء أسرته القدامى من كانوا فى مثل بساطة آل فرديران ، وهم رفاق شبابه، وكانوا مثلهما أيضاً من حيث الشغف بالفن . ولكنه منذ انحاز نهائياً للبساطة والفن والسماحة ، كف عن رؤيتهم ، ولكن هؤلاء الناس لا يعرفون أوديت ، ولو عرفوها لما فكروا أبداً فى تقديمها له :

وهكذا لعله لم يعد بين « خلصاء » آل فرديران من يحبهما بكل الإعزاز الذى يحبهما به سوان . ومع هذا فعندما قال مسيو فرديران إنه غير راض عن سوان ، لم يكن معبراً عن رأيه الخاص، بل كاشفاً عن رأى زوجته أيضاً . أجل إن سوان كان يضمر إعزازاً خاصاً لأوديت ، ولكنه لم يكاشف بذلك مدام فرديران . وهذا التكتم هو الذى جعله أحياناً كثيرة جداً يعتذر عن عدم حضور مأدبة العشاء لديهما ، لسبب لم يخطر ببالها ، فى الوقت الذى يتلهف على عدم

رفض دعوة إلى بيت بعض « السمجين » ، ثم هناك أيضاً ما اكتشفاه تدريجياً ــ رغم تكتمه ــ عن مركزه المتألق فى المجتمع الراقى . فلا شك أن هذه العوامل مجتمعة أسهمت فى ضيقهما العام بإزاء سوان. ولكن السبب الأساسى كان مختلفاً عن هذا كله ، وهو أنهما اكتشفا لديه باباً موصداً لقسم من نفسه ، يؤمن فيه خفية أن أميرة ساجان ليست فظيعة ، وأن نكات كوتار ليست مسلية . وفى عبارة أخرى، اكتشفا استحالة فرض معتقداتهما القطعية عليه ، وإدخاله حظيرة إيمانهما ، وكان فى وسعهما أن يغفرا له تردده على بيوت « السمجين» (التى يفضل عليها فى أعماق قلبه بيت آل فرديران و « خليتهما الصغيرة ») لو أنه كان قدوة حسنة لغيره بنبذه هؤلاء « السمجين » وتنديده بهم أمام « الخلصاء » . ولكن هذه الردة كما يعرفان جيداً كانا عاجزين عن انتزاعها منه .

وما أشد اختلافه فى هذا عن « قادم جديد » طلبت أوديت إليهما أن يدعواه . مع أنها شخصياً لم تقابله إلا مرات قليلة ، وكانا يبنيان عليه آمالا كبيرة ، وذلك هو « الكونت دى فور شفيل » ! Comte de Forcheville (واتضح أنه ليس أكثر ولا أقل من زوج أخت سانيت ، وهو اكتشاف ملأ جميع الخلصاء بالدهشة : فسلوك دارس النقوش القديمة كان متواضعاً جداً ، بحيث اعتقد الجميع أنه ينتمى إلى طبقة أدنى اجتماعياً من طبقتهم ، ولم يتوقعوا قط أن يعرفوا أنه ينحدر من عائلة ثرية و« أرستقراطية » نسبياً) . وطبعاً

كان فورشفيل صاحب المقام الرفيع الذى لم يكنه سوان ، وطبعاً ما كان ليحلم – مثل سوان – بوضع وسط فرديران فوق سائر الأوساط . ولكنه كان يفتقر إلى الرهافة الطبيعية التى منعت سوان من الانضمام إلى الانتقادات التى كانت توجهها مدام فرديران إلى من يعرفهم من الناس . أما عن التقريع السوقى والمفتعل الذى كان الرسام ينغمس فيه أحياناً ، ومزاح التجار المتجولين الذى كان كوتار كثيراً ما ينساق فيه – فى حين أن سوان – الذى يحب كلا الرجلين بإخلاص – كان يجد لها عذراً فيه ، من غير أن يجد الشجاعة للتصفيق له . أما فورشفيل فكان على مستوى ثقافى يسمح له بأن يذهل ويدهش لهذه المطاعن (من غير أن يفهم على الإطلاق مراميها) ويطرب فى الوقت نفسه لما فيها من فكاهة . وكان أول عشاء فى بيت آل فرديران حضره فورشفيل كافياً تماماً لإلقاء ضوء كاشف تماماً على كل ما بين الرجلين من اختلافات ، بحيث أبرزت مزاياه لدى آل فرديران ، وأسرعت بالتقليل من حظوة سوان) :

وكان موجوداً على مائدة هذا العشاء ، إلى جانب المجموعة المعتادة ، أستاذ فى السوربون ، يدعى « بريشو » Brichot ، وكان قد التقى بمسيو ومدام فرديران فى أحد أماكن الاستشفاء بالمياه المعدنية. ولولا أن واجباته فى الجامعة وأعماله العلمية الأخرى لا تترك له فراغاً كبيراً ، لسره أن يأتى لديهما مراراً كثيرة .. فهو من ذلك الطراز المتحرر فى نظرته إلى الحياة ، مع قدر من الشك فى موضوع ومجال

دراسته . وهو طراز يجعل من الأطباء كافرين بالطب ، ومن المعلمين كافرين بجدوى التطبيقات المدرسية ، فيكتسب هذا الصنف من الناس سمعة الذهن المتألق وسعة الأفق . وكان يتعمد عندما يكون فى صالون مدام فرديران أن يختار أمثلة لآرائه من أبرز موضوعات الساعة ، عندما يتحدث عن التاريخ أو الفلسفة ، لأنه يعد هذين العلمين مجرد تمهيد للحياة نفسها ، وتخيل أنه يرى تطبيق ما تعلمه من الكتب حتى الآن فى ممارسات هذه « العشيرة الصغيرة » . وكان يجد سروراً فى توهم خلع روب الجامعة عندما يتحدث بتحرر وبأسلوب الحديث العادى عن موضوعات حفظها وحشا بها دماغه منذ صباه .

وفى مرحلة مبكرة من العشاء ، قال المسيو دى فورشفيل الجالس عن يمين مدام فرديران (التى كانت احتفاء بالقادم الجديد قد عنيت عناية فائقة بزينتها) .

– كم هو طريف فى أصالته هذا الثوب الأبيض !

وكان الدكتور لا يحول عينيه عنه ، لشدة فضوله إلى معرفة طبيعة وخصائص رجل من الطبقة التى يسبق اسمها كلمة « دى » ، ويتلهف على فرصة يلفت فيها نظره ، كى يزداد اتصالا به ، والتقطت أذناه كلمة « أبيض » ، فعلق على ذلك بتورية لفظية ليس لها مناسبة ولا طعم . فابتسم سوان ابتسامة مغتصبة تنبئ عن رأيه فى سخافة هذه التورية . أما فورشفيل فأبدى على الفور إعجابه بها ، فراق ذلك مدام فرديران . وسألت فورشفيل :

– ما رأيك فى عالم على هـذه الشاكلة ؟ إنك لا تستطيع أن تتحدث إليه حديثاً جاداً لمدة دقيقتين متتاليتين .

وأردفت ملتفتة إلى الدكتور :

– أهذا هو نوع الكلام الذى تقوله للناس فى مستشفاك ؟ لا بد أنهم يستمتعون بالمرح هناك ، إن كان الحال هكذا . وهذا يغرينى بدخول مستشفاك كمريضة !

فقال أستاذ السوربون بريشو لمدام فرديران التى استبد بها السرور حتى أنها أغلقت عينيها بإحكام ، ودفنت وجهها بين يديها ، ومن بينهما كانت تطلق صيحة بين الحين والحين :

– أظننى سمعت الدكتور يذكر اسم هـذه النصابة الشريرة « بلانش دى كاستيل » Blanche de Castile . أليس كذلك يا سيدتى ؟

وراح الأستاذ يلقى بحثاً مستفيضاً عن الخفايا التاريخية لهذه المرأة ، فسأل فورشفيل ربة الدار :

– من هذا السيد ؟ يبدو أنه يتحدث عن خبرة عظيمة .

– ماذا ؟ أتريد أن تقول إنك لا تعرف بريشو الشهير ؟ إنه ذائع الصيت فى أوروبا بأسرها !

فصاح فورشفيل وهو يثبت عينيه الجاحظتين على ذلك الرجل الشهير :

– أهذا هو بريشو إذن ؟ ما أطرف أن يقابل المرء المشاهير

على مائدة العشاء . ولكنك يا سيدتى ولله الحمد تحسنين تخير ضيوفك ، فلا يشكو أحد الملل فى أمسياتك :

فقالت مدام فرديران بتواضع :

– الأمر وما فيه أن ضيوفى يشعرون هنا بالأمان . ففى وسعهم أن يتحدثوا عن أى شىء يخطر ببالهم ، فتنطلق الأحاديث كالألعاب النارية . ولكن بريشو هذه الليلة ليس فى أوجه المعتاد . وقد رأيته فى مناسبات أخرى غاية فى التألق ، وعندئذ توشك أن تجثو على ركبتيك أمامه . ولكنه عندما لا يكون معى وحدنا لا يكون فى أفضل حالاته ، وتكاد تحتاج إلى جذب الكلام من فمه ، وربما بدا مملا .

فقال فورشفيل بدهشة تناسب المقام :

– ما أغرب هذا !

وكانت نكات بريشو من نوع يبدو لسوان وخلطائه فى باكورة حياته ضرباً من الغباء أو البلادة الذهنية ، لوهن علاقتها بالذكاء الحقيقى . وقد تأثر سوان بمعاييرهم إلى حد أنه لم يستطع النظر بعين الرضا إلى مزاح بريشو ، الذى بدا له متحذلقاً ، وسوقياً ، وجلفاً بصورة مقززة . وقد صدمه أيضاً – وهو الذى ألف معاشرة ذوى السلوك المهذب – ما لمسه من فجاجة تعبيراته التى تكاد تشبه لغة ثكنات المجندين ، أياً كان الشخص الذى يتحدث إليه .

ولعل سوان – أخيراً – كان قد نفد صبره وهو يراقب مدام فرديران ترحب بكل هذه الحرارة التى لا مبرر لها ولا ضرورة

بذلك المدعو فورشفيل ، الذى خطر لأوديت ــ لسبب لا يدريه ــ أن تأتى به إلى هذا البيت . وشعرت أوديت بالحرج بسبب وجود سوان ، فسألته :

ــ ما رأيك فى ضيقى ؟

وفجأة أدرك سوان للمرة الأولى أن فورشفيل ، الذى عرفه منذ سنوات ، يمكن بالفعل أن يجتذب امرأة ، وهو نموذج حسن للرجل ، فأجابها :

ــ شنيع !

وطبعاً لم يخطر له ببال أن يغار على أوديت ، ولم يشعر بالسعادة كعادة ، وعندما شرع بريشو يخبر الحاضرين بقصة أم « بلانش دى كاستيل » ، التى كانت حسب روايته « تعاشر هنرى بلنتاجينيه Henry Plantagenet سنوات طويلة قبل أن تتزوجه شرعاً » ، ثم سأل سوان ليستدرجه للالتفات إلى حديثه :

ــ أليس كذلك يا مسيو سوان ؟

فاعتذر سوان بقلة اهتمامه ببلانش دى كاستيل ، وانصرف إلى الرسام يسأله عن موضوع آخر . والظاهر أن سوان كان قد ذهب بعد ظهر ذلك اليوم نفسه إلى معرض رسوم فنان آخر ، وهو أيضاً من أصدقاء مدام فرديران . وكان هذا الرسام قد توفى منذ قليل . وأراد سوان أن يستفسر من الرسام الجالس بجواره (لأنه كان يقدر حصافته وحسن تمييزه) هل فى هذا المعرض الأخير ما يتجاوز

النبوغ أو المهارة والحذق اللذين لفتا أنظار الناس بشدة بالغة فى معارضه الباكرة :

وقال سوان باسماً :

ــ من ناحية الحذق ، كان المعرض خارقاً للمعتاد ، ولكن لم يخيل إلى أن ما رأيته فى هذا المعرض شكل من أشكال الفن التى يمكن أن نسميها « رفيعة » :

فقاطعه كوتار رافعاً ذراعيه متصنعاً الوقار :

ــ رفيعة ... إلى مستوى المعهد العلمى !

فانفجرت المائدة كلها بالضحك ؛ وقالت مدام فرديران لفورشفيل :

ــ ماذا قلت لك ؟ مستحيل أن يكون المرء جاداً معه : فعلى حين غرة ، تبدر منه النكتة !

ولكنها لاحظت أن سوان ، دون سواه ، لم يضحك : فهو لم يكن مسروراً للغاية من أن كوتار أضحك الحاضرين عليه أمام فورشفيل . ولكن الرسام بدلا من الرد على سوان بطريقة تتمشى معه أو تثير اهتمامه ــ كما كان خليقاً أن يصنع لو أنهما كانا وحدهما ــ آثر أن يكسب إعجاباً سهلا فى نظر الآخرين ، بالتنكيت على موهبة صديقهم الراحل . قال :

ــ لقد ذهبت إلى أحد معارضه ، لمجرد مشاهدة صنعته ، ودسست أنفى فى لوحاته . ولكنى لم أستطع أن أتبين أرسمها بالغراء ،

أم بالصابون ، أم بالشمع الأحمر ، أم بضوء الشمس ، أم الخميرة ، أم البراز !... بل يبدو أنه لم يرسمها بشيء إطلاقاً ... أجل كانت رائحتها على ما يرام ، ويمكن أن تدير رأسك ، وتجعلك تلهث ... ولكنك لن تعرف أبداً كيف رسمها ولا بأى شيء رسمها . إنه رجل ساحر ، أشبه بالحواة ، وعمله يبدو معجزة خارقة . ولكنه (وانفجر ضاحكاً) غشاش !

وفيما عدا اللحظة التى تلفظ فيها بكلمة « البراز » — وعندئذ ألقى فورشفيل نظرة مختلة على من حوله ليتأكد أن الأمر على ما يرام ، قبل أن يفتر عن ابتسامة مجاراة محتشمة — كانت المجموعة كلها (اللهم إلا سوان) مثبتة أعينها بكل انتشاء على شفتى الرسام .

وصاحت مدام فرديران، عندما فرغ من كلامه، وهى شديدة السعادة بأن أحاديث المائدة بلغت هذا الشأو البديع ليلة قدوم فورشفيل :

— كم أحبه عندما يحلق فى الهواء على هذا النحو !

والتفتت نحو زوجها قائلة :

— ماذا بك يا صاحبى الجالس هناك ؟ إنك فاغر الفم كأنك حيوان كبير !

واستدارت نحو الرسام ، وقالت :

— ولكنك تعرف أنه يحسن الكلام عندما يريد . ومن يراه الآن يحسبه يسمعك الليلة للمرة الأولى . ولو رأيته وأنت تتكلم لرأيته

يشرب كلامك شرب الظامئ . وغداً سيعيد على مسامعنا كل ما قلته ، لا يغفل منه حرفاً واحداً .

فاحتج الرسام قائلا ، وقد طرب لنجاح حديثه :

— لا لست مازحاً فى الحقيقة ! كلكم يبدو عليكم أنكم حسبتمونى أسخر ، أو أحاول خداعكم بأضحوكة — سآخذكم لتروا المعرض بأنفسكم ، وعندئذ ستعرفون هل كنت أهزل وأبالغ أم كنت جاداً ، ومستعد للرهان بأى شيء بأنكم ستخرجون من هذا المعرض وأنتم أشد منى حيرة !

فقالت مدام فرديران :

— ولكننا لم يخطر ببالنا لحظة واحدة أنك تبالغ . وكل ما هناك أننا نريد لك أن تكمل عشاءك ، وكذلك زوجى . (للخادم) أعط المسيو بيش سمكة موسى أخرى . ألا ترى أن سمكته بردت ؟ نحن لسنا متعجلين ، وأراك تندفع حول المائدة كأن حريقاً شب فى البيت . تمهل قليلا ، ولا تقدم السلاطة الآن .

وكانت مدام كوتار امرأة خجولا ، لا تتكلم إلا نادراً ، إلا أن الثقة بالنفس لم تكن تنقصها عندما يسوق إليها الإلهام كلمة مناسبة ، وتحس أنها ستقابل بقبول حسن . وكانت تجد الشجاعة عندئذ للكلام لا رغبة فى التألق ، بل رغبة فى تحسين مركز زوجها . وهكذا لم تترك كلمة « السلاطة » التى تفوهت بها مدام فرديران تمر بدون تعليق ، فهمست ملتفتة نحو أوديت :

– إنها ليست سلاطة يابانية . أليس كذلك ؟

ثم فاض سرورهـا الطفـلى لتوفيقهـا فى مزج النكتـة المحتشمة بالتعريض الواضح بمسرحية المسيو ديما Dumas الجديدة اللامعـة ، فانفجرت فى ضحك فاتن طفلى ليس عالياً جداً ، ولكنه قوى عميق بحيث انقضت فترة قبل أن تتمكن من السيطرة عليه .

وسأل فورشفيل :

– من هذه السّيدة ؟ إنها فيما يبدو ذكية بارعة .

فأجابته مدام فرديران :

– لا . إنها ليست كذلك . ولكننا سنحضر لك واحـدة بهذه الصفة إن جئت لتناول العشاء يوم الجمعة القادم .

وقالت مدام كوتار لسوان :

– إنك قد تظننى ريفية جداً يا سيدى ، ولكن أتعلم أنى لم أذهب بعد لمشاهدة هذه المسرحية الشهيرة «فرانسيون» Francillon التى يتحدث عنها الجميع . أما الدكتور فقد ذهب لمشاهدتها (وأتذكر الآن لم كان استمتاعه بتمضيته الأمسية هناك معك) ويجب أن أعترف أننى لا أجد من المعقول أن ينفق مالا ثمناً لمقعدين كى يصحبنى إلى هناك . ما دام قد شاهد المسرحية بالفعل : أجل إن قضاء أمسية فى « المسرح الفرنسى » لن تكون مضيعة للوقت أو المـال : فالتمثيل هناك جيد دائماً . ولكن لنا نفراً من ألطف الأصدقاء ، الذين لهم لوج فى معظم الليالى ، ويتكرمون بأخذنا معهم إلى كل المسرحيات الجديدة

التى تستحق المشـاهدة . ولذا فأنا واثقة بأنى سوف أرى مسرحية « فرانسيون » هذه إن عاجلا أو آجلا ، وعندئذ أستطيع أن أكوّن عنها رأياً : ولكنى مع هذا أشعر بأنى مغفلة – وأنى أعترف بهـذا صراحة – كلما قمت بزيارة أحد هنا أو هناك ، وإذا بالجميع يتحدثون – وهذا أمر طبيعى – عن تلك السلاطة اليابانية . حتى أن المرء بدأ يمل سماع الحديث عنها :

ولاحظت أن المسيو سوان أقل اهتماماً مما كانت تأمل بمثل هـذا الموضوع الساخن ، ولذا استطردت قائلة :

– ولـكنى لا بد أن أعترف أن طريقة مزاحهم حول هذا الموضوع مسلية . فلى مثلا صديقة غاية فى الطرافة والأصالة ، مع أنها امرأة جميلة جداً فى الواقع ، ومشهورة للغاية ، فى المجتمع ، وتذهب إلى كل مكان ، وقد قالت لى إنها جعلت طباختهـا تعـد طبقاً من السلاطة اليابانية ، ووضعت فيها كل ما قال المسيو ديمـا الشـاب فى مسرحيته أنك يجب أن تضيفه إليها . ثم دعت مجموعة من الأصدقاء للحضـور كى يتذوقوها . ويؤسفنى أن أقول إننى لم أكن من بين هذه القلة القليلة المحظوظـة ، ولكنها أخبرتنا بكل ما جـرى فى يوم « استقبالها » التالى ، إذ يبدو أن هذه السلاطة كانت فظيعة الطعم جداً ، وجعلنا وصفها نضحك حتى دمعت عيوننا .

ولمـا رأت المسيو سوان ما زال عابساً ، أردفت فى تردد :

– ولعل ما أضحكنا هو طريقة سردها...

ثم خطر لها أن سبب تجهم المسيو سوان قد يكون عدم سروره بمسرحية « فرانسيون » فقالت مستدركة :

ـ ومن يدرى ، ربما لم ترقنى هذه المسرحية ، بل لعلها تخيب أملى ، ولست أحسبها بعد كل شىء فى مثل جودة المسرحية التى تهتم بها مدام دى كريسى (أوديت) وهى « سيرج بانين » Serge Panine : فهى مسرحية شديدة العمق ، وتحملك على التفكير ! ولكن تخيل الأدلاء بوصفة عمل نوع من السلاطة على خشبة المسرح الفرنسى ! أما سيرج بانين ، فهى طبعاً مثل أى شىء ينشئه قلم المسيو جورج أونيه G. Ohnet ، فهى مكتوبة بإجادة وإتقان . وإنى لأتساءل هل شاهدت « المعلم الحداد » التى أفضلها أيضاً على « سيرج بانين » ؟

فقال المسيو سوان ، فى سخرية مهذبة :

ـ عفوك يا سيدتى ! ولكنى أؤكد لك أن عدم إعجابى موزع بالتساوى بين كل هذه الروائع !

ـ الحقيقة أن هذا شىء طريف حقاً ومثير للاهتمام . وما الذى لا يروقك فيها ؟ ألن تغير رأيك فيها أبداً ؟ لعلك تظن أن موضوعاتها محزنة أكثر مما يجب .. ومن رأيى دائماً أن المرء لا ينبغى أن يناقش أحداً فيما يتعلق بالمسرحيات أو بالروايات ، فكل إنسان لديه طريقته الخاصة فى النظر إلى الأشياء : وما قد يكون فظيعاً فى نظرك ، قد يكون أحب ما يمكن فى نظرى !

وقطع عليها كلامها صوت فورشفيل مخاطباً سوان . وما حدث هو أنه بينما كانت مدام كوتار تتناقش فى شأن مسرحية «فرانسيون» كان فورشفيل يعرب لمدام فرديران عن إعجابه بحديث الرسام ، قائلا لها :

ـ صديقك هذا لديه موهبة التدفق اللغوى ، مع ذاكرة عجيبة ! ونادراً ما رأيت شيئاً كهذا ، ولو اشتغل بالوعظ لكان واعظاً من الطراز الأول . كنت أتمنى ـ وايم الله ـ لو كنت هكذا ، وأراك فزت بجائزتين رابحتين هذه الليلة بدعوتك هذا الفنان والأستاذ بريشو ، وإن كنت أعتقد أن الرسام يخطف الأضواء من الأستاذ فى بعض الجوانب . فالكلام يتدفق من فيه بسلاسة طبيعية ، ولا يخطر ببالك أنه كمن يقرأ فى كتاب . وإن كان طبعاً يستخدم بعض ألفاظ واقعية أكثر مما ينبغى ، ولكن هذه هى « الموضة » هذه الأيام . وأنا على كل حال لم أسمع منذ وقت طويل أحداً يملك ناصية الخطابة فى مثل براعته . أو « يحمل المبصقة » كما كنا نقول ونحن فى الجيش ، وبهذه المناسبة أراه يذكرنى بزميل كان معنا فى الكتيبة . كان فى وسعك أن تختارى أى شىء . وليكن هذا الكوب ، وتدفعينه إليه ، فيسترسل فى الكلام عنه ساعات وساعات . كلا ! ليس هذا الكوب فهو اختيار سخيف ، ولكنى أعنى شيئاً أكبر من هذا الكوب ، وليكن معركة واترلو مثلا ! أو أى شىء من هذا القبيل . وتأكدى

أنه سيقول لك أشياء لا يمكن أن تصدقيها . وكان معنا فى الكتيبة فى ذلك الوقت سوان ، ولابد أنه يعرف هذا الشخص .

فسألته مدام فرديران :

ــ أترى المسيو سوان كثيراً ؟

فأجابها :

ــ لا ، وربى !

ثم تذكر أنه إذا تلطف مع سوان ربما راق ذلك أوديت ، فقرر أن ينتهز هذه الفرصة كى يتملقه ، بالحديث عن أصدقائه الوجهاء ، ولكن بما أنه شخصياً من رجال المجتمع ، فقد تحدث بلهجة الناقد المترفق ، لا بلهجة من يهنئ سوان على حسن طالع لا يستحقه ؛ قال :

ــ أليس هذا صحيحاً يا سوان ؟ أنا لم أعد أراك . أليس كذلك؟ ولكن أين بحق الله يمكن للمرء أن يراه ؟ إنه يقضى وقته كله فى أماكن مغلقة مع أصدقائه من آل تريموى Trémoilles ، ومع آل لوم Laumes ، ومن لف لفهم !

وهو اتهام كان من الممكن أن يكون غير صحيح فى أى وقت ، ولكنه الآن أمعن فى البهتان وقد مضى على سوان أكثر من عام وقد تخلى عن الذهاب إلى أى بيت تقريباً عدا بيت آل فرديران . ولكن ذكر أسماء الأسر التى لا يعرفها آل فرديران قوبلت لديهما بصمت مشحون باللوم .


بينما كانت مدام كوتار تتناقش فى شان مسرحية « فرانسيون »
كان فورشفيل يعرب لمدام فرديران عن اعجابه بحديث الرسام ..

وخشى المسيو فرديران من الوقع المؤلم على زوجته لذكر هؤلاء « السمجين » ، ولا سيما أن هذا حدث بتلك الصورة الخالية من الذوق ، وفى حضور « الخلصاء » ، فرمقها بنظرة مختلسة كلها تعاطف وقلق ومناشدة أن تتشجع ، فتبين من سحنتها أنها قررت عدم إلقاء بالها إلى ما حدث وما سمعت ، وكأنه لم يبلغها شىء من الأنباء التى وجهت إليها ، فكأنها أصيبت بالصمم ، كما يفعل المرء حين يذكر أمامه اسم خصم يكون ذكره أمامه من المحرمات . وهكذا أفرغت مدام فرديران سحنتها من كل أمارات الحياة ، الراضية والرافضة على السواء ، فبدا جبينها صفحة صافية لم يعكرها ذكر آل تريموى وآل لوم هؤلاء ، الذين يقضى المسيو سوان جل وقته مختلياً بهم . وكل ما هناك أن تغضناً يسيراً اعترى أنفها فوسع من منخريها . وكان يخيل إليك أن شفتيها المنفرجتين تهمان بالكلام : ولكن الحقيقة أن ملامحها كلها كانت كتمثال جامد من الشمع ، يصلح للعرض فى « قصر الصناعة » بالمعرض العام ، نموذجاً مجسماً لأنفة آل فرديران فى مواجهة تماثيل آل تريموى وآل لوم ، وكيف أنها ندٌّ لهما ، (إن لم تكن أفضل منهما) ولكل « السمجين » الآخرين على وجه الأرض جمعاء ! لقد كان جمودها وبياضها فى هذه اللحظة جديرين بالبابا !

ولكن التمثال الجامد تحرك فى النهاية لكى يعبر عن ازدرائه لحساسية من يتردد على بيوت كهذه ، الزوجة فيها مخمورة دائماً ،

والزوج غير متعلم . وختمت مدام فرديران كلامها وهى ترمق سوان بمنتهى التعالى :

— ستغرم مبلغاً باهظاً من المال كى تغرينى بالسماح لأى واحد من هذه الطغمة بأن تطأ قدمه أرض بيتى !

ولم تكن تتوقع منه أن يسلم بوجهة نظرها تسليماً كاملا ، بحيث يردد أصداء السذاجة التى تكلمت بها عمة عازف البيانو ، التى صاحت على الفور :

— ما أعجب هذا ! إن ما يدهشنى أن هؤلاء الناس يغرون أى أحد بالاقتراب منهم . أنا شخصياً أخشى الاقتراب منهم . ولا يمكن للمرء فى هذا أن يكون مفرطاً فى الحذر . ولا أدرى كيف يمكن لأحد أن تبلغ به السوقية إلى حد الجرى وراءهم ، أو الترامى عليهم !

ولكنه كان يستطيع — على الأقل — أن يقول مثل فورشفيل :

— رباه ! إنها دوقة . ولم يزل هناك أناس كثيرون يبهرهم هذا اللقب .

وكان ذلك يتيح لمدام فرديران الرد النهائى :

— وما أجدى هذا عليهم !

ولكن بدلا من هذا ، اكتفى سوان بالابتسام ، بصورة تفيد أنه لم يكن باستطاعته طبعاً أن يأخذ مثل هذا القول مأخذ الجد . أما المسيو فرديران الذى كان لايزال يلقى نظرات مختلسة ومتقطعة نحو زوجته ، فتبين أنها الآن فى حالة غضب وغيظ شديدين ، وكأنها رئيس محكمة

التفتيش وقد شعر بالعجز عن سحق هرطقة . ولذا فعلى أمل حمل سوان على الارتداد قال :

ـ قل لنا الآن بكل صراحة ما رأيك شخصياً فى هؤلاء الناس ونحن طبعاً لن نخبرهم بما تقول .

فرد عليه سوان قائلا :

ـ أنا لست خائفاً على الإطلاق من الدوقة (إن كنتم تتحدثون عن مدام دى تريموى) . فإنى أستطيع أن أؤكد أن كل امرئ يجب أن يذهب لزيارتها .. ولست أعنى بهذا أنها « عميقة » (وتفوه بهذه الكلمة وكأنها تعنى شيئاً سخيفاً أو مضحكاً) ، بل أنا صادق جداً فى قولى إنها ذكية ، أما زوجها فهو فعلا دودة كتب . إنهم ناس ممتازون .

وكان كلامه بالغ الأثر حقاً . وأدركت مدام فرديران الآن أن هذه الحالة من الزندقة ستحول دون تمتع « عشيرتها الصغيرة » بوحدة الرأى التامة . ولم تستطع أن تتمالك نفسها ، لشدة غضبها من عناد هذا التعس الذى عجز عن تبين مدى ما يسببه لها بكلماته هذه ، فصاحت بصوت عال ، من أعماق قلبها المعذب :

ـ لك أن تعتقد هذا إن شئت ، ولكنك على الأقل ما كان ينبغى أن تقول هذا لنا !

وشعر فورشفيل أن دوره حان كى يكون ألمعياً ، فقال :

ـ الأمر كله يتوقف على ما الذى تعنيه بالذكاء . فسر لنا الآن يا سوان ما الذى كنت تعنيه بأنها سيدة ذكية ؟

فصاحت أوديت :

ـ هاك ! هذه مسألة من المسائل الكبرى التى طالما رجوته أن يحدثنى عنها ، ولكنه كان يأبى هذا دائماً .

فاحتج سوان قائلا :

ـ أوه . ولكن ...

فقالت أوديت :

ـ أوه ، ولكن هذا هراء !

وواصل فورشفيل كلامه قائلا :

ـ هل الذكاء فى نظرك ما يسمونه الكلام البارع ، فأنت تعرف نوع الناس الذين يزحمون المجتمع ويمهدون سبيلهم فيه .

وقالت مدام فرديران لسانيت بجفاء ، وقد رأته استغرق فى التفكير وكف عن تناول طعامه :

ـ انته من تناول طبق الحلوى ، كى يتسنى للخدم رفعه ...

ثم لعلها خجلت من فظاظتها فعادت تقول له :

ـ لا بأس . خذ كل وقتك . فلسنا متعجلين . ولكنى قلت لك هذا من أجل الآخرين ، لأن هذا التأخير يعطل الخدم ...

فشرع بريشو يتكلم متشدقاً بكل مقطع فى كلامه :

ـ هناك تعريف غريب للذكاء أورده هذا الفوضوى الممتع فينيلون Fenelon

فقالت مدام فرديران لفورشفيل والدكتور :

ـ أنصتا إلى هذا الكلام ! إنه سيذكر لنا تعريف فينيلون للذكاء . وهذا شيء طريف . ولا تسنح فرص كثيرة لسماعه .

ولكن بريشو كان يدخر تعريف فينيلون إلى ما بعد تفوه سوان بتعريفه . وظل سوان صامتاً . وبهذه الخيانة الجديدة أفسد مباراة الجدل التى كانت مدام فرديران سعيدة بتقديمها إلى فورشفيل .. لكن أوديت قالت بعناد :

ـ ها أنتم ترون أنه فعل معكم كما يفعل معى . ولست آسفة لأننى أرى أنى لست الوحيدة التى لا يجدها ترتفع إلى مستواه .

وتساءل بريشو ، وهو يضغط على ألفاظه :

ـ هل آل دى لا تريموى التى أظهرت مدام فرديران لنا أنهم غير مرغوب فيهم ، ينحدرون من سلالة من قالت عنهم تلك المتفيهقة دى سيفينيه Sevigné إنها سرت بمعرفتهم ، لأن ذلك مفيد جداً لفلاحيها ؟ وطبعاً كان لدى المركيزة دى سيفينيه سبب آخر لهذا القول ، لأنها كانت فى أعماقها صحفية ممتازة . وكانت الدوقة دى لاى تريموى هى التى تمولها بأسرار السياسة الخارجية ، التى تبعث بها يومياً إلى ابنتها .

فقالت مدام فرديران بيأس :

ـ لا يا عزيزى . لا . أنا واثقة بأنها ليست من نفس هذه الأسرة .

أما سانيت ، الذى كان منذ تخليه عن طبقه من غير أن يمسه لكبير الخدم ، فقد استغرق مرة أخرى فى التأمل الصامت ، ثم استقر رأيه على أن يحكى لهم ـ وهو يضحك ضحكة عصبية ـ كيف تعشى ذات مرة مع الدوق دى لاتريموى ، وخلاصة هذه الحكاية أن الدوق دى لاتريموى لم يكن يعرف أن « جورج ساند » اسم مستعار لامرأة . ولما كان سوان يحب سانيت حباً حقيقياً فقد شعر بأن من واجبه أن يقدم له بضع حقائق تبين مدى ثقافة هذا الدوق ، بحيث يتضح أن مثل هذا الجهل من جانبه مستحيل استحالة تامة . بيد أنه امتنع عن ذلك ، وقد أدرك أن سانيت ليس بحاجة إلى هذا الدليل ، وأنه يعرف أن تلك القصة المزعومة غير صحيحة ، لسبب بسيط ، وهو أنه اخترعها لساعته ! وكان هذا الرجل الفاضل (سانيت) يقاسى من أن آل فرديران يعدانه شديد الغباء ، ولما كان هذه الليلة أشد اكتئاباً من العادة ، فقد قرر أن يبدو ظريفاً مرة واحدة على الأقل ، قبل نهاية العشاء ، ولكنه لم يلبث أن استسلم بسرعة ، وبدا تعساً وهو يرى القصر الذى شاده ينهار ، ورد على سوان بصوت هزيل ، متوسلا إليه ألا يلح فى تفنيد لا لزوم له :

ـ وهو كذلك . وهو كذلك ! حتى ولو كنت ارتكبت غلطة فليس هذا جرماً ، فيما أتمنى !

فرغب سوان فى مواساته ، بالتأكيد على أن الحكاية صحيحة بلا شك ، وأنها فضلا عن هذا مضحكة جداً ...

وبعد العشاء اتجه فورشفيل صوب الدكتور ، وقال له :

— لا يمكن أن تكون مدام فرديران فى شبابها دميمة . وهى على كل حال امرأة يمكنك أن تتحدث إليها ، وهذا كل ما أريده . وأما مدام دى كريسى ، فهاك امرأة صغيرة تعرف الأصول : وأقسم بشرفى أنك تستطيع بنظرة واحدة أنها ذات عينين أمريكيتين !

وقال موضحاً لمسيو فرديران عندما لحق بهما وغليونه فى فمه :

— كنا نتحدث عن مدام دى كريسى . وفى رأيى أنها عينة ممتازة للأنوثة .

وقال كوتار فى تعثر :

— أنا أفضل أن تقاسمنى فى فراشى ، على أن يقاسمنى فيه الرعد والبرق !

وسر فورشفيل للنكتة الخفية التى كان الدكتور منذ مدة يتحفز لإلقائها ويخشى أن يتحول الحديث إلى موضوع آخر ، قبل أن يلقى قطعة محفوظاته ! أما المسيو فرديران فاستطاره المرح ، وراح يهتز من شدة الضحك ، ثم أخذ يسعل ، وقد جعله الضحك يبتلع جانباً من دخان غليونه . وبإبقائه الغليون فى فمه استطاع أن يطيل مشهد الضحك إلى حد الاختناق ! أما زوجته ، مدام فرديران ، فكانت فى الطرف الآخر من القاعة تصغى لحكاية يرويها لها الرسام ، وقد

أغلقت عينيها وخبأت وجهها بين يديها . فكان الزوجان أشبه بقناعين من أقنعة المسرح ، يمثل كل منهما الكوميديا ، ولكن بطريقة مختلفة :

وكان المسيو فرديران أحكم مما يظن بتشبثه بغليونه فى فمه ، لأن كوتار استأذن فى الخروج من القاعة لحظة وهو يتفوه بكناية تعلمها أخيراً وصار يرددها كلما هم بالذهاب إلى دورة المياه :

— لا بد لى من الذهاب « لمحاسبة القاضى » برهة !

وكانت لهجته مضحكة ، حتى كاد يختنق المسيو فرديران مرة أخرى من شدة الضحك : وقالت له مدام فرديران التى أقبلت تدور على الضيوف بصينية ليكير :

— أخرج غليونك من فمك وإلا اختنقت وأنت تحاول كتمان ضحكك بهذا الشكل :

وقال فورشفيل لمدام كوتار :

— ما أظرف زوجك ! إنه بارع النكتة :

وقال وهو يتناول كأس الليكير :

— شكراً لك : ألف شكر ! جندى قديم مثلى لا يمكن أن يقول لا لكأس شراب :

وقال المسيو فرديران لزوجته :

— المسيو دى فورشفيل يرى أوديت فاتنة :

فقالت مدام فرديران لفورشفيل :

— أتدرى أنها راغبة جداً فى أن تقابلك مرة أخرى ذات يوم

على الغداء ؟ ولابد أن ترتب ذلك ، ولكن إياك بأى حال أن تدع سوان يعرف شيئاً عن هذا ، فهو يفسد كل شىء ، كما تعلم . ولست أعنى بهذا ألا تأتى للعشاء أيضاً ، بالطبع . فنحن نتمنى أن نراك مراراً كثيرة جداً . وها هو الجو الدافئ قادم، وسوف نتناول العشاء خارج البيت كلما أمكننا هذا . ولا أظن ذلك يضجرك : عشاء صغير هادئ، بين الحين والحين، فى الغابة ؟ عظيم . عظيم جداً ! سيكون هذا رائعاً :

وصاحت فجأة بعازف البيانو ، وقد وجدتها فرصة لكى تظهر أمام « قادم جديد » فى مثل أهمية فورشفيل ذكاءها اللماح ، وروح فكاهتها ، وسلطتها الدكتاتورية على « الخلصاء » :

— ألن تقوم الليلة بأى عمل ؟

وحذرت مدام كوتار زوجها لحظة دخوله القاعة :

— لقد كان المسيو دى فورشفيل بصدد أن يقول عنك شيئاً فظيعاً .

وكان كوتار لم يزل مشغول البال بموضوع « نبالة » فورشفيل ، منذ أول السهرة . ولذا قال له الآن :

— إنى أعالج الآن بارونة : البارونة « بيتبيس » Putbus ؟ ألم يكن فى الحروب الصليبية أفراد من آل بيتبيس ؟ إنهم على كل حال يملكون بحيرة فى بوميرانيا Pomerania تبلغ مساحتها عشرة أضعاف مساحة ميدان الكونكورد : وأنا أعالجها من التهاب المفاصل الجاف : وهى امرأة فاتنة : وأعتقد أن مدام فردبران تعرفها :

فأتاح هذا الحديث لفورشفيل ، بعد لحظة ، عندما وجد نفسه على انفراد مع مدام كوتار ، أن يتم لها رأيه فى زوجها قائلا :

— إنه رجل طريف أيضاً ، فهو يعرف بعض علية القوم ! رباه !.. لابد أن هؤلاء الأطباء يعرفون أشياء كثيرة :

وسأل عازف البيانو مدام فردبران :

— أتريديننى أن أعزف تلك الجملة من السوناتا للمسيوسوان ؟

فصاح المسيو دى فورشفيل ، محاولا إثارة المرح :

— أتمنى ألا تكون سوناتة الثعبان !

ولكن الدكتور كوتار ، الذى لم يكن سمع هذه التورية من قبل فاتته نكهتها ، وظن المسيو دى فورشفيل قد ارتكب خطأ ، فاندفع يصححه قائلا :

— لا . لا . المقصود هو الثعبان ذو الأجراس !

فشرح له فورشفيل ما يقصده ، فاحمر وجه الدكتور . وقال فورشفيل :

— اعترف يا دكتور أن النكتة ليست رديئة .

— أوه ! أنا أعرفها منذ زمن بعيد !

وساد الصمت ، مع بداية العزف للجملة الموسيقية من سوناتا فانتى : واتجه إليها سوان بكل مشاعره ، وراح يخاطبها من أعماق قلبه ، وكأنه يفشى لصفيه أسرار هواه : وكأنما الجملة الموسيقية صديقة

لأوديت يمكن أن تؤكد له أنه لا موجب للاهتمام بهذا الثقيل المسمى فورشفيل :

ورحبت مدام فرديران بأحد « الخلصاء » ، وكانت قد وجهت إليه الدعوة للمرور بالصالون بعد العشاء ، قائلة له :

— آه ! لقد حضرت متأخراً أكثر مما يجب ! لقد كنا نحظى بحديث من بريشو وهو فى قمة التجلى ! ويقيناً لم يسبق لك أن سمعت مثل هذه البلاغة ! ولكنه انصرف . أليس كذلك يا مسيو سوان ؟ وأنا أعتقد أن هذه أول مرة تقابله فيها . ألم يكن بريشو رائعاً الليلة يا مسيو سوان ؟

فانحني سوان بتهذيب شديد . فسألته بجفاء :

— كلا ؟ ألم تكن مهتماً بما قاله ؟

— أوه : بل أؤكد لك أنى انتشيت جداً به . ولكن لعله أشد خفة وزثاطاً مما يروقنى : وأتمنى أن أراه أحياناً وهو أقل ثقة بنفسه ، وأكثر تسامحاً . ولكن المرء يشعر دائماً أن هذا الرجل يعرف الشىء الكثير ، وهو على العموم يبدو لى شخصاً لا غبار عليه إطلاقاً .

وانفض الحفل الساهر فى بيت آل فرديران فى وقت متأخر جداً تلك الليلة . وكانت أول كلمات كوتار لزوجته :

— قلما رأيت مدام فرديران فى مثل هذه الصورة :

وقال فورشفيل للرسام ، وكان قد أركبه معه فى عربته :

— ما هى حقيقة صاحبتك مدام فرديران هذه ؟

وأما أوديت فرأت فورشفيل ينصرف وهى كارهة . فلم يكن فى وسعها أن تتجاسر على رفض صحبة سوان لها إلى بيتها ، ولكنها كانت ضيقة الصدر متوترة الأعصاب وهى معه فى عربته . وعندما سألها أيمكنه الدخول معها قالت :

— أظن هذا !

وهى تهز كتفيها فى نفاد صبر .

وعندما تم انصراف الجميع ، قالت مدام فرديران لزوجها :

— هل لاحظت الطريقة التى كان سوان يضحك بها ، وكم كانت ضحكته بلهاء ، عندما تحدثنا عن مدام لاتريموى ؟

وكانت قد لاحظت ، أكثر من مرة كيف كان سوان وفورشفيل يحذفان الحرف « دى » من أمام اسم تلك السيدة . ولم يخامرها الشك أن ذلك كان عن عمد ، ليظهرا مدى عدم تهيبهما من فخامة اللقب ، ولذا قررت أن تحذو حذوهما وتحاكيهما فى غطرستهما تلك واستعلائهما ، إلا أنها لم تدر أى صيغة نحوية يقتضيها ذلك الحذف : ولذا كانت تقول دائماً « دى » «لاتريموى» ، بدلا من « لا تريموى» مثل الجمهوريات المتطرفات ، أما ذكر حرف « دى » فلا بد أن تسبقه كلمة « السيدة » أو « مدام » أو « الدوقة » . وكانت أحياناً تقول بدون « دى » :

— مدام لاتريموى :

ثم تردف ذلك قائلة فى سخرية كالمستدركة :



— أو الدوقة ، كما يسميها المسيو سوان !

وتبتسم ابتسامة صفراء، متبرئة من هذا التحديد الطبقى السخيف، وكأنها تقول : إن العهدة فى هذا الكفر على سوان ، وناقل الكفر ليس بكافر .

واستطردت تعلق على ابتسامة سوان ، قائلة لزوجها :

— أنا لا أبالى أن أقول : إننى أحسبه غاية فى الغباء !

والتقط المسيو فرديران هذا الخيط فقال :

— إنه ليس مخلصاً . بل هو شخص شديد الدهاء ، ودائم التأرجح من هذا الجانب إلى ذاك الجانب : يحاول فى الوقت نفسه الجرى مع الأرنب ، والمطاردة مع كلاب الصيد التى تقتفى أثره! وما أعظم الفرق بينه وبين فورشفيل : ففورشفيل على الأقل رجل يخبرك على الفور ، وبصراحة ما هو مكنون فكره . ولك الخيار فى أن توافقيه أو تخالفيه . وهو فى هذا ليس كالآخر (سوان) الذى لا يكشف القناع عن موقفه قط . أهو مع الفئران أم مع القطط : فهل لاحظت بهذه المناسبة أن أوديت شديدة التهافت على فورشفيل؟ وأنا شخصياً لست ألومها . ثم إذا كان سوان يتظاهر أو يفرض نفسه علينا بصفته رجل الأناقة والوجاهة ونصير الدوقات المنكودات ، فإن الآخر (فورشفيل) على الأقل صاحب لقب من ألقاب النبالة : فهو على كل حال « الكونت دى فورشفيل » .

وتفوه بهذه الكلمات فى رهافة ، وكأنه خبير بالسلالات النبيلة ، يقوم بتقويم « السلعة » أو « العينة » موضوع الحديث !

فقالت مدام فرديران :

— أنا لا أبالى أن أقول إنه غامر بالتفوه ببعض التعريض السخيف ببريشو : فهو طبعاً حين رآه موضع حفاوة فى هذا البيت ، أراد بالطعن فيه أن يشوه ندوتنا ويفسد حفلتنا . وأنا أعرف هذا الصنف من الضيوف أصدقاء الأسرة ، الذين يمزقونك إرباً وهم منصرفون على سلم دارك !

فأجابها زوجها :

— ألم قل لك هذا ؟ إنه ببساطة شخص فاشل ، يمضى فى الحياة وهو ينضح بل يطفح غيرة وحسداً لأى شيء كبير الشأن !

ولو عرفت الحقيقة ، لاتضح أنه ما من واحد من « الخلصاء » إلا وهو شر من سوان ، ولكن الآخرين حريصون على تغطية أو تمويه شرهم بالمزاح السطحى ،وبمظاهر الولاء والترلف . أما تحفظ سوان فكان يبدو لصاحبى الدار علامة على الخيانة والغدر !

وهكذا الحال أيضاً بين المؤلفين : فهناك مؤلفون ممتازون من ذوى الأصالة يظن الناس حريتهم فى التعبير منفرة ، لأنهم لم يبدءوا بتملق الذوق العام ، ولم يستخدموا فى أسلوبهم الصيغ الشائعة التى اعتادها الجمهور : وبعين هذا الأسلوب أثار سوان غضب المسيو

فرديران . فطرافة أو جدة لغته على هذا الوسط هى التى جعلت هذا الوسط المعين يرتاب فى خلوص نيته ويظن به السوء :

وكان سوان ما يزال غير شاعر بالنقمة التى تتهدده فى بيت آل فرديران ، وظل ينظر إلى سخافات هذين الزوجين بتسامح ، بل بمودة واستحسان ، لأنه كان يراهما بعينى حبه وإعجابه بأوديت ؛

وكانت القاعدة أنه لا يرتبط بمواعيد مع أوديت إلا فى المساء ، ذلك أنه كان يخشى أن تمله أوديت لو أنه زارها أثناء النهار أيضاً ، وكان فى الوقت نفسه لا يريد أن يخسر — ولو ساعة واحدة — المكان الذى يحتله فى تفكيرها ، وكان دائماً يتسقط فرصة لاستلفات نظرها واسترعاء اهتمامها ، بأى طريقة غير منفرة لها : فإذا لفتت نظره فى واجهة محل أزهار أو جواهر نبات أو حلية ، فكر على الفور فى إرسالها إلى أوديت ، متخيلا أن المتعة العابرة التى أحسها فى رؤيتها ستشعر هى أيضاً بها شعوراً غريزياً ، فيزداد إعزازها له : ويأمر على الفور بإرسالها إلى شارع « لا بيروز » على وجه السرعة ، تعجلا للحظة التى ينقله فيها الخيال إلى المثول بين يديها فى صورة هديته ، ليستمتع بفرحتها .

وكان شديد الحرص على أن تتلقى هداياه هذه قبل خروجها لقضاء الأمسية ، لكى يضيف هذا العرفان شيئاً إلى حرارة ترحيبها به عندما يصل إلى بيت آل فرديران . بل لعل صاحب المتجر إن أسرع بإرسال الهدية كما يتمنى هو ، أن يحفزها هذا على إرسال خطاب



وكان شديد الحرص على أن تتلقى هداياه هذه قبل خروجها لقضاء الأمسية ، لكى يضيف هذا العرفان شيئا الى حرارة ترحيبها به ..

إلى سوان قبل العشاء . أو ربما وجدها شخصياً على عتبة بابه ، قادمة لزيارة فوق العادة على سبيل الشكر والعرفان . وكما كان فى المرحلة الأولى يقوم بالتجارب على ردود أفعالها بالغضب أو الازدراء ، صار يحاول الآن بهذا التقرب إليها بالهدايا أن يستخرج منها مشاعرها الدفينة التى لم تكن قد كشفت عنها بعد :

وفى أحيان كثيرة كانت تضيق بحاجتها إلى المال ، وتحت ضغط الدائن قد تأتى إليه طلباً للمساعدة . وكان يستمتع بهذا مثل استمتاعه بكل شىء يمكن أن يوحى إلى أوديت بحبه لها ، أو بنفوذه ، حسبما تدعو حاجتها إلى ذلك .

ولعله لو كان أحد قال له فى البداية :

– إن مركزك هو الذى يجذبها إليك .

أو قال له قائل فى المرحلة الراهنة :

– إن مالك هو الذى تعشقه هى فى الواقع :

لما صدق هذا القول : ولكن حتى لو صدق هذا الاحتمال ، لما سبب له أى معاناة أن يكتشف أن حب أوديت له كان قائماً على أساس أمتن وأبقى من الإعزاز ، أو أى صفات جذابة يمكن أن تجدها فيه : مثل المصلحة التجارية الراسخة ، وهى مصلحة يمكن أن تؤجل إلى الأبد اليوم المشئوم الذى يستهويها فيه أن تضع نهاية لعلاقتهما . وهو فى الوقت الحالى إذ يغدق عليها الهدايا ، ويسدى إليها كل أنواع الخدمات ، إنما يعتمد على مزايا ليست جزءاً من

شخصه أو ثقافته ، بل هى محاولات لجعل نفسه أشد جاذبية لها . وهذا السرور بكونه عشيقاً لها ، يعيش بالحب وللحب وحده ، وإن كان مرتاباً فى حقيقة هذا الحب ، يزيد من قيمة هذا الحب فى نظره بكثرة ما يقدمه فى سبيله من جهد ومال : على نحو ما يقتنع شخص كان يشك فى جمال منظر البحر بمبلغ هذا الجمال عندما يدفع عن طيب خاطر مبلغاً جسيماً أجراً لكل ليلة فى غرفة بفندق تطل على الشاطئ ، ومن نافذتها يستمتع بمنظر البحر وصوته ، فيشعر كم هما جديران بكل تضحية !

وذات يوم ، ساقته خواطر من هذا القبيل مرة أخرى إلى تذكر ما كان قد قاله له أحد الناس عن أوديت ، من أنها محظية أو خليلة يحوزها الرجل لقاء راتب متفق عليه : وداعبه تصور « المحظية » وما فى صورتها من مزيج متلون بألوان قوس قزح لصفات مجهولة وشيطانية ومزركشة ، وكأنها إحدى تصاوير جستاف مورو Gustave Moreau ، التى تقطر فيها أزاهير غريبة سماً ، وقد تخللتها الجواهر الثمينة : ويقارن بين هذا التصور وبين أوديت التى عرفها وكم قرأ على ملامحها أمارات الرحمة لشقاء شتى ، وأمارات السخط على فعل جائر ، وأمارات العرفان لعمل من أعمال الرفق والحنان ، وكم تشبه الأمارات التى رآها طفلا على محيا والدته ، وعلى وجوه صديقات محترمات مصونات : أوديت هذه التى كثيراً ما دارت أحاديثها حول أمور هو شخصياً أعرف بها من سواه ،

مثل مجموعاته الفنية ، وحجرته ، وخادمه المسنّ ، وصيرفيه الذى يحتفظ له بكل أوراقه المالية ومستنداته :

وذكره تفكيره بهذا الصيرفى بأنه لا بد أن يمر عليه قريباً لكى يسحب مبلغاً من المال . ولئن كان فى الشهر الحالى قد قلل من سخائه فى معاونة أوديت فى متاعبها المالية عما كان عليه الحال فى الشهر الماضى (الذى أعطاها خلاله خمسة آلاف فرنك) ، ولئن أحجم عن إعطائها قلادة ماسية كانت تصبو إليها ؛ فهو بذلك يتيح لها التعجب من تقلص سخائه ، ويقلل من عرفانها الذى كان مصدر سعادة كبرى له . بل إنه بذلك يغامر بأن تتخيل أن حبه لها (كما كانت تراه فى مظاهره الملموسة) قد تناقص : وعندئذ سأل نفسه فجأة أليس ما كان يصنعه معها هو ما يعنيه الناس بحيازة خليلة ؟ وهل ليس من الممكن إطلاق هذه التسمية على أوديت منذ عرفها (لأنه لم يستطع أن يتصورها تقبل نقوداً من رجل قبله) ؟ ولم يستطع أن يمضى أكثر من هذا فى استقصاء هذه الفكرة ، لأن فكره توقف عن الاشتغال بها فجأة ، على نحو ما يتوقف الضوء الكهربى (الذى دخل البيوت أخيراً) بمجرد الضغط على زر صغير .

وظل ذهنه يعسعس فى الظلام لحظة ، فخلع نظارته ، ومسح زجاجتيها ، ومر بيده على عينيه ، ولكنه لم يجد أى ضوء إلا عندما وجد نفسه وجهاً لوجه أمام فكرة مختلفة تماماً ، وهى أن يحاول فى الشهر القادم أن يبعث إلى أوديت بست أو سبع أوراق نقد من ذات

الألف فرنك بدلا من خمس ، على سبيل المفاجأة السارة لها لا أكثر .

وفى المساء ، عندما لا يمكث بالبيت إلى أن يحين وقت لقاء أوديت فى بيت آل فرديران ، أو فى أحد المطاعم بالهواء الطلق التى يحبون ارتيادها فى الغابة ، ولاسيما فى سان كلو Saint - Cloud ، فإنه يذهب ليتعشى فى أحد البيوت الراقية التى كان يوماً ما ضيفاً دائماً عليها . فلم يحبب أن يفقد اتصاله بالناس الذين يمكن أن يكونوا ذوى نفع يوماً ما لأوديت ، ولم يزل فى استطاعته بفضلهم وعن طريقهم أن يحصل لها على حظوة أو متعة تريدها . يضاف إلى هذا أنه تعود منذ زمن طويل على الرفاهية وأساليب الترف فى المجتمع الراقى ، فصار ذلك يمثل لديه حاجة ماسة وملحة إلى غشيانه . حتى أنه عندما وصل إلى المرحلة التى صار يستوى فى نظره أفخم قصور الأمراء ، وأشد المساكن تواضعاً ما دامت أوديت موجودة به ، أمسى مع هذا لا يدخل البيت المتواضع من غير إحساس عميق بعدم الراحة . ويحدث هذا له عندما يدعى — ولا يفكر فى رفض الدعوة — إلى حفل راقص بشقة عادية يصعد إليها السلالم حتى الطابق الخامس ، ويدق الباب الأيسر ، على نحو ما يهش لحضور حفل راقص فى قصر أميرة بارم Parme ، التى كانت تقيم أفخم الحفلات الراقصة بباريس على الإطلاق . إلا أنه لم يكن يشعر أنه حقاً فى حفل راقص عندما يجد نفسه وسط قطيع من الآباء فى حجرة نوم ربة الشقة ، ويلاحظ أحواض غسيل الوجه التى غطيت بالشاكير ، وقد تحولت

الأسِرّة إلى حجرات للمعاطف ، تعلوها أكداس من القبعات . فيشعر عندئذ بمثل شعور من تعود طيلة حياته على النور الكهربى عندما يجد نفسه فجأة فى مكان تضيئه شمعة أو مصباح بترول يتصاعد منهما الدخان الخانق الحارق للعيون !

وإذا كان سيتعشى فى الخارج ، أمر بحضور عربته فى منتصف الساعة الثامنة ، ويتساءل وهو يبدل ثيابه عما تفعله الآن أوديت : وبهذه الطريقة لم يكن يشعر بالوحدة أبداً ، لأن تفكيره المتصل فى أوديت كان يضفى على لحظات افتراقه عنها نفس السحر الذى للحظات وجودها بجانبه . ويستقل عربته وينطلق بها ، وهو مدرك أن تفكيره فيها قفز معه إلى العربة واستقر على ركبتيه ، وكأنه حيوان أليف مدلل يأخذه معه إلى كل مكان ، ويستبقيه معه على مائدة العشاء ، من غير أن يلحظ رفاقه على المائدة وجوده . ويمد يده فيدلله ويربت عليه ، ويستدفئ به : وعندما ينتابه شعور بالوهن تند عنه رجفة تتقبض لها عضلات حلقه وخياشيمه ، وهو يثبت فى عروته باقة الأزهار الصغيرة :

وهو منذ فترة من الزمن لم يشعر بالعافية ولا السعادة ، ولا سيما منذ أحضرت أوديت فورشفيل إلى بيت آل فردبران . ولذا كان يتمنى لو سافر للاستجمام بعض الوقت فى الريف . ولكنه لم يستطع قط استجماع همته لمغادرة باريس ، ولو لمدة يوم واحد ، ما دامت أوديت موجودة بها : وكان الطقس دافئاً ، لأن تلك الفترة كانت

أجمل فترات الربيع . ومع هذا كان يمر بعربته وسط شوارع مدينة صخرية ، ليدخل بيتاً لا حديقة له ولا أعشاب حوله . فى حين أن ما يتراءى دائماً أمام عينيه هو بستان يملكه قرب كمبراى ، حيث يتسنى له فى الساعة الرابعة بعد الظهر قبل الوصول إلى حوض الإسبرجس ، بفضل النسيم الذى يهب عبر الحقول من « ميزجليز » ، أن يستمتع بعبير الهواء المنعش ، سواء أكان تحت أيكة فى الحديقة ، أو على شاطئ البركة التى تحف بها الأزاهير . وهناك فى ذاك البيت عندما يجلس إلى مائدة العشاء ، تحف به باقات الورد التى أعدتها يد البستانى الصناع .

وبعد العشاء ، إذا كان لديه موعد مبكر فى الغابة أو فى سان كلو ، ينهض عن المائدة التى كان ضيفاً عليها ويغادر الدار على عجل — ولا سيما إذا كان الجو ينذر بالمطر ، وبذلك يفرط عقد الجماعة قبل الأوان المعتاد — فتقول الأميرة ديه لوم Des Laumes مستاءة (حيث تأخر تقديم العشاء حتى أن سوان غادر القصر قبل تقديم القهوة ، لكى ينضم إلى جماعة آل فردبران فى الجزيرة بالغابة) :

— لو كان سوان أكبر سناً مما هو بثلاثين سنة ، ومصاباً بالسكر ، لكان له بعض العذر فى الإسراع بالانصراف . أما هكذا فواضح أنه يستهين بنا !

وأقنع نفسه بأن سحر فصل الربيع الذى لم يستطع التمتع به فى كمبراى ، فى وسعه على الأقل أن يجده فى جزيرة البجع أو فى

سان كلو : ولكن لما كان تفكيره منحصراً فى أوديت ، لذا كان عند عودته إلى بيته لا يدرى هل تذوق عبير الأوراق الجـديدة على غصون الأشجار : وهل كان القمر ساطعاً أم لا ! ويستقبله عازف البيانو بالجملة الموسيقية من السوناتة ، معزوفة على بيانو المطعم – أو الحديقة . فإن لم يوجد بيانو فى الحديقة ، اتخذ آل فرديران الإجراءات اللازمة لإحضار بيانو من حجرة بداخل المطعم ، لا لأن سوان عاد إلى الحظوة – فهذا لم يحدث – بل لأن ذلك التدبير يسر الزوجين صاحبي الدعوة . وبين الحين والحين يحمل سوان نفسه حملا على تذكر الربيع ، ويلقى باله إلى الأشجار والسماء : بيد أن حضور أوديت كان يكفى كى ينتابه شعور محموم قلما فارقه الآن ، يحرمه من الطمأنينة اللازمة للإحساس بمظاهر الطبيعة :

وذات مساء، وقد وافق سوان على تناول العشاء مع آل فرديران، ذكر سوان على المائدة أنه مضطر فى اليوم التالى لحضور مأدبة سنوية احتفالا برفيق قديم ، وإذا بأوديت تصيح على الفور عبر المائدة ، أمام الجميع ،وأمام فورشفيل – الذى كان قد أمسى من «الخلصاء» – وأمام الرسام ، وأمام كورتار :

– نعم . أعرف أنك ستحضر هذه المأدبة غداً ، وأننى سوف لا أراك إلا بعد عودتى إلى البيت : فاجتهد ألا تتأخر كثيراً !

ومع أن سوان لم يكن قد استاء استياء جدياً من قبل لما تظهره أوديت أحياناً من أمارات الصداقة لأحد « الخلصاء » ، إلا أنه شعر

بفرح غامر عندما سمعها تعترف علناً على هذا النحو ، أمامهم جميعاً ، وبكل « قلة حياء » أنهما يتقابلان بانتظام كل مساء ، وأنه يحتل هذا الموضع الممتاز فى بيتها ، وما ينطوى عليه هذا من تفضيل له . أجل إن سوان كان كثيراً ما فكر أن أوديت ليست امرأة غير عادية ، وأن تفضيله لامرأة أدنى منه كثيراً ليس فيه ما يطربه عندما يذاع ذلك على رءوس الأشهاد . ولكن بما أنه لاحظ أن أوديت تبدو فاتنة ومرغوبة لرجال كثيرين غيره ، لذا تمنى أن يقرن جاذبيتها الجسدية التى تتيحها له بالاستحواذ الكامل على كل ذرة من فؤادها : ومنذ هذا الحين وهو يعلق أهمية كبرى على تلك اللحظات التى يقضيها فى بيتها كل ليلة ، وقد أجلسها على ركبتيه ، وراح يسألها عن رأيها فى هذا الأمر أو ذاك ، معتزاً بهذا الكنز الذى أصبح يحرص عليه دون سائر ممتلكاته الدنيوية . ولذا فإنه بعد الانتهاء من العشاء انتحى بها جانباً ، وعنى بشكرها شكراً جماً ، كى يشعرها بمدى قدرتها على إدخال السرور على نفسه ، وأن أقصى متعة له فى الدنيا أن يأمن لذعات ونزعات الغيرة وعذابها .

* * *

ولما انصرف من المأدبة فى الليلة التالية ، كان المطر ينهمر مدراراً ، وكانت عربته مكشوفة، فعرض عليه أحد الأصدقاء أن يوصله إلى بيته فى عربته المقفلة . ولما كانت أوديت بإصرارها على قدومه إليها قد أفهمته أنها لا تنتظر أحداً سواه ، لذا كان فى وسعه

ـ بسبب المطر ـ أن يذهب إلى بيته ويأوى إلى فراشه مطمئناً : ولكنه خشى أن تسىء فهم عدم حضوره ، وتظنه غير حريص على أن يختم كل أمسية ، بلا استثناء فى صحبتها . وربما ترتب على هذا أن تتحرر هى أيضاً من التقيد به ، ولا تخصه بالليلة التى يتمناها بالذات .

وكانت الساعة قد جاوزت الحادية عشرة حين وصل إلى بابها : وبينما هو يعتذر إليها ، لأنه لم يتمكن من القدوم قبل ذلك ، شكت إليه من أن الوقت متأخر فعلا ، وأن العاصفة أصابتها بوعكة وصداع ، وأنذرته بأنها سوف لا تسمح له بأكثر من نصف ساعة ، ولابد أن تصرفه عند منتصف الليل . وبعد قليل قالت إنها مجهدة وتريد أن تنام . فسألها :

ـ ألا « كاتلايا » (كناية عن الجماع) الليلة إذن ؟ لقد كنت طول السهرة أمنى النفس بلذة « الكاتلايا » !

ولكنها لم تستجب لتوسله ، وقالت بعصبية :

ـ لا يا عزيزى . لا « كاتلايا » الليلة . ألست ترانى على غير ما يرام ؟

ـ ربما أفادتك الكاتلايا وأصلحت مزاجك ! ولكنى لن أزعجك !

وطلبت إليه أن يطفئ النور قبل انصرافه . وفعلا أحكم الستائر حول فراشها، ثم غادرها منصرفاً . ولكنه ما إن صار فى بيته، حتى

خطر له فجأة أن أوديت ربما كانت تنتظر قدوم أحد آخر هذه الليلة ، ولذا تذرعت بالتوعك والتعب ، وما طلبت منه إطفاء النور وهو منصرف إلا لكى توقع فى روعه أنها ستنام ، فى حين أنها ، ما إن غادر هو بيتها حتى بادرت بإشعال النور وفتحت بابها للشخص الآخر المجهول الذى سيكونَ ضيف أحضانها هذه الليلة !

ونظر إلى ساعته ، فإذا به قد فارقها منذ نحو ساعة ونصف ، فخرج ، وركب عربة أجرة وأوقفها قرب بيتها فى شارع صغير يصنع زاوية قائمة مع شارعها الخلفى ، وهو الشارع الذى كان من عادته أن يسلكه أحياناً لكى يدق على نافذة مخدعها كى تنهض وتذهب لتفتح له الباب الأمامى ويدخله خلسة . وغادر عربة الأجرة. وكانت الشوارع هناك خالية تماماً ومظلمة . ومشى بضع خطوات حتى صار فى مواجهة بيتها من الخلف تماماً . ورأى صف النوافذ المتشابهة مظلماً كله ، وقد أطفئت جميع الأنوار منذ وقت طويل ، ما عدا نافذة واحدة ليس إلا ، كان النور يتدفق من بين وصاوص مصراعيها المغلقين كما تغلق عصارة النبيذ على عصيرها الذهبى الثمين الخفى : وهو نفس النور الذى كثيراً ما كان يبتهج فى الليالى الأخرى حين تكتحل به عيناه عندما يهل على رأس الشارع ، فيعلم أنها ساهرة فى انتظار قدومه .:. ولكن هذا النور نفسه كم عذبه الليلة وكأنه يهيب به :

ـ إنها هناك ، مع الرجل الذى كانت تنتظره !

آه ! لابد أن يعرف من هو هذا الرجل !

ومشى على أطراف أصابعه لصق الحائط إلى أن صار عند النافذة . ولكن وصاوص النافذة المائلة لم تسمح له برؤية شىء بداخلها . ولكنه سمع فقط ـ فى سكون الليل ـ همهمة حديث :

ويا للعذاب الذى انتابه وهو يرقب ذلك الضوء ، الذى كان يتحرك فيه الاثنان ! وراح يصغى للهمهمة التى كشفت له عن وجود ذلك الرجل الذى تسلل داخلا بعد خروجه ، وكشفت له غدر أوديت والملذات التى تتذوقها الآن مع هذا الغريب !

ومع هذا لم يكن آسفاً لقدومه . وكان العذاب الذى دفعه لمغادرة بيته قد فقد حدته ، عندما زايله الشك . فحياة أوديت الأخرى التى كان يرتاب فى وجودها ها هى قائمة أمام سمعه وبصره ، يكاد يضع يده عليها ، واضحة كل الوضوح فى ضوء المصباح ، فى هذه الحجرة التى يمكنه أن يقتحمها عنوة فيضبط هذه الحياة الخفية : أو لعل الأفضل أن يدق على مصراعى النافذة ، كما فعل مراراً عندما كان يحضر فى وقت متأخر ، وسوف تدرك أوديت على الأقل من هذه الإشارة أنه عرف كل شىء ، وأنه رأى الضوء وسمع الأصوات . فى حين أنه ، وهو الذى كان يصورها منذ برهة تضحك منه ، وتشارك هذا الرجل الآخر السرور بخداعها له ، ها هو قد صار فى موقف الساخر منهما ، فسوف تعرف أنه رآهما متلبسين بالخطأ والخيانة ، وليس على مسافة كيلومترين كما كانت تظنه . بل

ها هو هنا حاضراً بشخصه ، وعلى وشك أن يطرق مصراعى النافذة .

ولعل ما شعر به (وهو شعور يكاد يكون ساراً) فى تلك اللحظة كان شيئاً أكثر من الارتياح لانتهاء هذا الشك على أى وجه ، فبرغم ألم هذا اليقين أحس لذة عقلية ناجمة عنه .

ولئن كانت حدة الجاذبية التى لأوديت قد خفت قليلا ، فقد حلت محل ذلك الشعور ملكات أخرى رسخت فيه منذ حداثته وفترة دراسته ، تتركز حول الولع بالحقيقة ، إلا أن هذه الحقيقة التى صار يهيم بها لا تخصه وحده ، بل هى مشتركة بينه وبين عشيقته ، وتستمد أنوارها منها وحدها : فهى حقيقة من نوع خاص وشخصى جداً ، موضوعها الوحيد الهائل القيمة ، ذو الجمال المطلق ، هو « أوديت » : أوديت فى أوجه نشاطها وبيئتها ، ومشروعاتها الحالية والمستقبلة ، وماضيها :

وفى فترة أخرى من حياته كانت كلمات الحياة اليومية لشخص آخر ، وأفعال وتصرفات هذا الشخص تبدو عديمة القيمة تماماً فى نظر سوان : وفى حالة إعادة مثل هذا اللغو على مسامعه كان يراه بلا معنى . وأما إن أصغى له فهو لا يعيره إلا أدنى مستويات ذهنه : أما فى هذه المرحلة الجديدة الغريبة من حبه فقد تضخمت جداً صورة المعشوقة وصارت لها أعماق بعيدة ، فاستبد به الفضول لمعرفة أصغر تفصيلات مشاغلها اليومية ، وصار ظمأه إلى هذا بديلا من تعطشه القديم لدراسة التاريخ : وكل الأساليب التى كان فيما مضى ينكص



ولما رفع يده وهم بالطرق على مصراعى النافذة شعر بوخزة خذى ، مصدرها تفكيره فى أوديت وأنها ستعرف الآن أنه شك فيها ..

عنها فى خزى ـ مثل التجسس هذه الليلة خارج نافذة ، والتحرى غداً من الخدم ورشوتهم بالمال ، والتصنت على الأبواب ـ صارت اليوم مشروعة ومباحة فى نظره ، تماماً مثل انكبابه القديم على حل وتفسير النقوش الغامضة ، والنبش عن الوثائق وما إلى ذلك من وسائل البحث العلمى . أجل صارت لهذه الوسائل الدنيئة الجديدة قيمة ذهنية لأنها سبل ـ وإن كانت ملتوية ـ للوصول إلى الحقيقة :

ولما رفع يده وهم بالطرق على مصراعى النافذة شعر بوخزة خزى ، مصدرها تفكيره فى أوديت وأنها ستعرف الآن أنه شك فيها ، وأنه عاد ، ووقف تحت نافذتها يتلصص عليها . وكثيراً ما قالت له من قبل كم تفزع من الرجال الغيورين ، ومن العشاق الذين يتجسسون . وما يهم بفعله الآن يمكن أن يكون فى منتهى الخرق ، ويمكن أن تحتقره أوديت وتمقته بسببه إلى الأبد بعد ذلك . أما إن امتنع الآن عن الطرق ، فربما ظل له فى قلبها بعض الحب ، حتى وهى منهمكة فى خيانته مع الآخر . وما أكثر ما يهدر الأخرق سعادة مستقبلة فى سبيل إلحاح نفاد صبره الذى يتطلب إرضاء فورياً ! ولكن رغبته فى معرفة الحقيقة كانت أقوى ، وبدت له أنبل وأجدر بالاستجابة لها من اشتهائه لأوديت ورغبته فيها . وكان يعرف أنه كان مستعداً أن يضحى بحياته فى سبيل استقصاء القصة كاملة وبدقة ، وسبيل معرفتها هو ما وراء هذه النافذة التى يتسرب من شقوقها الضوء . وتلهف على إشباع جوعه إلى معرفة هذه الحقيقة . ثم لعل

النشوة التى يصبو إليها لم تكن فى معرفة الحقيقة ، بقدر ما كانت فى أن يبين لها أنه « يعرف » .

وشب على أصابع قدميه ، وطرق النافذة مرة : ولم يسمعا ، فطرق مرة أخرى ، بصوت أعلى ، فتوقف الحديث الدائر بينهما ، وسمع صوت رجل ــ وأرهف أذنيه جيداً ليميز صوت من يكون من بين أصدقاء أوديت الذين يعرفهم ــ يسأله :

ــ من الطارق ؟

ولم يستطع التأكد من هوية صاحب الصوت : فطرق مرة ثالثة . وسمع صوت فتح زجاج النافذة ، ثم مصراعيها الخشبيين : ولم تعد هناك فرصة للتراجع . وبما أنها لا بد أن تعرف كل شىء : وحتى لا يبدو خسيساً أو غيوراً وفضولياً ، صاح بصوت غير مبال وفيه مرح وترحيب :

ــ أرجوك ألا تزعجى نفسك . لقد تصادف مرورى من هنا ، ورأيت الضوء ، فأردت أن أعرف هل تحسنت حالتك الآن أم لا :

ورفع بصره إلى أعلى ، فرأى رجلين فى مواجهته مطلين من النافذة ، وفى يد أحدهما مصباح : واستطاع أن يرى الحجرة من خلفهما ، فإذا هى حجرة لم يقع عليها بصره قط من قبل !

وكان قد تعود ، عند حضوره متأخراً لزيارة أوديت ، أن يتعرف على نافذتها بأنها النافذة الوحيدة المضيئة فى هذه الساعة فى

صف من النوافذ المتشابهة تماماً . فانخدع هذه المرة بالضوء ، وطرق نافذة تالية لنافذتها ، فى بيت ملاصق لبيتها !

وأسرع يقدم الاعتذارات التى استطاعها وانصرف على عجل إلى داره . وقد استخفه الفرح لأن إشباع فضوله قد أبقى على حبه سليماً لم يمس : ولأن ما كان يخامره أحياناً وهو فى خلوة مع أوديت من بوادر عدم الاكتراث قد تبخر الآن تماماً بنيران ما استولى عليه من غيرة ، فكان ذلك دليلا دافعاً على فرط شغفه وتدلهه فى حبها :

* * *

ولم يبح لها قط بهذه المغامرة الفاشلة ، بل وكف هو شخصياً عن التفكير فيها . ولكن بين الحين والحين كانت خواطره الهائمة على وجهها تتوقف عند هذه الذكرى ، وتبعث فيها الحياة ، وتعمق أثرها فى وعيه ، وتسبب له وخزاً شديد الإيلام . وكان ذهن سوان يعجز عن تخفيف هذا الألم المعنوى وكأنه ألم جسمى ، لأنه مستقل تماماً عن مجال العقل الذى يمكنه أن يتخذه موضوعاً يتأمله ويتدبره ، إلى أن يلاحظ أنه تضاءل من تلقاء نفسه ، ثم تلاشى . إلا أن العقل حين يعاود بعد ذلك التفكير فيه يبعثه حياً من جديد . وإذا قرر سوان ألا يفكر فيه ، كان هذا القرار نفسه تفكيراً فيه ! وربما أنساه الحديث مع أصدقائه فى أمور أخرى هذا الحادث ، ولكن كلمة عابرة قد تثير ذكراه عن غير عمد ، كما يحدث للجريح أن ينزف

جرحه من جديد من أثر لمسة طائشة غير مقصودة من صديق ، أو حتى من عابر سبيل !

وعندما كان ينصرف من عند أوديت كان يشعر بالسعادة والهدوء ، ويتذكر الابتسامة التى اقترنت – فى سخرية لطيفة – بحديثها معه عن هذا الرجل أو ذاك . وهى ابتسامة كلها رقة وحنان موجهين إليه . ويتذكر الجد الذى يكسو محياها حين يهوى رأسها فوق شفتيه – وكأنما يحدث هذا رغم إرادتها – كما حدث ذلك منها ليلة قبلتهما الأولى فى العربة . ويتذكر نظرتها الواهنة المسترخية وهى مستكنة بين ذراعيه ، وقد غاص رأسها بين كتفيها كمن تلوذ من شدة البرد : ولكن لا تلبث غيرته – وكأنها ظل حبه لها – أن تمده بنقيض هذه الابتسامة ألا وهى ابتسامتها التى استقبلته بها تلك الليلة التى امتنعت فيها عليه لأنها مجهدة . ويتخيلها وقد أطبقت على شفتى رجل آخر بكل الإعزاز الذى كانت تبديه له شخصياً . وكانت كل هذه الخواطر والرؤى التى تموج بها نفسه وهو منصرف ، كأنها اسكتشات تزوده بها مخيلته لما يمكن أن تمنحه لسواه فى صور ودرجات مختلفة من اتقاد العاطفة . حتى أنه صار يندم على كل مداعبة جديدة ابتكرها فى جماعه لها (وكان طائشاً حين نبهها إلى مدى حلاوتها) وعلى كل فتنة اكتشفها لديها ، لعلمه أنها بعد لحظة ستثرى حجرته السرية التى تزدحم بأدوات التعذيب عند اتقاد لهيب غيرته :

* * *

وحدث تحول جديد فى الموقف النفسى لسوان عندما تذكر تعبيراً مفاجئاً كان قد لاحظه قبل ذلك ببضعة أيام ، ولأول مرة ، فى عينى أوديت . وكان ذلك بعد العشاء فى بيت آل فردبران : وكان فورشفيل قد رد على كلمة غير موفقة صدرت من نسيبه سانية بوابل من الإهانات المتعمدة ، وشجعه على التمادى فى ذلك ما أبداه سانيت من ألم وخوف وتوسل . وذلك إما لأن فورشفيل فطن إلى أن سانيت – صهره – لم يكن يتمتع بالحظوة لدى آل فردبران ، أو لأنه استاء من ملاحظة خرقاء وجهها إليه سانيت ، وإن كانت قد مرت ولم يتنبه إليها بقية الحاضرين الذين كانوا لا يعرفون ما وراءها من تعريض خفى ، أو لأنه ربما كان يبحث منذ زمن عن مناسبة تكفل له إبعاد هذا الضيف الذى يعرف عنه الكثير ، لدرجة أنه كان يشعر بالحرج من مجرد وجوده فى الحجرة . وترتب على هذا التحرش العدوانى أن سأل سانيت مدام فردبران أيبقى أم ينصرف ، فلم ترد عليه ، فانصرف من البيت وهو يغمغم والدموع فى عينيه ، وكانت أوديت ترقب هذا المشهد من غير أن يبدو عليها أى انطباع ، ولكن ما إن أقفل الباب وراء سانيت حتى بدلت تعبير محياها بحيث هبط إلى مستوى سوقية تصرف فورشفيل ، ولمعت عيناها بوميض بسمة شريرة تهنئ بها فورشفيل على جسارته ، ومازجت هذه الابتسامة إشفاقة ساخرة على ضحيته : ورمقت فورشفيل بنظرة تواطؤ على هذه الجريمة ، كأنها تقول :

ــ ها قد فرغنا من أمره وقضينا عليه ! أترى كيف كان يبدو أبله ؟ لقد كان يبكى فعلا .

ولما التقت عينا فورشفيل بعينيها انفثأت معالم غضبه المزعوم وابتسم وقال :

ــ ما كان عليه إلا أن يكون لطيفاً ، كى يبقى معنا . ولا أظن التقريع الملائم يضر أحداً ، فى أى وقت .

وذات يوم ذهب سوان فى وقت مبكر بعد الظهر لزيارة شخص ، ولم يجده فى بيته ، فخطر له أن يذهب لزيارة أوديت ، فى ساعة لم يتعود زيارتها فيها ، إلا أنه يعلم أنها تكون فيها دائماً ببيتها ، مخلدة للراحة ، أو مشتغلة بتحرير الرسائل حتى يحين وقت الشاى : وسوف يسره أن يراها برهة من غير إزعاج لها . وقال له البواب : إنه يعتقد أن أوديت موجودة بالبيت : ودق سوان الجرس ، وظن أنه سمع صوتاً ووقع خطى . ولكن لم يأت إلى الباب أحد : فانتابه القلق والضيق ، ودار حول البيت ، ووقف تحت نافذة مخدعها ، فوجد الستائر مسدلة فلم يستطع رؤية شىء ، وطرق زجاج النافذة بشدة . وصاح منادياً ، ولكن أحداً لم يجبه . ولاحظ أن الجيران يحملقون فيه ، فابتعد وهو يحسب أنه ربما كان مخطئاً فى اعتقاده أنه سمع وقع أقدام . بيد أنه ظل مشغول البال بشكوكه بحيث لم يستطع أن يفكر فى أى شىء آخر : وبعد أن انتظر ساعة عاد إلى بيتها ، فوجدها فيه . وقالت له : إنها كانت فى البيت عندما رن الجرس ،

ولكنها كانت نائمة فأيقظها الجرس ، وخمنت أنه سوان ولا شك ، وجرت لتقابله ، ولكنه كان قد انصرف . وقد سمعت بالطبع دقه على النافذة . واستطاع سوان على الفور أن يتبين فى هذه القصة شذرات من الحقيقة الظاهرية التى يدسها الكذابون فى قصصهم لإكسابها مظهر الصدق وإخفاء ما يريدون إخفاءه خلف هذا المظهر ؛ وخالت أن ذلك كفيل ألا يفضحها أو يفضح أكاذيبها ، ولكن فاتها أن عناصر الصدق التى استخدمتها لا تتكامل مع عناصر الأكاذيب ، فتبقى هناك ثغرات تكشف الخديعة والزور :

وقال سوان فى نفسه :

ــ إنها تعترف بأنها سمعتنى أرن الجرس ، ثم أطرق النافذة : وأنها عرفت أن الطارق أنا ، وأنها كانت تريد أن ترانى . ولكن هذا لا يتفق مع امتناعها عن فتح الباب لى !

بيد أنه لم يلفت نظرها إلى هذا التضارب ، لأنه اعتقد أن أوديت لو تركت لنفسها واعتقدت أنه صدقها ، ربما زل لسانها بعد ذلك بما يرشده إلى الحقيقة . ولكن أوديت كانت حريصة على ألا يفلت منها شىء يكشف عما كانت تصنعه فعلا فى الساعة الثالثة بعد الظهر :

وعندما هم أن ينصرف عائداً إلى بيته ، رجته أوديت أن يبقى برهة أخرى ، بل واحتجزته بالقوة ، وجذبته من ذراعه وهو يفتح الباب ليخرج ، وقالت له بإلحاح :

— إنك للأسف الشديد لا تأتى أبداً لزيارتى بعد الظهر : وفى المرة الوحيدة التى جئت فيها ، لم أرك :

وكان يعرف جيداً جداً أنها لم تكن عاشقة له إلى درجة التعاسة الحقيقية لأنها لم تدركه عند الباب ، ولكنها امرأة طيبة القلب تريد أن تسره ، وكثيراً ما استاءت لأنها صنعت أى شىء يمكن أن يضايقه : ولذا وجد من الطبيعى أن تأسف هذه المرة لأنها حرمته من قضاء ساعة فى صحبتها ، لا شك أنها مصدر متعة كبرى له على الأقل ، إن لم تكن لها . ولكن المسألة على كل حال كانت قليلة الأهمية ، ولذا حيرته مظاهر كل هذا الأسف الشديد فى نهاية الأمر : وذكرته بوجوده بعض النسوة اللواتى صورهن رسام البريمافيرا Primavera : فقد رأى على محياها ما على وجوههن من أمارات انكسار القلب ، وكأنهن يوشكن أن ينهرن تحت عبء حزنهن الفاجع ، وهن يرقبن يسوع الطفل يلعب برمانة ، أو موسى وهو يصب الماء فى طست : وكان قد رأى هذا الحزن الشديد على محياها من قبل ذات مرة ، ولكنه لا يذكر الآن متى كان هذا . ثم فجأة تذكر . لقد كان هذا عندما كذبت أوديت ذات مرة مضطرة وهى تعتذر لمدام فردبران فى الأمسية التالية للعشاء الذى تناولته معه متذرعة بالمرض ، فى حين أنها كانت تريد أن تنفرد بسوان تلك الليلة : وبالغاً ما بلغت سذاجتها وطهارة ذمتها ، فلا يمكن أن تشعر بكل هذا الندم على أكذوبة بريئة كهذه . ولكن الأكاذيب التى كانت أوديت تتفوه بها عادة كانت

أقل براءة من هذه ، والغرض منها منع افتضاح أمور يمكن أن تسبب لها أشد المتاعب مع أحد أصدقائها . ولذا كانت عندما تكذب تشعر بقلة الثقة فى نجاحها وتحس الإعياء لفرط ما تبذله من جهد ، مثلما يبكى الأطفال أحياناً عندما لا يحظون بالنوم . وكانت تعلم أيضاً أن كذبتها تسبب عادة ضرراً كبيراً للرجل الذى تتفوه بها له ، وقد تجد نفسها تحت رحمته إن لم تحسن قولها . ولذا تشعر على الفور بالذنب فى حضرته ...

فأى أكذوبة يا ترى دبرتها الآن إرضاء أو ترضية لسوان ، بحيث يسبب لها هذا التدبير كل هذا الألم فى تعبير وجهها ، وفى صوتها الذى يكاد يتخاذل من عنف المجهود الذى تستجمع قوتها لبذله ، وكأنها تستميحه بذلك كله العفو والغفران ؟ وغلب على ظنه أن حقيقة ما حدث بعد ظهر هذا اليوم ليست هى ما تحاول أن تخفيه عنه ، بل هو شىء لعله لم يحدث بعد ، ولكنه من الممكن أن يحدث الآن فى أى وقت : وعندما يحدث سيلقى ضوءاً على الحدث الذى وقع قبله : وفى تلك اللحظة سمع جرس الباب يرن ، ولم تتوقف أوديت قط عن الكلام ، ولكن كلماتها تحولت إلى شبه أنين غير واضح المعالم :

انتهى الجزء الثانى
من (غرام سوان)
ويليه الجزء الثالث

رقم الإيداع ٤٣٧٩
الترقيم الدولى ٠٨٠٠٦ - ١٧٣ - ٩٧٧

المطبعة العربية الحديثة
٨ شارع ٤٧ بالمنطقة الصناعية بالعباسية
تليفون : ٨٢٦٢٨٠ القاهرة





عزيزى القارى ..

فى الكتاب السابق قدمت لك الجزء الأول من رواية (غرام سوان) ، وهى الرواية الأولى من ملحمة الأديب الفرنسى الشهير« مارسيل بروست » (البحث عن الزمن المفقود) ، التى وصفها المفكر المصرى الكبير الدكتور زكى نجيب محمود بأنها من أعظم الكتب التى تفتق عنها الذهن البشرى فى القرن العشرين . والیوم أحدثك فى هذه النبذة المختصرة عن مؤلف هذه الملحمة الخالدة : ولد « مارسيل بروست » فى ضاحية (أوتوى) بباريس ، يوم ١٠ يوليو من عام ١٨٧١ . وكانت أسرته من عائلات باريس البورجوازية الثرية ، وكان والده أستاذاً فى كلية الطب بباريس . وقد تلقى مارسيل دراسته الابتدائية على مدرسين خصوصيين فى البيت ، فهو لم يختلف إلى مدارس فى تلك المرحلة الباكرة من طفولته وصباه ، التى كانت مرحلة اتسمت بالهدوء والتدليل . وفى مرحلة الشباب التى تلتها عقد عدة صداقات فى البيئات الاجتماعية والأدبية التى أحاطت به . وفى عام ١٩٠٠ ، وهو فى التاسعة والعشرين من عمره ، ارتحل إلى مدينة البندقية (فينيسيا) حيث اهتم بدراسة أعمال المفكر البريطانى والناقد الفنى الشهير فى العصر الفكتورى « جون راسكين » (١٨١٩ـ ١٩٠٠) الذى كان قد توفى فى ٢٠ يناير ١٩٠٠ ـ وبلغ من إعجابه بتلك الأعمال أنه ترجم بعضها إلى اللغة الفرنسية !

.. وقد توفى والد « مارسيل بروست » فى عام ١٩٠٣ ، ولحقت به أمه فى عام ١٩٠٥ .. وكانت هاتان الصدمتان ـ بالإضافة إلى حالة « الربو » وضيق التنفس التى كان يعانى منها ـ سبباً فى حياة العزلة المتزايدة التى أخذ نفسه بها ، وإن يكن قد تبادل مئات المراسلات مع العديد من الشخصيات البارزة فى عالم الأدب والفن . ومنذ عام ١٩٠٧ عاش « بروست » فى حجرة مبطنة بالفلين ، كى يقاوم نوبات الربو التى كانت تعذبه ، وكان ينام خلال النهار ، ويعمل طوال الليل . وقد أنجز المسودة الأولى لملحمته الخالدة (البحث عن الزمن المفقود) خلال السنوات الثلاث ، من ١٩٠٩ إلى ١٩١٢ ، لكنه ظل يراجعها ويعيد مراجعتها ، ويضيف إليها . حتى ضاعف من طولها إلى نحو ثلاثة أضعاف حجم المسودة الأولى إلى أن أدركته الوفاة فى عام ١٩٢٢ (عن ٥١ عاماً) .. وقد ظفرت الرواية الثانية من الملحمة المذكورة (وعنوانها « داخل بستان ذى براعم ») بجائزة جونكور الفرنسية المشهورة ، فى عام ١٩١٩ .

